المكتبة الصوفية

تنبيه المغترين

للقطب الرباني الشيخ عبد الوهاب الشعراني

تحقيق وضبط

الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار

توفيق علي وهبة

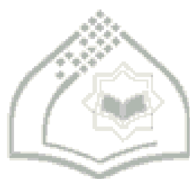
الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



تنبيه المغترين

للقطب الرباني الشيخ عبد الوهاب الشعراني


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المكتبة الصوفية

تنبيه المغترين

للقطب الربانى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى

تحقيق وضبط

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق على وهبة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية



الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - ٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١٩٠٦٩
الترقيم الدولي I.S.B.N	977-341-175-3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . أحمده سبحانه وتعالى حمداً كثيراً طيباً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أما بعد..

فإن كتاب (تنبيه المغترين) للإمام الربانى والمحقق الصمدانى . سيدنا ومولانا العارف بالله عبد الوهاب الشعرانى : أبى المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الأنصارى الشافعى المصرى المعروف بالشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هجرية .

وقد اطلعنا على مخطوط كتاب (تنبيه المغترين) فوجدناه كتاباً مفيداً لأهل العلم . ولهذا رغبنا أن نخرجه ليكون فى متناول القراء حتى يستفيدوا منه فى خطبهم ومواعظهم ودروسهم . خاصة أن الإمام الشعرانى - رحمه الله - يذكر فى الكتاب كثيراً من أقوال السلف - رحمهم الله -

وكتاب : (تنبيه المغترين) طبع قبل ذلك بمطبعة مصطفى البابى الحلبى. كما طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية . وقد راجعنا الطبعتين . واعتمدنا على مخطوطة الأزهر لأنها الأصل خاصة أنها كتبت فى عهد المؤلف - رحمه الله -

وإبراز هذه الكتب الشوامخ . مفيد فى وقت اشتدت الحاجة إليها . لأن الناس فى أشد الحاجة إلى التعرف على الأخلاق الفاضلة، والقيم الرفيعة التى تأخذ بيد المجتمعات الإنسانية إلى الاستقرار والأمن ، وحسن التعامل .

وكتاب (تنبيه المغترين) كتاب عظيم فى موضوعه . فهو كتاب ثقافة فاعلة بانية. تنطلق من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -

وإذا وجد القارئ فى الكتاب ما لا يتفق مع العقلانية المستنيرة. فليس هناك ما يمنع من قراءتها ، وقد ذكر الإمام الشعرانى أن بعض الأقوال التى لا تناسب معالم الدين قد تكون مدسوسة عليه . وقد كان الإمام الشعرانى - رضى الله عنه - علماً من الأعلام الذين هيأ الله عز وجل لهم البصيرة النافذة .

والمجتمعات الإسلامية فى عصر اتسم بالقلق الفكرى ، وانفصال الشخصية عن قضايا القيم ، وإصابة المجتمعات الإنسانية بالإرهاب والعنف والتشدد . فى أشد الحاجة إلى أن تقرأ معالم القيم الهادفة النبيلة ، وتأخذ بها فى مسيرتها فى الحياة . حتى تعود إلى الرشاد والسداد والصواب .

وإن أمة تملك هذه القيم الهادفة التى جاءت فى كتاب (تنبيه المغترين) جدير بها أن تملك فلسفة خاصة تبنى بها حياتها، وتنمى مجتمعاتها..

وإن علماء الأمة الإسلامية مثل الإمام الشعرانى والحكيم الترمذى وغيرهما ممن وضعوا المعالم المضيئة فى الطريق . حرى بنا أن نقرأ فكرهم ، وننتفع به خاصة ، وأمتنا بمشيئة الله تعالى تخطو إلى مجد مشرق ، ومستقبل زاهر .

نسأل الله عز وجل أن ينفع به

إنه سميع قريب مجيب الدعوات



المحققان

أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح **المستشار/ توفيق على وهبه**



مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، وأقول سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وبعد ...

فهذا الكتاب نفيس صغير الحجم كبير القدر. ضمنته جملة صالحة مما كان عليه السلف الصالح. من صفات معاملتهم مع الله تعالى، ومع خلقه وحررته على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر وذلك بحسب فهمي حال التأليف فهو كالكتاب المسمى المنهاج للإمام النووي في الفقه.

فكما أن علماء العصر يفتون الناس بما فيه وما حوى من الترجيحات كذلك علماء السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، والعلماء العاملين - رضي الله عنهم أجمعين - أو بما منّ الله تعالى علي بالتخلق به أوائل دخولي في طريق محبة القوم خوفاً أن يقول بعض المتعنتين كيف يأمرنا فلان بالتخلق بأخلاق القوم وهو نفسه لم يقدر على هذه الأخلاق فلذلك صرحت بكثير من الأخلاق التي منّ الله تعالى بها عليّ دون أقراني بقولي وهذا خلق غريب لم أجد من تخلق به في هذا الزمان غيري، تنبيهاً للسامعين على تخلقي به.

وإنني ما دعوتهم إلى التخلق به إلا بعد تخلقي به. ولولا ذلك لكان الأولى بنا كتم ذلك عن الإخوان كبقية أعمالنا التي لم نر من يطلب الاقتداء بنافيها إذ لا فائدة في إظهار الأعمال إلا لأحد شيئين:

إما ليقتدي الناس بالعبد فيها، وإما ليظهرها من باب الشكر لله تعالى لا غير وكأن لسان حالي يقول لكل متعنت انظر يا أخي في أخلاقي فما وجدتني يا أخي متخلقاً به فتخلق به، وما بقي لك عذر، وما لم تجدني متخلقاً به فعذري عذرك فيه.

وكثيراً ما أكرر الخلق مراراً بعبارات مختلفة اقتداء بالقرآن العظيم، وبصحيح الإمام البخاري وغيره من كتب الأدلة وبياناً للاعتناء بشأن ذلك الخلق وكثرة تساهل الناس بتركه كما أقول في بعض الأوقات وهذا الخلق قد صار غريباً في هذا الزمان ولا أعلم أحداً من أقراني تخلق به غيري إشارة لقلة من تخلق به من الأقران لا ازدراء للإخوان كما قد يتوهم -معاذ الله- أن أقصد مثل ذلك.

وكان من الباعث الأعظم لي على تأليف هذا الكتاب ما رأيته من تفتيش جماعة مولانا السلطان سليمان بن عثمان في النصف الثاني من القرن العاشر على ما اختلسه العمال وغيرهم من ماله نصرة له، وما رأيت أحداً من علماء الشرع يفتش على ما اندرس من معالم أخلاق الشريعة المحمدية نصرة لرسول الله ﷺ كما فعل جماعة مولانا السلطان نصره الله فأخذتني الغيرة الإيمانية على الشريعة وألفت هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من معالم أخلاقها في دولة علماء الظاهر والباطن فهو نافع لكل فقيه وصوفي في هذا الزمان لا يكاد أحد منهم يستغني عن النظر فيه كما ستعرفه عند مطالعتك الكتاب إن شاء الله تعالى وهو كالسيف القاطع لعنق كل مدع للمشيخة في هذا الزمان بغير حق. لأنه يفلسه حتى يرى نفسه منسلخة من أخلاق القوم كما تنسلخ الحية من ثوبها.

واني أعرف بعض جماعة بلغهم أمر هذا الكتاب فتكدروا ولو أمكنهم سرقته وغسله لفعلوا خوفاً أن ينظر فيه أحد ممن يعتقدهم فيتغير اعتقاده فيهم حين يراهم بمعزل عن التخلق بأخلاق القوم الذين يزعمون أنهم خلفاؤهم وكان الأولى بهم الفرح والسرور به فإنه كله نصح ولا يجد أحد منهم من ينصحه بمثله في مثل هذا الزمان.

وقد ألف أخي الشيخ أبو الفضل رحمه الله ميزاناً في نصح إخوانه وغيرهم نحو خمسة أوراق فكتبوها بماء الذهب واللازورد وفرحوا بها أشد الفرح فرضي الله عن الصادقين آمين.

وكان تأليفي لهذا الكتاب بحسب الوقائع التي تقع مني ومن أصحابي وما من خلق ذكرته فيه إلا وهو وارد على سبب أعرفه فرحم الله من رأى فيه خللاً فأصلحه مساعدة لي على الخير فإنه ليس منقولاً من كتب بالأصالة وإنما هو كالاستنباط من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة وجميع ما ذكرته فيه من النقول إنما هو كالاستشهاد لما ذكرت لا غير كما ستراه إن شاء الله تعالى.

وإذا كان المؤلف أول مستنبط كما ذكرناه احتاج كلامه إلى من يتعقبه ويستدرك عليه ضرورة كما استدرك العلماء من المتأخرين على من سبقهم بخلاف من كان مؤلفه مجموعاً من نقول المتأخرين فإن كلامه لا يحتاج إلى التعقيب إلا في النادر وذلك لأنه يرى تنكيت العلماء على بعضهم فيأخذ العبارة السالمة من التنكيت كما فعل شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في مؤلفاته ﷺ.

فلذلك من ألف كتاباً لم يسبق إليه فقد جعل كلامه هدفاً لجميع المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والنحاة والمتكلمين والصوفية والبيانيين وغيرهم فيحتاج في

كل قولة إلى جدال جميع هؤلاء العلماء قبل أن يضع تلك القولة قال تعالى: [وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] [١] وذلك لسر استحضار المؤلف جميع ما قيل في تلك المسألة وما يرد على منطوقها ومفهوما حال الكتابة ولو أنه قدر على ذلك ما احتاجت الكتب إلى شروح ولا احتاجت الشروح إلى حواش عليها وهذا شأني في مؤلفاتي كلها ما عدا الحديث والمختصرات من أصول فكلها مستنبطة من الكتاب والسنة، وقد كان الإمام عمر بن الخطاب يفتي الناس ويقول هذا قول عمر فما كان صوابًا فمن الله وإن كان خطأ فمن عمر انتهى.

وكذلك كان أبو حنيفة ﷺ يفتي، ويقول: هذا أكثر ما قدرنا عليه في العلم فمن وجد أوضح منه فهو أولى بالصواب، وكثيرًا ما كان يقول: هذه فتوى النعمان. فإن كانت صوابًا فمن الله وإن كانت خطأ فمن النعمان والتبعة عليه فيها فى الدنيا والآخرة.

وهكذا يقول مؤلف هذا الكتاب، وأرجو من فضل الله أن يكون هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من أخلاق القوم ﷺ بعد الفترة التي حصلت بعد موت الأشياخ الذين أدركناهم في النصف الأول من القرن العاشر فقد أدركنا بحمد الله تعالى نحوًا من مائة شيخ كان كل واحد منهم يستسقي به الغيث كسيدي علي المرصفي، وسيدي محمد الشناوي، وسيدي محمد بن داود، وسيدي أبي بكر الحديدي، وسيدي عبد الحليم بن مصلح، وسيدي أبي السعود الجارحي، وسيدي تاج الدين الذاكر، وسيدي محمد بن عنان، وسيدي علي الخواص، وغيرهم ممن ذكرناهم في كتاب طبقات العلماء والصوفية.

فكل هؤلاء كانوا على قدم عظيم في الزهد والعبادة والورع وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن استعمالها في شيء مما نهاهم الله عنه وكان أحدهم لا يقبل شيئًا من أموال الولاة ولو كان في غاية الضيق بل يطوي ويجوع حتى يجد شيئًا من الحلال، ولم يكن أحد منهم يعاني ركوب الخيل ولا الملابس الفاخرة ولا الأطعمة النفيسة ولا يتزوج المنعمات، ولا يسكن في القاعات المرخمات إلا إن وجد ذلك من حلال في نادر من الأوقات.

وكان الملوك يعرضون عليهم الرزق والجوالي والمساميح، والمرتبات من بيت المال فيأبون ذلك ويقولون مال السلطان إنما هو معد لصرفه في المصالح وإقامة شعائر الدين وإنفاقه على الجند الذابين عن المسلمين، ونحن ليس فينا نفع لأحد.

وكان أحدهم يقنع بالكسرة اليابسة يفتها في الماء، ويغمسها بملح، ويكتفي بها منهم

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

الشيخ أمين الغمري، والشيخ محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي، ودخل عليه السلطان قايتباي مرة وهو يأكل رغيفا يابسًا بله في الماء، فعرض عليه ألف دينار فردها، وقال لا حاجة لي بها وأنشد للسلطان يقول:

اقنع بلقمة وشربة ماء ولبس الخيش   وقل لعقلك ملوك الأرض راحوا بيش

فحصل للسلطان عبرة وبكى، وحمل الألف دينار.

فأين حال هؤلاء المشايخ من مشايخ هذا الزمان الذين يسافرون من مصر أو الحجاز، أو الشام، إلى الروم، أو العراق. ليسألوا أن يرتب لهم السلطان جوالي أو مسموحًا أو مرتبًا. مع أن أحدهم يجد في بلده ما يكفيه، وكان الأولى بهم لو عرض عليهم ذلك أن يردوه، ولا يزاحموا جند السلطان في مال المصالح كما درج عليه سلفهم الصالح بل لم نر أحدًا من مريدي المشايخ الذين أدركناهم يسافر من بلده في طلب الدنيا فضلاً عن المشايخ. لأن أول قدم يضعه المريد في الطريق أن يخرج عما بيده من الدنيا ويرميه في بحر الإياس كما هو معلوم.

وقد سافر مرة من مشايخ مصر شخص إلى الروم فاجتمع بالوزير إياس باشا فقال له: ما صنعتك؟ فقال: شيخ من أهل الطريق، فقال له إياس فما حاجتك التى جئت فيها؟ قال: ترتبوا لي شيئًا من بيت المال، فقال له الوزير: هل تعلم أن أحدًا في مصر مثلك في الطريق؟ فقال: لا، فقال له إياس: أف لك من شيخ إذا كان هذا حالك، وأنت تزعم أنه ليس أحد في مصر أعلى منك مقامًا في الطريق.

فكيف ببقية المشايخ لقد أزريت بالفقراء وبهدلت الطريق فإن أحد المريدين لو فعل ذلك، وسافر من بلده إلى غيرها في طلب الدنيا لخرج عن طريق الإرادة. فكيف تفعل أنت مثل ذلك في حال نهايتك، وزجره، وأمر بإخراجه من عنده، فرجع خاسر المطالب.

ووقع لشخص من الشام أنه سافر إلى الروم يطلب له زيادة مرتب من الجوالي وكانوا أعطوه قبل ذلك أربعين نصفًا كل يوم فلما بلغ اسلامبول جلس في طرق البلد وأرسل قاصده إلى الوزير وكان إذ ذاك إياس باشا أيضًا يعلمه بقدوم سيدي الشيخ ليخرج إلى لقائه فأبى الباشا وقال للقاصد: قل له إن كان لكم عندنا حاجة فأتونا إلى البيت فذهب القاصد للشيخ وأخبره بمقالة الوزير، ثم قال الوزير: يا عجبًا كيف يسافر هذا من الشام إلى الروم في طلب الدنيا ويطلب من الأمراء أن يعظموه ويخرجوا إلى لقائه مع أنه يحتاج إليهم وليس أحد منهم يحتاج إليه وإذا كان هذا يزعم إنه ولي وقد راض نفسه بأصناف المجاهدات وهو

يرمي نفسه على الأمراء لأجل طلب الدنيا فكيف بنا نحن مع عدم رياضتنا نفوسنا وعدم حاجتنا إليه، ثم إن الباشا أرسل للشيخ ضيافة ولم يأت إليه وقال: إنما فعلت ذلك مع الشيخ لأعلمه الأدب فإن ذهاب مثلنا إنما يكون لمن نعرض عليه الدنيا فيردها علينا، وأما من يطلبها منا ويسافر من وطنه لأجل ذلك فلا يستحق أن أحدًا منا يمشي إليه، وآخر الأمر أن الشيخ رد خائبًا إلى بلاده.

وقال لي الأمير محمد دفتردار مصر مرة أنا لا أعتقد في مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم في الهواء فقلت له: لماذا فقال لأني رأيتهم يجتهدون في طلب الدنيا أكثر مما نجتهد نحن فيها، قال: وقد دخل على شيخ منهم في رمضان ليفطر عندي فقلت له هذا الطعام عندى فى حله شك فلا تأكل منه فقال قدمه لى وعلى حسابه فى الآخرة فكيف أعتقد مثل هذا وأنا لا تطيب نفسي أن آكل منه مع إني معدود من الظلمة اهـ.

ولما مات الشيخ نور الدين الشعراني رأيته في المنام، وقال: أنا نادم على قبول الرزقة التي أعطاها لي خاير بك فإني طول عمري كنت حرًا اهـ.

فإياك يا أخي أن تظن بالمشايخ الذين أدركناهم إنهم كانوا مثل هؤلاء في قلة الورع والقناعة فتسيء الظن بهم، وإياك يا أخي أن تتظاهر بالمشيخة في هذا الزمان إلا إن كنت محفوظ الظاهر والباطن من التخليط، كأكل أموال الكشاف ومشايخ العرب والظلمة فإن تظاهرت بذلك وظاهرك غير محفوظ فقد خنت الله ورسوله وأهل الطريق وأتلفت دين من يتبعك وكان عليك إثم الأئمة المضلين زيادة على إثمك لا سيما إن ادعيت أنك أعلى مشايخ مصر مقامًا.

فلذلك وضعت هذا الكتاب كالميزان الذين يتبين به الرابح من الخاسر والمحق من المبطل والصالح من الطالح فاعرض يا أخي ما فيه من الأخلاق على كل من طلبت أن تصحبه من هؤلاء المشايخ الظاهرين في هذا الزمان فإن وجدته متخلقًا به فاصحبه واقتد به وقبل رجله، وإن وجدته غير متخلق به فاضرب عنه صفحًا من غير ازدراء له وكل أمره إلى الله تعالى فأكرم به من كتاب جاء على حين فترة من أيام الرجال الصادقين مجددًا لما هدم من أخلاق القوم كما درج عليه العلماء العاملون في كل عصر فيأتي أحدهم مجددًا بمؤلفاته ما اندرس من معالم الطريق كالحارث المحاسبي وأبي طالب المكي وأبي نعيم وأبي القاسم القشيري والإمام الغزالي والشهاب السهروردي وغيرهم ﷺ .

وقد كان آخر المجددين في القرن الثامن سيدي الشيخ أبو عبد الله محمد الغمري

المدفون بالمحلة الكبرى رحمه الله تعالى، فكانوا يسمونه فقيه الصوفية فإنه ضبط في مؤلفاته أخلاق رسول الله ﷺ وأخلاق السلف الصالح ولا أعلم أحدًا جاء بعده حذا حذوه في ضبط أخلاق القوم غيري بحمد الله تعالى كما ستراه إن شاء الله في هذا الكتاب.

ولو أن أحدًا فعل ذلك في هذا العصر غيري لكنت دللت الإخوان على مطالعة مؤلفه وكنت لم أتعب نفسي في تأليف هذا الكتاب لأنه يصير حينئذ لا فائدة فيه، ولعل قائلاً يقول: إن مطالعة كتابك هذا تكشف عورات الفقراء من أهل العصر فهلا أسبلت ذيل الستر على إخوانك فإنه لا يدع أحدًا يعتقد في أحد من مشايخ هذا العصر فنقول لهذا القائل أن جمهور العلماء والصوفية من السلف قد سبقونا إلى التأليف في مثل ذلك وبينوا أخلاق الصالحين من الطالحين والصادقين من الكاذبين والمتفعلين من المخلصين ولم يلتفتوا إلى كون ذلك يلزم منه كشف سواء من كان بخلاف الصفة من أخلاق السلف الصالح، قال الله تعالى: [وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ] (١)، فهو وان لزم من بيان صفات الصالحين هتك أستار الكاذبين فلا حرج عليهم في ذلك لقصدهم بالأصالة الخير للمسلمين ومعلوم أن الإثم إنما هو تابع للقصد نظير ما قاله العلماء في الجنب يقرأ القرآن، لا بقصد القرآن أنه لا يأثم، قالوا: لأنه لا يكون قرآنًا إلا بالقصد ويؤيد ذلك ما ذهب إليه جمهور علماء الأصول من أن لازم المذهب ليس بمذهب فعلم أنه يجب حمل أشياخ الشريعة والحقيقة الذين حطوا على أهل زمانهم أنهم قصدوا رفع همة إخوانهم إلى أرفع مما هم عليه من الأخلاق الحسنة لا غير محبة في رسول الله ﷺ، وفي إحياء شريعته لا تشفيًا للنفس من الأقران وطلبًا للرياسة عليهم وانتشارًا للصيت عليهم بالصلاح حاشاهم ﷺ من قصد مثل ذلك، وأسأل الله تعلى من فضله أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه وكاتبه وسامعه والناظر فيه إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب وسميته: [تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه السلف الطاهر].

جعله الله تعالى خالصًا لوجهه الكريم، وأعيذه بكلمات الله التامات من شر كل عدو وحاسد يدس فيه ما ليس من كلامي مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، كل ذلك لأجل أن ينفر الناس من مطالعته ويحرمهم مما فيه من الفوائد كما وقع لي ذلك في كتابي المسمى (بالبحر المورود في المواثيق والعهود)، وفي مقدمة كتابي المسمى (بكشف الغمة عن جميع الأمة) وحصل بسبب ذلك فتنة عظيمة في الجامع الأزهر وغيره، وظن غالب المتهورين أن ما

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٩.

دسوه من العقائد الزائغة والمسائل الخارقة لإجماع المسلمين من جملة ما اعتقدته وتدينت به وما سلم من الوقوع في عرضي إلا قليل من الناس، ثم لم تخمد تلك الفتنة حتى أرسلت النسختين الصحيحتين من العهود من كشف الغمة إلى العلماء بالجامع الأزهر.

وكنت بحمد الله تعالى قد أطلعت عليهما مشايخ الإسلام ووضعوا خطوطهم عليهما وأجازوهما ومدحوا تأليفهما ففتشوهما فلم يجدوا فيهما شيئًا مما دسه الحسدة وأشاعوه فعند ذلك سبوا من فعل ذلك وبرءوا ساحتي من تلك العقائد الزائغة بحمد الله، وما تخلف بعد ذلك عن تبرئتي إلا من وقف مع حظ نفسه ولم يستبرئ لدينه وكان من جملة من برأني وحماه الله من الوقوع في عرضي سيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشهاب ابن النجار الحنبلي، وسيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين اللقاني وسيدنا ومولانا الشيخ شهاب الدين الرملي وسيدنا ومولانا الشيخ شهاب الدين الحلبي الحنفي وسيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، والأخ الصالح الشيخ شمس الدين محمد الخطيب الشربيني والأخ الصالح الشيخ نور الدين الطندتائي والأخ الصالح الشيخ نجم الدين الغيطي والأخ الصالح الشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي والأخ الصالح الشيخ شمس الدين العلقمي والأخ الصالح الشيخ عبد القادر الرشدي والأخص الصالح الشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي والأخ الصالح الشيخ زين الدين الجيزي والأخ الصالح الشيخ أمين الدين بن عبد العال وجماعة كثيرة ذكرناهم في طبقات الأخيار ﵃ فكل هؤلاء لم يبلغني أن أحدًا منهم صدق في شيئًا مما دسه الحسدة، وأعرف بعض جماعة من المتهورين في الوقوع في أعراض الناس يعتقدون في سوء العقيدة بحكم تلك الإشاعة إلى وقتنا هذا وما منهم أحد اجتمع بي قط ولا فاوضني في علم ولا رآني وأنا أؤلف، ولا قامت عنده بذلك بينة عادلة فالله تعالى يغفر لهم ويسامحهم.

وقد بلغني عن شخص ممن ينسب إلى العلم صار يقول ما هذه الأمور التي تواترت عن هذا الرجل وسماها متواترة مع أن الدس والإشاعة لم يكونا من سوى شخصين من أهل مصر خاصة وهما معروفان بين أصحابنا لا ينبغي ذكرهما خوفًا من سب الناس لهما، وقد ماتا ودرجا إلى رحمة الله تعالى. فطالع يا أخي كتبي وانتفع بما فيها من النصح ولا تصغ إلى قول حاسد فإني حررتها بحمد الله على الكتاب والسنة قبل أن أضعها في الورق، وأنا رجل سني محمدي وما ألفت شيئًا من الكتب حتى تبحرت في علوم الشريعة وحررت موادها على مشايخ الإسلام كالشيخ زكريا الأنصاري والشيخ برهان الدين بن أبي شريف والشيخ عبد الحق السنباطي والشيخ نور الدين المحلي وأضرابهم ﵃.

وإياك يا أخي أن تلتفت إلى قول أحد من أتباع هذين الشخصين اللذين وقع منهما الدس في كتبي فربما كان يعتقد في السوء تقليداً لشيخه وكان سبب تحريك داء الحسد في هذين الشخصين إنهما لما رأوا الناس بادروا إلى كتابة مؤلفاتي دبرا تلك الحيلة ودسا في كتبي العقائد الزائغة المتعلقة بالباطن لعلمهما أنهما لو رمياني بالفسق والمعاصي الظاهرة لكذبهما الناس ولم يحصل لهما ما قصداه من تنفير الناس عن مطالعة كتبي وقد ابرأت ذمتهما في الدنيا والآخرة وسامحت جميع من اغتابني بسببهما فالحمد لله رب العالمين الذي جعلنا من أهل العفو والسماح، إذا علمت ذلك فلنشرع في مقصود هذا الكتاب إن شاء الله تعالى فأقول وبالله التوفيق والإعانة.



الباب الأول

من أخلاق السلف الصالح رضي الله عنهم

ملازمة الكتاب والسنة

ملازمة الكتاب والسنة كلزوم الظل للشاخص ولا يتصدر أحدهم للإرشاد إلا بعد تبحره في علوم الشريعة المطهرة بحيث يطلع على جميع أدلة المذاهب المندرسة والمستعملة ويصير يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج القاطعة أو الراجحة الواضحة وكتب القوم مشحونة بذلك كما يظهر من أقوالهم وأفعالهم، وقد كان سيد الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيدر ﷺ يقول كتابنا هذا -يعني القرآن- سيد الكتب وأجمعها وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها وطريقتنا -يعني طريق أهل التصوف- مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة ويفهم معانيهما لا يصح الاقتداء به، وكان ﷺ يقول ما نزل من السماء علم وجعل الحق تعالى لغير نبي إليه سبيلا إلا وجعل لي فيه حظًا ونصيبًا، وكان ﷺ يقول لأصحابه لو رأيتم رجلاً قد تربع في الهواء فلا تقتدوا به حتى تروا صنعه عند الأمر والنهي فإن رأيتموه ممتثلاً لجميع الأوامر الإلهية مجتنبًا لجميع المناهي فاعتقدوه واقتدوا به وإن رأيتموه يخل بالأوامر ولا يجتنب المناهي فاجتنبوه انتهى.

(قلت) وهذا الخلق قد صار غريبًا في فقراء هذا الزمان فصار أحدهم يجتمع بمن ليس له قدم في الطريق ويتلقف منه كلمات في الفناء والبقاء والشطح بما لا يشهد له كتاب ولا سنة ثم يلبس له جبة ويرخي له عذبة ثم يسافر إلى بلاد الروم مثلاً ويظهر الصمت والجوع فيطلب له مرتبًا أو مسموحًا ويتوسل في ذلك بالوزراء والأمراء فربما رتبوا له شيئًا فيصير يأكله حرامًا في بطنه لكونه أخذه بنوع تلبيس على الولاة واعتقادهم فيه الصلاح.

وقد دخل على شخص منهم فصار يخوض بغير علم ولا ذوق في الفناء والبقاء ومعه جماعة يعتقدونه فواظبني أيامًا، فقلت له يومًا أخبرني عن شروط الوضوء والصلاة ما هي؟ فقال لي: أنا ما قرأت في العلم شيئًا فقلت له يا أخي إن تصحيح العبادات على ظاهر الكتاب والسنة أمر واجب بالإجماع ومن لم يفرق بين الواجب والمندوب ولا بين المحرم والمكروه فهو جاهل، والجاهل لا يجوز الاقتداء به لا في طريق الظاهر ولا طريق الباطن، فخرس ولم يرد جوابًا ثم انقطع عني من ذلك اليوم وكان قد أبادني شرًا من سوء أدبه فأراحني الله منه.

وكان شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله يقول إن طريق القوم ﷺ محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر وذلك لأن لهم في كل حركة وسكون نية صالحة

بميزان شرعي ولا يعرف ذلك إلا من تبحر في علوم الشريعة انتهى.

قلت: فكذب والله وافترى من يقول إن طريق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة وقوله ذلك من أكبر العلامات على كثرة جهله، فإن حقيقة الصوفي عند القوم هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير وغاية ما يطلبه القوم من تلامذتهم بالمجاهدات بالصوم والسهر والعزلة والصمت والورع والزهد وغير ذلك أن يصير أحدهم بالعبادات على الوجه الذي يشبه ما كان عليه سلفهم الصالح لا غير ولكن لما اندرست طريق السلف باندراس العاملين بها ظن بعض الناس أنها خارجة عن الشريعة لقلة من يتخلق بصفات أهلها كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنهج المبين في بيان أخلاق العارفين فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

الميزان

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): توقفهم عن كل فعل أو قول حتى يعرفوا ميزانه على الكتاب والسنة أو العرف لأن العرف من جملة الشريعة، قال تعالى: [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] [1]، فعلم ان القوم لا يكتفون في أقوالهم وأفعالهم بمجرد عمل الناس بها لاحتمال أن يكون ذلك الفعل أو القول من جملة البدع التي لا يشهد لها كتاب ولا سنة، وفي الحديث [لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة] فإذا تركت البدعة يقول الناس تركت السنة وذلك لتوارث الفروع البدع عن أصولهم فلما طال الزمن بالبدع ظن الناس إنها سنة مما سنه رسول الله ﷺ، ومن القوم طائفة إذا لم يجدوا لذلك العمل دليلاً من سنة النبي ﷺ الثابتة في كتب الشريعة يتوجهون بقلوبهم إليه ﷺ، فإذا حضروا بين يديه سألوه عن ذلك وعملوا بما قال لهم إلا أن مثل ذلك خاص بأكابر الرجال، فإذا قيل فهل لصاحب هذا المقام أن يأمر الناس بما أمره به رسول الله ﷺ أم لا، فالجواب لا ينبغي له ذلك لأنه أمر زائد على السنة الصحيحة الثابتة من طريق النقل ومن أمر الناس بشيء زائد على ما ثبت من طريق النقل فقد كلف الناس شططاً اللهم إلا أن يختار أحد ذلك فلا حرج، كما هو شان مقلدي المذاهب المستنبطة من الكتاب والسنة والله أعلم.

وقد كان السلف الصالح ﷺ يحثون الناس لا سيما أصحابهم على التقيد بالكتاب والسنة واجتناب البدع ويشددون في ذلك حتى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ربما كان يهم بالأمر ويعزم عليه فيقول له بعض الناس أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك ولم يأمر

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

به فيرجع عما كان عزم عليه، قال: وهم مرة أن يأمر الناس بنزع ثياب كانوا يلبسونها حين بلغه أنها تصبغ ببول العجائز فقال له شخص: أن رسول الله ﷺ قد لبس منها ولبسها الناس في عصره فاستغفر الله تعالى ورجع وقال في نفسه لو كان عدم لبسها من الورع لما لبسها ﷺ.

وقد بلغنا أن الإمام زين العابدين ﷺ قال لولده: اتخذ لي ثوبًا ألبسه عند قضاء الحاجة وأنزعه وقت شروعي في الصلاة فإني رأيت الذباب يجلس على النجاسة ثم يقع على ثوبي فقال له ولده إنه لم يكن لرسول الله ﷺ إلا ثوب واحد لصلاته وخلائه فرجع الإمام عما كان عزم على فعله، قلت: المنقول أن رسول الله ﷺ لم يكن الذباب ينزل على ثوبه ولا على بدنه فلا يصلح ما ذكر دليلاً إلا أن يكون، قال له ولده: لم يأمر أحدًا فليتأمل، وأما ما نقل عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى من أنه كان له ثوب لصلاته وثوب لخلائه فليس ذلك من حيث وقوع الذباب كما وقع لزين العابدين وإنما ذلك من باب الأدب أن لا يكون ثوب الخلاء هو ثوب الصلاة نظير ما قالوا في تحريم استقبال القبلة واستدبارها في الغائط، فطلب الشارع أن لا تكون جهة قضاء الحاجة هي جهة الوقوف للصلاة فافهم فعليك يا أخي باتباع السنة المحمدية في جميع أفعالك وأقوالك وعقائدك ولا تقدم على فعل شيء حتى تعلم موافقته للكتاب والسنة انتهى.

فكذب والله وافترى من يقول إن طريق القوم بدعة، وإذا كان من يهاب مخالفة الشريعة ويتوقف عن العمل حتى يعلم موافقته للشرع مبتدعًا فما بقي على وجه الأرض سني والحمد لله رب العالمين.

التفويض إلى الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : كثرة تفويضهم إلى الله تعالى في أمر أنفسهم وأولادهم وأصحابهم فلا يكون معولهم في أمر هدايتهم إلا عليه عز وجل ولا يطلبون شيئًا قط بأنفسهم وهم غائبون عن الاستناد إلى الله تعالى، وقد كان ولدي عبد الرحمن ليست له داعية إلى طلب العلم وكنت في حصر عظيم من جهته فألهمني الحق سبحانه أن أفوض أمره إليه ففعلت فأصبح من تلك الليلة يطالع في العلم بنفسه من غير أمري له بذلك، وحصلت عنده حلاوة العلم من تلك الليلة وصار فهمه يرجح على فهم من سبقه بالاشتغال بسنين فأراحني الله تعالى بتفويضي إليه من التعب الذي كنت فيه فالله تعالى يجعله من العلماء العاملين بما علموا آمين.

وقد سمعت شيخنا سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول ما ثم أنفع لأولاد العلماء

والصالحين من الدعاء لهم بظاهر الغيب مع تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وذلك لأن أحدهم يتربى في الدلال على والده مع مساعدة أمه إن كانت، ويكتفي بتعظيم الناس له بحكم التبع لأبيه فلا يصير عنده داعية لاكتساب الفضائل غالبًا، ويقول في نفسه أن الذي كنت أتعب في تحصيله من الجاه بالاشتغال بالعلم والرياضة قد حصل لي بواسطة والدي، بخلاف أولاد العوام خصوصًا الفلاحين فإن أحدهم يفتح عينه على الضرب والحبس والإهانة من الحكام وأعوانهم ويأخذون منه الخراج بالإهانة الشديدة فيصير يتفكر في عمل حيلة تعتقه من ذلك فيلهمه الحق تعالى أن يشتغل بالعلم والقرآن فلا يزال كلما عظمه الناس يزداد رغبة في العلم والمجاهدة حتى يصير شيخ الإسلام أو شيخ الطريق، وقد كان سيدي الشيخ أحمد الزاهد رحمه الله يخلي ولده على كل خلوة أربعين يومًا فلا يفتح عليه فيقول يا ولدي لو كان الأمر بيدي ما قدمت أحدًا عليك في معرفة الطريق انتهى.

قلت: وقد خولفت هذه القاعدة في بعض أولاد العلماء والصالحين كأولاد الشيخ تقي الدين السبكي وأولاد الشيخ سراج الدين البلقيني فجاء أولادهم في غاية الكمال، وكذلك في بعض جماعة من علماء عصرنا وفقرائه كسيدي محمد بن الرملي وسيدي محمد بن البكري وسيدي عبد القدوس بن الشناوي وسيدي علي بن الشيخ محمد المنير وسيدي محمد بن الشيخ أبي الحسن الغمري وجماعة ذكرناهم في طبقات العلماء والصوفية التي سميناها (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار) أكثر الله في المسلمين من أمثالهم ونفعنا ببركاتهم آمين والحمد لله رب العالمين.

الأخلاص

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة إخلاصهم في علمهم وعملهم وخوفهم من دخول الرياء في لك، ونبسط لك يا أخي في هذا المحل لكثرة حاجة الناس إلى ذلك فنقول ثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال: [لما خلق الله عز وجل جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال لها تكلمي: فقالت: قد أفلح المؤمنون ثلاثًا، ثم قالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء] .

وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من طلب الدنيا بعمل الآخرة نكس الله قلبه وكتب اسمه في ديوان أهل النار وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول من عمل بما علم كان وليًا لله حقًا، وكان سفيان

الثوري رحمه الله تعالى يقول: قالت لي والدتي يا بني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى كثيرًا ما يعاتب نفسه ويوبخها بقوله تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين وتفعلين فعل الفاسقين المنافقين المرائين، والله ما هذه صفات المخلصين وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول من لم يكن في أعماله أكيس من ساحر وقع في الرياء، وقد قيل لذي النون المصري رحمه الله تعالى متى يعلم العبد أنه من المخلصين، فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة وأحب سقوط المنـزلة عند الناس.

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى يقول: أحب للإخوان أن يظهر أحدهم السمت الحسن بالليل فإنه أشرف من سمت النهار لأنه في النهار يراه الناس، وفي الليل يكون لرب العالمين، وقد قيل مرة ليونس بن عبيد رحمه الله تعالى هل رأيت أحدًا يعمل بعمل الحسن البصري فقال والله ما رأيت من يقول بقوله فكيف أرى من يعمل بعمله؟ كان وعظه يبكي القلوب ووعظ غيره لا يبكي العيون، وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى متى يكون العبد مخلصًا، فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع لا يبالي من مدحه أو ذمه، وقد كان أبو السائب رحمه الله تعالى إذا طرقه البكاء في سماع قرآن أو حديث أو نحو ذلك يصرفه إلى التبسم.

وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول إذا كان يوم القيامة قال الله للمرائي خذ ثواب عملك ممن كنت ترائيه، وفي رواية عنه إذا طلب المرائي ثواب عمله يوم القيامة يقال له خذ ثواب عملك ممن كنت ترائيه، وفي رواية يقال له ألم توسع لك الناس في المجالس لأجل عملك وعلمك؟ ألم تكن رئيسًا في دنياك؟ ألم ترخص لك الناس بيعك وشراءك؟ ألم يكرموك؟ ألم .. ألم؟ مثل هذا وأشباهه.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول مادام العبد يستأنس بالناس فلا يسلم من الرياء، وكان الأنطاكي يقول المتزينون ثلاثة، متزين بالعلم ومتزين بالعمل ومتزين بترك التزين فهو أغمضها وأحبها إلى الشيطان، وكان إياس بن معاوية أخًا لإبراهيم التيمي وكان كل منهما لا يثني على الآخر من ورائه ويقول الثناء معدود من الجزاء وأنا لا أحب نقص ثواب أخي بالثناء عليه بين الناس.

وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله يقول من طلب الإخلاص في أعماله الظاهرة وهو يلاحظ الخلق بقلبه فقد رام المحال، لأن الإخلاص ماء القلب الذي به حياته والرياء

يميته، وقد كان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول ما حاسبت نفسي قط إلا وظهر لي أنني مراء خالص، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها وذلك من علامات الرياء.

وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: لو أن المرائي بحلمه وعمله أخبر الناس بما في ضميره لمقتوه وسفهوا عقله، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: لا تسأل أخاك عن صيامه فإنه إن قال أنا صائم فرحت نفسه بذلك، وإن قال أنا غير صائم حزنت نفسه وكلاهما من علامات الرياء، وفي ذلك فضيحة للمسئول واطلاع على عورته من السائل، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: إن الرجل ليطوف بالكعبة وهو يرائي أهل خراسان، فقيل له: وكيف؟ قال: يحب أن يقول فيه أهل خراسان إن فلانا مجاور بمكة على طواف وسعي وهنيئا له.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: أدركنا الناس وهم يراءون بما يعملون فصاروا الآن يراءون بما لا يعملون، وكان رحمه الله تعالى إذا قرأ قوله تعالى: [وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ] [1]، يقول اللهم إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وأنت أرحم الراحمين.

وكان أيوب السختياني رحمه الله تعالى يقول: إن من الرياء بما لا تعمل تطاولك على غيرك بما تحفظه من كلام الناس وأقوالهم في العلم، فإن ذلك الذي تتطاول به ليس من عملك ولا استنبطته، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: ما اتقى الله من أحب أن يذكره الناس بخير ولا أخلص له، وكان عكرمة رحمه الله تعالى يقول: أكثروا من النية الصالحة فإن الرياء لا يدخل في النية، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: لا يحتاج شيء من فروع الإسلام إلى نية بعد اختيار صاحبه الدخول في الإسلام، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: كل عمل يعمله المؤمن من أعمال الإسلام مما لم تحضره فيه نية فنية الإسلام تجزيه.

(قلت): وفي ذلك تقوية للحنفية وكان نعيم بن حماد رحمه الله تعالى يقول: ضرب الظهر بالسياط أهون علينا من النية الصالحة، وكان منصور بن المعتمر رحمه الله تعالى وثابت البناني رحمه الله يقولان طلبنا العلم وما لنا فيه نية فرزقنا الله النية الصالحة بعد ذلك، لأن العلم كله يبعث صاحبه على الإخلاص فيصير يطلبه حتى يحصل له، وكان

---

(١) سورة محمد: الآية ٣١.

الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: دخول أهل الجنة وأهل النار فيهما يكون بالأعمال وخلودهم فيهما يكون بالنيات، وكان أبو داود الطيالسي رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للعالم إذا حرر كتابه أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الأقران لحسن التأليف.

(وفي التوراة) كل عمل قبلته فهو كثير وإن كان قليلاً، وكل عمل رددته فهو قليل وإن كان كثيرًا، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إذا كان يسأل الصادقين عن صدقهم مثل إسماعيل وعيسى عليهما الصلاة والسلام فكيف بالكاذبين من أمثالنا، ولبس داود الطائي ثوبه مقلوبًا مرة فقالوا له ألا تغيره؟ فقال إني لبسته لله فلا أغيره.

وقد كان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: إن للمرائي ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده، ويصلي النوافل جالسًا، وينشط إذا كان مع الناس ويزيد في العمل إذا مدحوه كما ينقص منه إذا ذموه، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئًا لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس، وكان إبراهيم التيمي يلبس لبس الفتيان فكان لا يعرف أحد أنه من العلماء إلا أصحابه، وكان يقول المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: قل عالم تكبر حلقة درسه إلا ويطرقه العجب بنفسه، وقد مر الحسن البصري على طاوس رحمهما الله تعالى وهو يملي الحديث في الحرم في حلقة كبيرة فقرب منه وقال له في أذنه: إن كانت نفسك تعجبك فقم من هذا المجلس، فقام طاوس فورًا.

وقد مر إبراهيم بن أدهم على حلقة بشر الحافي رحمهما الله تعالى فأنكر عليه لكبر حلقة درسه وقال: لو كانت هذه الحلقة لأحد من الصحابة ما أمن على نفسه العجب، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى لا يترك أحدًا يجلس إليه إلا نحو ثلاثة أنفس فغفل يومًا فرأى الحلقة قد كبرت فقام فزعًا وقال: أخذنا والله ولم نشعر والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر ﷺ مثلي وهو جالس في هذا المجلس لأقامه، وقال له مثلك لا يصلح لذلك وكان رحمه الله تعالى إذا جلس لإملاء الحديث يجلس مرعوبًا خائفًا، وكانت السحابة تمر عليه فيسكت حتى تمر ويقول أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها، وقد ضحك شخص مرة في حلقة الأعمش رحمه الله تعالى فزجره وأقامه وقال: تطلب العلم الذي كلفك الله تعالى به وأنت تضحك ثم هجره نحو شهرين، وكان أبو هريرة ﷺ يقول: لولا آية في كتاب الله

تعالى ما حدثتكم: [إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ] (١)

قال: ولما ترك سفيان الثوري ﷺ التحديث قالوا له في ذلك، فقال والله لو أعلم أن أحدًا منهم يطلب العلم لله تعالى لذهبت إلى منـزله ولم أتعبه، وقد قيل مرة لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالى ألا تجلس فتحدثنا، فقال والله ما أراكم أهلاً لأن أحدثكم ولا أرى نفسي أهلاً أن تسمعوا مني وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل: افتضحوا فاصطلحوا، وقد كان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: لا يجلس لتعليم العلم في المساجد إلا جامع للدنيا أو جاهل بما عليه في ذلك من الواجبات.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مع جلالته من العلم إذا فرغ من تفسيره للقرآن يقول اختموا مجلسنا بالاستغفار، وكان شداد بن حكيم رحمه الله تعالى يقول من كان فيه هذه الثلاث خصال فليجلس ليعلم الناس وإلا فليدع الجلوس، أن يذكرهم بنعم الله تعالى ليشكروه، وبذنوبهم ليتوبوا منها، وبعدوهم إبليس ليحذروا منه، وكان ابن وهب رحمه الله تعالى يقول: سألت الإمام مالكًا ﷺ عن الراسخين في العلم من هم؟ فقال: هم العاملون بالعلم وليس شيء أعز من العلم لأن صاحبه يحكم به على الملوك، وقد قيل لابن المبارك رحمه الله من الناس عندك؟ فقال: العلماء العاملون المخلصون، قيل له: فمن الملوك؟، قال: الزهاد في الدنيا، قيل له: فمن السفلة؟ قال الذين يأكلون الدنيا بعلمهم وعملهم ودينهم، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول العلماء سرج الأزمنة فكل عالم مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: حياة العلم بالسؤال عنه والعمل به وموته بتركهما، وكان عكرمة رحمه الله تعالى يقول: لا تعلموا العلم إلا لمن يعطي ثمنه، فقيل له وما ثمنه؟ قال: أن يضعه العالم عند من يعمل به، وكان سالم بن أبي الجعد رحمه الله تعالى يقول: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم فاشتغلت بالعلم فما مضى على سنة حتى جاءني الخليفة زائرًا فلم أفتح له، وكان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: من أدب العلماء إذا علموا أن يعملوا، فإذا عملوا اشتغلوا بذلك عن الناس فإذا شغلوا فقدوا وإذا فقدوا طلبوا وإذا طلبوا هربوا خوفًا على دينهم من الفتن، وفي الحديث [أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه]، وفي الحديث أيضا [سيأتي على الناس زمان يكون عبادهم جهالاً وعلماؤهم فساقًا].

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: من أفتى الناس في المشكلات من غير تربص ولا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

تأمل فقد عرض نفسه لدخول النار، وكان يقول من أفتى الناس في كل ما يسألونه فهو مجنون، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول لا تكن ممن يجمع علم العلماء ويجري فيه مجرى السفهاء وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول ما أكثر العلوم وليس كلها بنافع، وما أكثر العلماء وليس كلهم برشيد، وكان إبراهيم بن عتبة رحمه الله تعالى يقول أطول الناس ندمًا يوم القيامة عالم يتعاظم بعلمه على الناس، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: أخوف ما أخاف على هذه الأمة من عالم باللسان جاهل بالقلب، وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل انتهى.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: لا يزال المرء عالمًا مادام يظن أن في بلده من هو أعلم منه، فإذا ظن أنه أعلمهم فقد جهل، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إني لأبكي على العالم إذا رأيت الدنيا تلعب به ولو كان لأهل القرآن والحديث صبر على الزهد في الدنيا ما تمندل بهم الناس واسوأتاه من أن يقال فلان العالم أو العابد قد قدم حاجًا في نفقة فلان التاجر، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: إذا طلب العلم الدنيا ذهب بهاؤه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: عقوبة العلماء تكون بموت قلوبهم ويكون بطلبهم الدنيا بعمل الآخرة فيتقربون بذلك عند أبناء الدنيا، وكان سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى يقول إذا رأيتم العالم يغشى أبواب الأمراء فهو لص، وكان الأوزاعي رحمه الله تعالى يقول ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً من العمال، وكان مكحول رحمه الله تعالى يقول من قرأ القرآن وتفقه في الدين ثم مشى إلى بيت أمير لغير حاجة ضرورية فقد خاض في جهنم بعدد خطاه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول قرأت في بعض الكتب المنزلة أن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا طلب الدنيا بعلمه أن أحرمه لذيذ مناجاتي، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه في دينه فإن كل محب يخوض فيما أحب انتهى.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول واعجباه من السنة تصنف وقلوب تعرف وأعمال تخالف، وقد كان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إن من أشقى الناس يوم القيامة عالمًا عمل الناس بعلمه وهو لم يعمل به، وقد كان إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى يقول: ما عرضت قولي على عملي إلا وجدت عملي مكذبًا لقولي، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول لقد أعربنا في الكلام فلم نلحن ولحنا في العمل فلم نعرب وكان

الأوزاعي رحمه الله تعالى يقول إذا جاء الاعراب في الألفاظ ذهب الخشوع من القارئ والسامع.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت سراً فجاءها المخاض فافتضحت، وكذلك من لم يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول كان رسول الله ﷺ يقول: إذا جاء الشيطان إلى احدكم وهو يصلي فقال إنك مراء فليزدها طولاً، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول العمل لأجل الناس رياء، وترك العمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

(قلت): ومعنى ترك العمل لأجل الناس أن لا يحب أن يعمل إلا في محل يحمده الناس فيه فإن لم يجد من يحمده ترك العمل وكسل عنه، وقد كان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول لا ينبغي لأمثالنا أن يظهر من أعماله الصالحة ذرة فكيف بأعماله التي دخلها الرياء فالأولى بأمثالنا الكتمان. وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول للحواريين رضي الله عنهم إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول خير العلم والعمل ما خفي عن الناس.

وكان عكرمة رحمه الله يقول: ما رأيت أقل عقلاً ممن يعلم من نفسه السوء ويحب من الناس أن يصفوه بالعلم والصلاح ولابد لقلوب المؤمنين أن تطلع على سوء سريرته ومثله مثل من غرس شوكاً وطلب أن يحمل له رطبًا، وكان قتادة رحمه الله تعالى يقول إذا راءى العالم بعلمه وعمله يقول الله تعالى لملائكته عليهم السلام: [انظروا إلى هذا يستهزئ بي ولم يخش مني وأنا العظيم الجبار].

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى أحد يطأطئ عنقه في الصلاة يضربه بالدرة ويقول له ويحك إن الخشوع في القلب، وقد مر أمامة رضي الله عنه يومًا على شخص ساجد وهو يبكي فقال: نعم هذا لو كان في بيتك حيث لا يراك الناس، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول مررت على حجر فرأيت مكتوبًا عليه أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب زيادة العلم.

وكان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قل لقومك يخفوا أعمالهم عن الخلق وأنا اظهرها لهم، وكان أبو عبد

الرحمن الزاهد يوبخ نفسه كثيرًا ويقول في مناجاته من أسوأ حالاً مني عاملت عبادك في الظاهر بالأمانة وعاملتك في السر بالخيانة، وكان الفضيل بن عياض يقول من يدلني على عابد بكاء بالليل وصوام وبالنهار وأنا أدعو له، وكان ميمون بن عياض رحمه الله تعالى يقول إن علانية بغير سريرة صالحة مثل كنيف مزخرف من خارجه، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول لو صحت النية في العلم لم يكن عمل أفضل منه، ولكنهم تعلموه لغير العمل به وجعلوه شبكة لصيد الدنيا.

وقد دخل سفيان الثوري على الفضيل بن عياض رحمهما الله تعلا يومًا فقال له: عظني يا أبا علي، فقال له الفضيل: وبماذا أعظكم معاشر العلماء كنتم سرجًا يستضاء بكم في البلاد فصرتم ظلمة وكنتم نجومًا يهتدى بكم في ظلمات الجهل فصرتم حيرة يأتي أحدكم إلى أبواب هؤلاء الولاة فيجلس على فرشهم ويأكل من طعامهم ويقبل هداياهم ثم يدخل بعد ذلك إلى المسجد فيجلس فيه ثم يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ بكذا، والله ما هكذا يطلب العلم، قال: فبكى سفيان حتى خنقته العبرة وخرج.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم العالم أو العابد ينشرح لذكره بالصلاح عند الأمراء وأبناء الدنيا فاعلموا أنه مراء، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم طالب العلم كلما ازداد علمًا كلما رغب في الدنيا وشهواتها فلا تعلموه فإنكم تعينوه على دخول النار بتعليمكم إياه وكان كعب الأحبار ﷺ يقول سيأتي على الناس زمان يتعلم جهالهم العلم ثم يتغايرون به على القرب من الأمراء كما يتغاير النساء على الرجال فلذلك حظهم من العلم، وكان صالح المري رحمه الله تعالى يقول من ادعى الإخلاص في العلم فليعرض على نفسه إذا وصفه الناس بالجهل والرياء ،فإن انشرح صدره لذلك فهو صادق وإن انقبض من ذلك فهو مزاء وكان رحمه الله تعالى يقول احذروا عالم الدنيا أن تجالسوه فإنه يفتنكم بزخرفة كلامه ومدحه للعلم وأهله من غير عمل به، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من علامة المرائين بعلمهم أن يكون علمهم كالجبال وعملهم كالذر وكان يقول لو أن حامل العلم عمل به لتجرع مرارته ولم يفرح به لأنه كله تكاليف، وكلما ازداد علمًا ازداد تكاليف فلا ينبغي للعالم أن يفرح بعلمه إلا بعد مجاوزة الصراط.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: اطلبوا العلم للعمل فإن أكثر الناس قد غلطوا في ذلك فظنوا النجاة بعلمهم من غير عمل به فأين الآيات والأخبار الواردة في تعذيب من لم يعمل بعلمه، وكان ذي النون المصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علما ازداد زهدا في الدنيا وتقليلاً من متاعها ونراهم اليوم كلما ازداد

أحدهم علمًا ازداد في الدنيا رغبة وكثرة لأمتعتها من لباس ومطعم ومسكن ومنكح ومركب وخدم ونحو ذلك.

وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: كيف يكون حامل القرآن عاملاً به وهو ينام الليل ويفطر النهار ويتناول الحرام والشبهات، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: لو أن هؤلاء القراء أحياء لوجدوا ألم النار في بطونهم إذا أكلوا الحرام ولكنهم أموات يرتعون في الجيف والنار، وقد كان منصور بن المعتمر رحمه الله تعالى يقول لعلماء زمانه: إنكم لستم علماء وإنما أنتم متلذذون بالعلم يسمع أحدكم المسألة ويحكيها للناس ولو أنكم عملتم بعلمكم لتجرعتم المرارات والغصص ولحثكم علمكم على التورع حتى لا يجد أحدكم رغيفًا يأكله، وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول كيف يصح للعالم أن يرائي بعلمه وهو يعلم من نفسه أن تعلمه لغير الله، وذلك حابط من أصله فكيف يرى نفسه على الناس بما هو حابط.

وقد كان الإمام النووي رحمه الله تعالى إذا دخل عليه أمير على غفلة وهو يدرس في العلم في المدرسة الأشرفية أو جامع بني أمية يتكدر لذلك وإذا بلغه أن أحدًا من الأكابر قد عزم على زيارته في يوم درسه لا يدرس العلم ذلك اليوم خوفًا أن يراه ذلك الأمير وهو في محفله ودرسه العظيم ويقول: من علامة المخلص أن يتكدر إذا طلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول قبيح بالعالم أن يشبع في هذا الزمان من الحلال فكيف بمن يشبع من الحرام، والله لو أني أكلت أكلة وصارت في بطني كالآجرة تكفيني حتى أموت فقد قيل أنها تمكث في الماء أكثر من ثلاثمائة سنة، وكان يقول ورع العلماء إنما هو في ترك تناول الشهوات، أما المعاصي الظاهرة فتراهم يتركونها خوفًا أن تذهب عظمتهم من قلوب الناس، وكان رحمه الله تعالى يقول بلغني أنه يأتي في آخر الزمان رجال يتعلمون العلم لغير الله تعالى كيلا يضيع ثم يكون عليهم تبعة يوم القيامة.

(قلت): ويؤيده حديث [إن الله يؤيد هذه الدين بالرجل الفاجر] والله أعلم، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول من علامة المرائي بعلمه أن يرغب الناس في العلم ويذكر لهم ما فيه من الفضائل ثم إن شاوره أحد في القراءة على أحد من أقرانه لا يرغبه فيه كل الترغيب، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: قد غلب على القراء في

هذا الزمان أكل الحرام والشبهات حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم واتخذوا علمهم شبكة يصطادون بها الدنيا.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لولا نقص دخل على أهل القرآن والحديث لكانوا أخيار الناس ولكنهم اتخذوا علمهم حرفة ومعاشا، ولذلك هانوا في ملكوت السموات والأرض وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول من عقل العاقل أن لا يطلب زيادة العلم إلا إذا عمل بكل ما علم فيتعلم حينئذ العلم كي يعمل به، وكان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: اطلبوا العلم وأنتم تبكون فإنه كله حجة عليكم عند ربكم، قال: ولما ترك بشر الحافي رحمه الله تعالى الجلوس لإملاء الحديث قالوا له: ماذا تقول لربك يوم القيامة؟ فقال: أقول يا رب إنك أمرتني فيه بالإخلاص ولم أجد عند نفسي إخلاصًا.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم طالب العلم يطلب الزيادة من العلم دون العمل فلا تعلموه فإن من لم يعمل بعلمه كشجرة الحنظل كلما ازداد ريا بالماء ازداد مرارة، وكان يقول وإذا رأيتموه يخلط في مطعمه ومشربه وملبسه ونحو ذلك ولا يتورع فكفوا عن تعليمه تخفيفًا للحجة عليه غدًا، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لو أن عبدًا علم العلم كله وعبد الله حتى صار كهذه السارية أو الشن البالي ثم إنه لم يفتش ولم يدخل في جوفه أحلال هو أم حرام ما تقبل الله منه عبادة، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: والله لقد أدركنا أقوامًا كانوا لا يعلمون أحدًا العلم حتى يروضوا نفسه سنين كثيرة ويظهر لهم صلاح نيته، وكان عبد الرحمن بن القاسم رحمه الله تعالى يقوم خدمت الإمام مالكًا ﷺ عشرين سنة فكان منها ثمانية عشر في تعليم الأدب وسنتان منها في تعليم العلم، فياليتني جعلت المدة كلها في تعليم الأدب، وقد كان الإمام مالك ﷺ يقول: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم ما نفع وعمل به صاحبه.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: قال لي الإمام مالك ﷺ يا محمد اجعل عملك دقيقًا وعلمك ملحًا، وقد كان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: من حمل القرآن ثم مال بقلبه إلى الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزوًا ولعبًا، وإذا عصى حامل القرآن ربه ناداه القرآن من جوفه والله ما لهذا حملت أين مواعظي وزواجري وكل حرف مني يناديك ويقول لا تعص ربك، وكان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ إذا رأى طالب العلم لا يقوم من الليل يكف عن تعليمه، وقد بات عنده أبو عصمة ليلة من الليالي فوضع له الإمام أحمد ماء للوضوء ثم جاء قبل الفجر فوجده نائمًا والماء بحاله فأيقظه وقال له: لما جئت يا أبا عصمة، فقال له: جئت

أطلب منك الحديث يا إمام، فقال له الإمام أحمد: كيف تطلب الحديث وليس لك تهجد في الليل اذهب من حيث جئت.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فيما بينه وبين الله تعالى، فإن كل ما ظهر للناس من علم أو عمل قليل النفع في الآخرة وما رأى أحد أحدًا في منامه بعد موته وقال غفر الله لي بعلمي إلا قليل من الناس، وقد رؤى الإمام أبو حنيفة ﷺ بعد موته فقيل له: كيف حالك؟ قال: غفر الله لي، قيل له: بالعلم، فقال هيهات إن للعلم شروطًا وآفات قل من ينجو منها، قال: ورأى بعضهم الجنيد بعد موته رحمه الله تعالى فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: قد طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات وما نفعنا إلا بعض ركيعات كنا نركعها في السحر، وقال: ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي بعد موته رحمه الله تعالى فقال له: ماذا صنع علمك؟ فقال: كل ما كان من دقائق العلوم وجدته هباء منثورا إلا بعض مسائل سألني عنها العوام انتهى.

ففتش يا أخي نفسك في علمك وعملك وابك على نفسك إن رأيت عندها رياء أو سمعة مما ينهاك عنه هؤلاء السادة من العلماء العاملين المخلصين والحمد لله رب العالمين.



الهجر

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): هجرهم لأخيهم إذا خالط الأمراء وتردد إلى أبوابهم لغير ضرورة شرعية ولا لمصلحة كقيامه بالأمر بالمعروف ونحوه عملاً بحديث [إن في جهنم واديًا يقال له هيهب أعده الله للجبارين وللقراء المداهنين الذين يدخلون على أمراء الجور].

وقد قال والي البصرة يومًا لمالك بن دينار رحمه الله تعالى أتدري ما الذي جراك علينا في أغلاظك القول وعدم قدرتنا على مقابلتك عدم طمعك فيما بأيدينا وزهدك فيه، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول دخلت يومًا على والي البصرة فقال لي: عظني يا ابن السماك فقلت له أف عليك وعلى من ولاك مظالم العباد، إنما تصلحون أن يسد بكم الجسور، وقد دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه مدرعة صوف، فقال له قتيبة: ما الذي دعاك إلى لبس مدرعة الصوف فسكت محمد فقال: ما لي أكلمك وأنت ساكت فقال محمد: أن قلت زهدًا زكيت نفسي وإن قلت فقرًا شكوت ربي.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: والله ولو استأذن عليّ هارون الرشيد ما أذنت له إلا أن أغلب على ذلك فكيف بمن يذهب هو إليه من هؤلاء الفقراء، وقد جاء

محمد بن إبراهيم والي مكة يسلم على سفيان الثوري في المطاف فقال: ماذا تريد بالسلام إن كنت تريد أن أعلم أنك تطوف اذهب فقد علمت، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول لا يصلح أن يدخل على الأمراء ويخالطهم إلا مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فأما أمثالنا فلا يصح له الدخول عليهم لعجزه عن مواجهتهم بالنصح والإنكار عليهم فيما يراه منهم من الظلم والجور ونحوه كفرش الحرير والستائر وغير ذلك، وقد ذكروا مرة عند معاوية ﷺ كلامًا وكان الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى جالسًا فلم يتكلم فقال له: معاوية مالك لا تتكلم يا أحنف فقال أني أخشى الله تعالى إن كذبت وأخشاك إن صدقت فرأيت السكوت أولى انتهى، وسيأتي زيادة على ذلك مفرقًا والحمد لله رب العالمين.

ترك النفاق

(أخذ علينا العهود في أخلاقهم): فمنها عملهم على ترك النفاق بحيث تتساوى سريرتهم وعلانيتهم في الخبر فلا يكون لأحدهم عمل يفتضح به غدا في الآخرة ومن وصية أبي العباس الخضر عليه السلام لعمر بن عبد العزيز لما اجتمع به في المدينة المشرفة وسأله أن يوصيه بوصية، فقال له: إياك يا عمر أن تكون وليًا لله في العلانية وعدوًا له في السر فإن من لم تتساو سريرته وعلانيته فهو منافق والمنافقون في الدرك الأسفل من النار فبكى عمر حتى بل لحيته، وفي الحديث [يخرج في آخر الزمان أقوام يحتالون أي يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، أي الدنيا بالدين، يلبسون جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تعالى [أبي يغترون أم علي يجترءون] بى حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيهم حيران].

وكان المهلب بن أبي صفرة رحمه الله تعالى يقول: إني لأكره الرجل يكون للسانه فضل على فعله، وكان بعد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى يقول ما بلغ الحسن البصري رحمه الله تعالى إلى ما بلغ إلا لكونه كان إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء كان أبعدهم منه، وكانوا يقولون ما رأينا أحدًا سريرته أشبه بعلانيته من الحسن البصري، وكان معاوية بن قرة رحمه الله تعالى يقول: بكاء القلب خير من بكاء العين وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: القلوب كالقدور ومغارفها ألسنة أصحابها فكونوا عبيدًا بأفعالكم كما أنكم عبيد بأقوالكم، وكان مروان بن محمد رحمه الله تعالى يقول ما وصف لي رجل قط إلا وجدته دون ما وصفوه به إلا وكيعًا رحمه الله تعالى، فإني

وجدته فوق ذلك، وكان عتبة بن عامر رحمه الله تعالى يقول إذا وافقت سريرة العبد علانيته قال الله تعالى لملائكته: [هذا عبدي حقًا].

وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول أفضل الأعمال ترك المعاصي الباطنة، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأن الباطنة إذا تركت كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أترك فمن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، ومن تساوت سريرته وعلانيته فذلك العدل ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور، وكان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن قل لقومك يخفوا لي أعمالهم وأنا أظهرها لهم وقد مر مثل ذلك في الخلق قبله.

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول في مناجاته يا ويحي عاملت الناس بالأمانة وعاملت ربي بالخيانة فليتني عكست ثم يبكي، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: من أمر الناس بشيء لم يبلغه حاله فهو منافق إلا أن يسأله أحد عن حكمه، وكان يقول إياك أن تكون في النهار أبا عبد الله الصالح وفي الليل شيطان طالح، وتقدم عن إبراهيم التيمي إنه كان يقول ما عرضت علمي على عملي إلى وجدت نفسي غير عامل بما علمت، وكان الزبير بن العوام ﷺ يقول اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ وتقدم قول معاوية بن قرة من يدلني على رجل يبكي بالليل ويتبسم بالنهار اي أن ذلك لقليل.

وكان أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى يقول: من نعمة الله عليّ أنني منذ ثلاثين سنة ما فعلت شيئًا يستحي منه إلا قربى من أهلي، وكان أبو عبد الله السمرقندي رحمه الله تعالى إذا مدحه الناس يقول: والله ما مثلي ومثلكم إلا كمثل جارية ذهبت بكارتها بالفجور وأهلها لا يعلمون بذلك فهم يفرحون بها ليلة الزفاف وهي حزينة خوف الفضيحة، وكان أبو أمامة ﷺ يعيب على الرجل بكاءه في المسجد بحضرة الناس، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول علانية بغير سريرة مثل كنيف مزخرف من خارجه ومن داخله النتن والخبث ومن افتخر بمال لم يصبه كذبه كسبه، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن يعده الناس من الصالحين بالقول فقط دون موافقتهم في الأعمال فهو كمن دخل وليمة الملك لقوم خاصين بغير إذن، ومن اكتفى بالقول دون العمل جازاه الله بالوعد دون العطاء كعقوبة له، وكان بلال بن سعد رحمه الله تعالى يقول: إذا ادعى الفقير الزهد بغير حق رقص الشيطان حوله يضحك عليه ويسخر به، وكان عبد الله بن عمر ﷺ

يقول: لا يجد عبد صريح الإيمان حتى يعلم بأن الله تعالى يراه فلا يعمل سرًا يفتضح به يوم القيامة، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لو علمتم ما أغلق بابي عليه دونكم ما جلس أحد منكم حوله.

(قلت): وهذا من باب الهضم لنفسه والاتهام لها ﷺ، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: قد غلب على القراء في هذا الزمان الرياء يظهرون للناس النسك والعبادة وباطنهم مشغول بالغل والحقد والشحناء لبعضهم وإذا كان لكم حاجة عند قارئ فلا تتشفعوا عنده بقارئ مثله يقسو قلبه عليكم، ولكن تشفعوا عنده بأحد من الأغنياء فإنه أقضى لحاجتكم انتهى.

وسيأتي الكلام على هذا الخلق في مواضع من هذا الكتاب ففتش نفسك يا أخي هل تساوت سريرتك وعلانيتك أم لا واكثر من الاستغفار واعلم أن من أظهر للناس خلاف ما في باطنه فهو منافق يحشر غدًا مع المنافقين فافهم ذلك والحمد لله رب العالمين.

كثرة الصبر

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الصبر على جور الحكام وشهودهم أن ذلك دون ما يستحقونه بذنوبهم، وكان صالح المري رحمه الله تعالى يقول: إذا لم تتساو سريرة الناس وعلانيتهم فلا يستغربون ما يحل بهم من أنواع البلايا والآفات، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: كان الحجاج الثقفي بلاء من الله وافق خطيئة، وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقول: إذا ابتليت بسلطان جائر فخرقت دينك بسببه فرقعه بكثرة الاستغفار لك وله أيضًا، وقد كتب أخ لمحمد بن يوسف رحمه الله تعالى يشكو إليه من جور الولاة في بلاده، فأجابه محمد بقوله: قد بلغنا كتابك ولا يخفى عن علمك يا أخي أنه ليس لمن عمل بالمعصية أن ينكر وقوع العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنب والسلام.

وقد حبس هارون الرشيد رحمه الله تعالى رجلاً ظلمًا فكتب إليه الرجل اعلم يا هارون أنه ما من يوم يمضي من حبسي وبؤسي إلا ويمضي من عمرك ونعيمك مثله، والأمر قريب والحاكم بيني وبينك الله تعالى، قال: فلما قرأها الرشيد خلى سبيله وأحسن إليه، وقال: وجاءوا مرة بمال من السلطان لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى ليفرقه على الفقراء الذين يعرفهم فرده إبراهيم عليهم وقال: إذا حاسب الله تعالى الظالم يوم القيامة

على ما اكتسبه من المال يقول أعطيته لإبراهيم فيرجع يوم القيامة الظالم على بذلك. ولكن من جمعه فهو أولى بتحريفه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: مكتوب فى التوراة يقول الله تعالى: قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك وتوبوا إلى أعطفهم عليكم.

وكان عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى يقول لرعيته أنصفونا يا معاشر الرعية تطلبون منا أن نسير فيكم سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولا تسيرون أنتم بسيرة رعاياهما فنسأل الله أن يعين كل واحد منا على صاحبه، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: كما ابتليتم بالأعمال التي لا ترضى ربكم وقلتم إن الله تعالى قدر ذلك فأقيموا العذر لولاتكم فإن الله تعالى هو المقدر عليهم ما ظلموكم به فإن أحدهم يود أن لا يظلم أحدًا منكم، ولكن أعمالكم هي السبب في ظلمكم، قال: ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى بكى ثم خير نساءه وجواريه وقال: قد أتاني أمر شغلني عنكن فلا أتفرغ لكن حتى يفرغ الناس من الحساب يوم القيامة، فبكى عند ذلك أهل بيته حتى ظن جيرانهم أنه مات عندهم أحد.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا العلماء وهم يرون جلوسهم في بيوتهم أفضل، فصاروا اليوم وزراء الأمراء وقهارمة الظلمة، وقد سئل عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى عن شخص يكتب بقلمه عند الأمراء لا يجاوز ما جعلوه له من الرزق، فقال عطاء: أرى أن يترك ذلك أما سمع قول موسى عليه الصلاة والسلام: [رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرًا للمجرمين]، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: إذا هم الوالي بالجور أدخل الله النقص في أهل مملكته حتى في الأسواق والأرزاق والزروع والثمار والضروع وفي كل شيء، وكان أبو ذر ﷺ يقول سيأتي على الناس زمان تكون أعطيتهم من الولاة أثمان أديانهم.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من تبسم في وجه ظالم أو وسع له في المجلس أو أخذ من عطائه فقد نقض عرا الإسلام، وكتب من جملة أعوان الظلمة والمراد بعرا الإسلام هنا مخالفة قواعد السلف، وقد كان طاوس رحمه الله تعالى يكثر الجلوس في بيته، فقيل له في ذلك، فقال: إنما اخترت ذلك لحيف الأئمة وفساد الرعية وذهاب السنة، فإن من فرق بين ولده والعبد في إقامة الحق فهو جائر، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: لم يكن أحد أحب إليّ من عمر بن عبد العزيز، ولأن أراه ميتا أحب إليّ من أن أراه ولي

عملاً، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: إذا سمن الأمير بعد الهزال فاعلموا أنه قد خان رعيته وخان ربه، قال: ودخل أبو العالية يومًا على الرشيد رحمهما الله تعالى فقال له احذر دعوة المظلوم فإن الله لا يردها ولو من فاجر، وفي رواية ولو من كافر انتهى.

فتأمل يا أخي في نفسك وانظر هل وفيت بحق رعيتك في زاويتك وحق جوارحك بحيث استعملتها في مرضاة الله تعالى ومنعتها معاصيه أو غششت نفسك وجوارحك فإن كل راع مسئول عن رعيته، وإياك يا أخي والدخول على الأمراء ولو بقصد أنك تأمرهم وتنهاهم فإن ذلك لا يتم لك معهم، والحمد لله رب العالمين.

غيرتهم لله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت حرماته نصرة للشريعة المطهرة، فكانوا لا يفعلون فعلاً ولا يصحبون أحدا إلا أن علموا رضا الله تعالى فيه فلا يحبون أحدًا ولا يبغضونه لعلة دنيوية، وقد ثبت في الحديث [الحب في الله والبغض في الله أوثق عرا الإيمان] فلو عبد الشخص ربه لعبادة الثقلين طلبًا للثواب وهو غافل عن كون ذلك من مرضاة الله تعالى فهو خارج عن الطريق وقد أوحى الله إلى موسى عليه الصلاة والسلام هل عملت لي عملاً؟ فقال: نعم يا رب صليت وصمت وتصدقت وذكر أشياء، فقال الله تعالى: هذا لك، ولكن هل واليت لأجلي وليًا أو عاديت لأجلي عدوا؟ فعلم عند ذلك موسى أن الحب في الله والبغض في الله من أفضل الأعمال.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما يقول: لا يصطحب اثنان على غير طاعة الله إلا تفرقوا على غير طاعة الله، وقد كان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول: إذا دخلتم على الولاة فلا تخصوهم بالدعاء فإنهم حاربوا الله ورسوله ولكن ادعوا للمسلمين، فإن كانوا منهم لحقتهم الدعوة وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: إذا صحبت أحدًا لا تسأل عن مودته لك ولكن انظر ما في قلبك له ونفسك، فإن ما عندك مثل الذي عنده على حد سواء انتهى.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا أحدث الرجل حدثًا ولم يبغضه من زعم أنه أخوه فمحبته لغير الله، إذ لو كانت لله لغضب على من عصاه وكان أبو هريرة ﷺ يقول: يؤتى بالعبد يوم القيام بين يدي الله تعالى فيقول الله عز وجل له: هل أحببت لي وليًا حتى أهبك له؟ انتهى.

فأحبوا الصالحين واتخذوا عندهم أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: مصارمة الفاسق قربة إلى الله تعالى، (قلت): ومراده مصارمته بالقلب أما في الظاهر فلا تنبغي مصارمته لأجل تقويم عوجه وتبغيضه في صفات الفسق، فإن الفاسق ضالة كل داع إلى الله تعالى، فافهم ذلك والله أعلم، وقد سئل سفيان الثوري رحمه الله تعالى هل نعزي الفاسق إذا مات له ميت، قال: لا، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يذكر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويبكي ويترحم على معاوية ﷺ ويقول: إنه كان من أكابر العلماء إلا أنه ابتلي بحب الدنيا انتهى.

(قلت): الذي ينبغي حمل حبه للدنيا على أنه يحبها لعمل الآخرة كما عليه السلف الصالح بل هو أولى بقصد ذلك من الأولياء لأنه صحابي جليل ﷺ والله أعلم، وكان الحسن البصري رحمه الله يقول من ادعى أنه يحب عبداً لله تعالى ولم يبغضه إذا عصى الله تعالى فقد كذب في دعواه أنه يحبه لله، وكان محمد بن الحنفية ﷺ يقول من أحب رجلاً من أهل النار لخير ظهر منه آجره الله على ذلك، ومن أبغض رجلاً من أهل الجنة لشر ظهر منه آجره الله على ذلك، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى لا يطرد الكلب إذا جلس بحذائه ويقول هو خير من قرين السوء وكفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين.

وكان أحمد بن حرب رحمه الله تعالى يقول: ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم، وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: ولي الله ريحان الأرض فإذا شمه المريدون ووصلت رائحته إلى قلوبهم اشتاقوا إلى ربهم انتهى.

فتأمل يا أخي حالك هل أحببت أحداً لله وأبغضته كذلك لله تعالى، أم أحببت بالهوى وأبغضت بالهوى، وابك على نفسك وأكثر من الاستغفار ليلاً ونهاراً، والحمد لله رب العالمين.

قلة الضحك

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): قلة الضحك وعدم الفرح بشيء من الدنيا بل كانوا ينقضبون بكل شيء حصل لهم من ملابسها ومراكبها ومناكحها ومناصبها عكس ما عليه أبناء الدنيا، كل ذلك خوفاً أن يكون من جملة ما عجل لهم من نعيم الآخرة، وكيف يفرح بشيء من هو في السجن محبوس عن لقاء الله عز وجل فكما يحزن

المحبوس عن داره وعياله ويتكدر، كذلك يحزن أولياء الله تعالى على طول عمرهم وسجنهم في هذه الدار عن لقاء ربهم عز وجل.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: [والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل]، وقدكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: عجبت من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت. وكان الحسن البصري رحمة الله تعالى لا يراه أحد إلا ظنّ أنه قريب عهد وأكفانه قد خرجت من عند القصار، وكان ابن مرزوق رحمه الله تعالى يقول: من ادعى أن الذنوب غمته وأحزنته ثم جمع في إدامه بين عسل وسمن فهو كاذب، وكان الأوزاعي رحمه الله تعالى يقول: في قوله تعالى:[لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا] [١]، الصغيرة وهي التبسم في هذه الدار، والكبيرة هي القهقهة فيها.

(قلت): ولعل مراده رحمه الله تعالى بالتبسم هنا الضحك بصوت يسمعه من في مجلسه إذ التبسم كان ضحكه ﷺ، وكان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: ما ضحك مؤمن قط إلا وهو في غفلة عن الموت، وكان عامر بن قيس رحمه الله تعالى يقول: أكثر الناس ضحكًا في الدنيا، أكثرهم بكاء في النار، ومكث سعيد بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لم يضحك منذ أربعين سنة حتى مات، وكذلك غزوان الرقاشي، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول مع كل ضحاك في مجلس شيطان.

وقد مرت معاذة العدوية رحمها الله تعالى يومًا على شبان يضحكون وعليهم ثياب صوف فقالت: سبحان الله لباس الصالحين وضحك الغافلين، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: الضحك الذي لا إسراف فيه هو الذي يظهر به السن ولا يسمع له الصوت، واللباس الذي لا إسراف فيه هو ما وارى العورة ووقاك من الحر والبرد، والطعام الذي لا إسراف فيه هو ما سد الجوع وكان دون الشبع.

وكان عون بن أبي زيد رحمه الله تعالى يقول: صحبت عطاء السلمي رحمه الله خمسين سنة فما رأيته ضاحكًا قط، وكان عبد العزيز بن أبي داود رحمه الله تعالى يقول: لما ظهر المزاح في أصحاب رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى: [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ] [٢]، فتركوا المزاح حينئذ وخشعوا ﷺ انتهى.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٠.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٦.

والآثار في ذلك كثيرة مشهورة في كتاب الرقائق وما تميز أهل الله عز وجل عن غيرهم إلا بالإقبال على الآخرة والتهيؤ لأحوالها، فتأمل يا أخي في نفسك وما أنت منطو عليه من الغفلة والسهو عما يقرب بك إلى الله تعالى وأكثر من الاستغفار والحمد لله رب العالمين.

تمني الموت

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تمني الموت إذا خافوا على أنفسهم فيما يسخط الله عز وجل عليهم وذلك بأمارات تظهر لهم من أنفسهم هي كالمقدمات للمعاصي والقرائن معدودة من الأدلة في كثير من المواضع وقد كان عابس الغفاري ﷺ في أيام الطاعون يقول يا طاعون خذني ويكرر ذلك فقال له ابن عم له: كيف تقول ذلك يا عابس وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يتمنى أحدكم الموت فإنه انقطاع لعمله] فقال عابس: نعم سمعته يقول ذلك. ولكني أخاف ستا سمعته ﷺ يتخوفهن على أمته: أمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، وقطيعة الرحم، والاستخفاف بالدم، ونشوا يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفصحهم في الدين ولكن يقدمونه ليغنيهم به غناء انتهى.

وكذلك تمنى أبو بكرة الموت ﷺ فقيل له ذلك فقال: أخاف أن أدرك زمانا لا أمر فيه بالمعروف ولا نهي فيه عن المنكر، وقد كان أبو هريرة ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان يكون الموت أحب إلى العلماء فيه من الذهب الأحمر حتى يأتي الرجل قبر أخيه فيقول يا ليتني كنت مكانك، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: من أطاع الله لم يتمن الموت، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا رأى أحدا فيه خيرا قال له: ادع لي بالموت، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: ما من مؤمن ولا كافر إلا والموت خير له، فإن الله تعالى يقول: [وما عند الله خير للأبرار]، وقال: [إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ] [1] ، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركت مشايخنا وهم يتمنون الموت رضي الله عنهم فكنت أعجب منهم حتى صرت الآن أتعجب ممن لا يُحب الموت.

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: ما أحب أن يخفف عني الموت

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

لأنه آخر شيء يؤجر عليه المؤمن، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: ما أهدى أخ إلى هدية هي أحب إلى من السلام، ولا بلغني خبر عنه قط أحب إلي من موته، وقد كان عطاء السلمي رحمه الله يتمنى الموت فقال له عطاء الأزرق رحمه الله كيف تتمنى ما نهى النبي ﷺ عنه، فقال: إنما يريد الحياة من يزداد كل يوم خيرًا وأما مثلي ومثلك فما يرجو بالحياة.

وكان أبو عتبة الخولاني رحمه الله تعالى يقول: كان من صفة أصحاب رسول الله ﷺ إن لقاء الله تعالى أحب إليهم من الشهد، ولم يكونوا يخافون عوزًا من الدنيا بل كانوا واثقين برزق الله، وكانوا يحبون الموت أكثر مما يحب أحدكم الصحة، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: قلت مرة لسهل التستري رحمه الله أتحب يا سهل أن تموت غدًا؟ فقال: لا ولكن الساعة، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يخافون من الأمراض والبلايا خوفًا على أنفسهم أن يقعوا في كراهة قضاء الله تعالى فلم يكن خوفهم من البلاء إلا لما فيه، ووالله ما أدري ماذا يقع مني لو ابتليت فلعلي أكفر ولا أشعر، وقد بلغني أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يا بني إني حملت الصخر والحديد فلم أر شيئًا أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيئًا ألذ من العافية وذقت المرارات كلها فلم أذق شيئًا أمر من الحاجة إلى الناس.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ابكوا على أهل البلاء وإن كان جرمكم أعظم من جرمهم فيحتمل أنكم تعاقبون على ذنوبكم كما عوقبوا أو أشد، وكان كثيرًا ما يبعث إلى أهل السجن بما عنده من الطعام والدراهم يقول: إنهم مساكين.

وكان سهل بن سعد التستري رحمه الله تعالى يقول من أعظم ما يبتلى به العبد الفراغ من أعمال الدنيا والآخرة ولكن لا يشعر به أحد بلاء إلا القليل من الناس، وكان مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى يقول: من أعظم المروءة الصبر على أذى الرجال ولقد أدركنا الناس وهم يعدون الإمارة أعظم بلاء ونراهم اليوم يطلبونها، وكانوا إذا تولى صديقهم الإمارة يقولون اللهم إنه ذكرنا حتى يصير لا يعرفنا ولا نعرفه، وكان يحيى بن الحسين رحمه الله تعالى يقول: من طلب السلامة احتمل الملامة، وكان يقول: البلاء كله ينشأ من العافية ولو أن فرعون أصابه المرض ما قال الذي قاله وهو قوله أنا ربكم الأعلى.

وقد سمعنا سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أعظم البلاء وقوع العبد في الرياء بعلمه وعمله لكن لا يشعر بذلك إلا قليل من الناس فاعلم ذلك وفتش يا أخي نفسك وإياك أن تقول كما قال بعض المحبين حين ابتلي اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه

فإن رجال البلاء إنما هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد كان الإمام الشافعي ﷺ مبتلى بمرض البواسير فكانت تنضح عليه دمًا ليلاً ونهارًا حتى كان ﷺ يجلس للحديث والطشت تحته يقطر فيه الدم، فقال يومًا: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه فسمعه شيخه الإمام مسلم بن خالد الزنجي رحمه الله تعالى فزجره وقال له: مه يا محمد سل الله العافية فأنا وأنت لسنا من رجال البلاء وكان أبو بكر ﷺ يقول في خطبته: أيها الناس سلوا الله العفو والعافية فإن المؤمن لم يعط بعد الإسلام أفضل من العفو والعافية وسيأتي بسط الكلام على هذا الخلق مفرقًا في الباب إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

خوفهم من النار

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة خوفهم من الله تعالى في حال بدايتهم وحال نهايتهم لكن في حال بدايتهم من الذنوب وخوف العذاب، وفي حال نهايتهم خوف الإجلال والتعظيم ومن لازم خوفهم الندم ضرورة في الحالتين، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: [يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا]، وفي الحديث [البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يفنى فكن كما شئت كما تدين تدان]. وقد كان أبو سعيد الخدري ﷺ يقول: أربع إذا أفرط فيها الرجل أهلكته واستهوته كثرة الجماع والصيد والقمار والذنوب، وكان أبو تراب النخشبي رحمه الله تعالى يقول: إذا أجمع الرجل على ترك الذنوب أتته الإمدادات من الله تعالى من كل جانب، ومن علامة سواد القلب ثلاث: أن لا يجد للذنوب مفزعًا، ولا للطاعة موقعًا، ولا للموعظة منجعًا.

وكان أبو محمد المروزي رحمه الله تعالى يقول: إنما شقي إبليس بخمس خصال: لأنه لم يقر بذنبه ولم يندم عليه، ولم يلم نفسه ولم يبادر إلى التوبة وقنط من رحمة الله تعالى، قال: وعكس ذلك آدم عليه الصلاة والسلام فإنه سعد بخمس خصال: أقر بذنبه وندم عليه، ولام نفسه وبادر إلى التوبة، ولم يقنط من رحمة الله تعالى.

وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إذا عصيت ربك فبادر بالتوبة والندم ولا تعتذر للناس فاعتذارك إليهم أعظم من معصيتك، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: لأن أدخل النار وقد أطعت الله تعالى أحب إليّ من أن أدخل الجنة وقد عصيته، وكان الأوزاعي رحمه الله تعالى إذا رأى أحدًا من قرابة رسول الله ﷺ في معصية يقول له لا تغرنكم

قرابتكم من رسول الله ﷺ مع مخالفتكم هديه وأمره فإنه قال لابنته فاطمة رضي الله عنها: [أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئًا].

وكان أحمد بن حرب يقول: ألم يأن للمذنب أن يتوب فإن ذنبه في الديوان مكتوب وهو غدًا في قبره مكروب وبه إلى النار مسحوب، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: لا ينبغي لعاقل أن يؤذي محبوبه، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: يؤذي الرجل نفسه بعصيانه ربه، وكان جعفر بن محمد رضي الله عنهما يقول من أخرجه الله تعالى من ذل المعصية أغناه بلا مال وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا بشر، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: العمل الصالح مع قلة الذنوب أحب إلى الله من كثرة العمل الصالح مع كثرة الذنوب، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: على قدر الخروج من الذنوب تكون الإقالة للقلوب، وقد كان الحسن البصري رحمه الله يقول: من علامة من غرق في الذنوب عدم انشراح صدره لصيام النهار وقيام الليل.

وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: قد غرقنا في الذنوب، ولو أن أحدًا منكم يجد مني ريح الذنوب لما استطاع أن يجلس إلي، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: مساكين قتلة الحسين ﷺ ولو دخلوا الجنة بفضل الله تعالى، كيف يتجرأ أحدهم أن يمر بالنبي ﷺ وقد قتل ولده ووالله لو أن لي مدخلاً في قتله وخيرت بين الجنة والنار لاخترت دخول النار خوفًا أن ينظر إلي النبي ﷺ في الجنة نظرة غضب تؤذيني وتؤذيه، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: لو لم يكن في الطاعة إلا ظهور نور الوجه وبهاؤه والمحبة في القلوب والقوة في الجوارح والأمن على النفس والتجويز في الشهادة على الناس لكان في ذلك كفاية في ترك الذنوب، ولو لم يكن في المعصية إلا النكارة في الوجه والظلمة في القلب واللعنة في الذكر والإسقاط في الشهادة والخوف على النفس لكان في ذلك كفاية فيعجل الله تعالى لكل من الطائع والعاصي أمارات ليفرح هذا ويحزن هذا، قلت ولعل المراد باللعن المذكور السب له حال التعيين أو دخوله في عموم العصاة، إذ اللعن المعين لا يجوز إلا بنص والله أعلم.

وكان عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ] [1] ، هي المعاصي يعظمها حتى لا يقع فيها، وكان

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٠.

كعب الأحبار ﷺ يقول في قوله تعالى: [إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ] [1]، قال: كان يقول أوه قبل الوقوع في النار، أوه قبل أن لا ينفع أوه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: أبى الله إلا أن يذل من عصاه في الدنيا والآخرة بين الناس، وما أذنب عبد في الليل إلا وأصبح ومذلته على وجهه، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: في قوله تعالى: [لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا] [2]، ضجوا من الصغائر قبل الكبائر.

وكان العوام بن حوشب رحمه الله تعالى يقول: أربع بعد الذنب شر من الذنب وهي الاستغفار من غير إقلاع، والاغترار بحلم الله، والإصرار والاستبشار بالمغفرة إذا عمل بعده طاعة فقد لا يغفره الله بها، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول من أطاع الله فقد ذكره وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ومن عصاه فقد نسيه، ومن علامة العلماء العاملين بعلمهم أن لا يوجد أحدهم إلا في عمل صالح، وقد سئل سفيان بن عيينة رحمه الله عن الملائكة كيف تكتب ما هم به العبد ولم يعمله، فقال: الملكان الكاتبان عليهما الصلاة والسلام لا يعلمان الغيب ولكن إذا هم العبد بحسنة فقد فاح منه رائحة المسك فيعلمان أنه قد هم بالحسنة، وإذا هم العبد بالسيئة فاح منه رائحة النتن فيعلمان أنه قد هم بالسيئة.

(قلت): ولعل المراد بالهم هنا العزم المصمم ليوافق الأحاديث والقواعد الشرعية والله أعلم، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: إن الله أمر بالطاعة وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذراً، ونهى عن المعصية ولم يجعل فعلها حجة ولو أراد سبحانه أن لا يعصى في الأرض أصلاً لما خلق إبليس فإنه رأس الخطيئة، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: ما أحب المتقون البقاء في هذه الدار إلا ليطيعوه فيها، وكان يقول: أدخلهم الله الجنة قبل أن يطيعوه وقدر عليهم المعصية قبل أن يعصوه لما سبق في علمه عز وجل، وقد كان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس ولهم أعمال صالحة كالجبال ومع ذلك كانوا لا يغترون وأنتم لا أعمال لكم ومع ذلك تغترون، والله إن أقوالنا أقوال الزاهدين وأعمالنا أعمال الجبابرة والمنافقين.

وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إذا عصيت ربك وأصبحت رأيت نعمه سابغة عليك فاحذر فإن ذلك استدراج، وقد أدركنا السلف وهم يستعظمون صغار الذنوب

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

أكثر مما تستعظمون أنتم كبارها، وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى إذا ضحى في العيد يقول: وعزتك وجلالك لو علمت رضاك في ذبح نفسي لذبحتها لك، قال: وقد مكث كهمش بن الحسن رحمه الله تعالى أربعين سنة يبكي على غسله يديه بتراب جاره بغير إذنه، وكان يقول: ربما كان أحدكم يظن إن الله تعالى غفر له ذنبه حين يتقادم عهده وذلك غرور، وقد بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل لبني إسرائيل بأي طريق وصل إليكم أني قد غفرت لأحدكم ذنبه حتى يترك الندم عليه، وعزتي وجلالي لأوقفن كل مذنب على ذنبه يوم القيامة.

(قلت): ولعل معنى وقوف العبد على ذنبه ليريه تعالى فضله عليه فلا يلزم من ذلك عدم المغفرة والله أعلم، وكان يزيد الحميري رحمه الله تعالى يقول: قلت مرة لراهب لم آثرتم لبس السواد على البياض، فقال: لأنه شعار أهل المصائب ونحن أهل الذنوب وهي أعظم المصائب، قال: ومر عتبة الغلام رحمه الله يومًا على مكان فارتعد ورشح عرقًا، فقالوا له في ذلك، فقال: هذا مكان عصيت الله فيه وأنا صغير، وقد حج مالك بن دينار رحمه الله تعالى ماشيًا من البصرة فقيل له ألا تركب، فقال: أما يرضى العبد العاصي الآبق أن يأتي إلى صلح مولاه إلا راكبًا، والله لو أني أتيت مكة على الجمر لكان ذلك قليلاً انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي وإياك أن تتهاون بالاستغفار إذا تقادم عهد الذنب فإنك من المعصية على يقين ومن المغفرة على شك وأكثر من الاستغفار ليلاً ونهارًا، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الخوف من الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الخوف من الله تعالى أن يعذبهم على ما جنوه من مظالم نفوسهم ومظالم العباد، ولو عود خلال لأحد أو إبرة يخيطون بها لا سيما إن كان أحدهم يستقل أعماله الصالحة في عينه فإنه يشتد خوفه وكربه لعدم أن يكون معه شيء من الحسنات يعطي منها الخصوم يوم القيامة، وربما شح أحد المظلومين يوم القيامة فلا يرضى بجميع أعمال الظالم الصالحة في مظلمة واحدة من مال أو عرض أو لطمة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: [أتدرون من المفلس من أمتي يوم القيامة؟، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، فقال ﷺ: «المفلس من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة وحج، ويأتي وقد شتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم قذف في النار].

وكان عبد الله بن أنيس ﷺ يقول: ينادي رب العزة يوم القيامة أنا الملك الديان لا

ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد عنده مظلمة حتى أقتص له منه، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: تاب شاب من بني إسرائيل عن جميع المعاصي حتى صار يتعبد، فعبد الله سبعين سنة لا يفطر ولا ينام ولا يستظل بظل ولا يأكل سميناً، فلما مات رآه بعض إخوانه في المنام، فقال له: ماذا فعل بك الله؟ قال: حاسبني ثم غفر لي كل ذنب إلا عوداً خللت به أسناني بغير إذن صاحبه فأنا محبوس عن الجنة بسببه إلى وقتي هذا.

(قلت): ويؤيد ذلك حديث [إن الله تعالى أخفى ثلاثاً في ثلاث، أخفى رضاه في طاعته، وأخفى سخطه في معصيته، وأخفى أولياءه في عباده] الحديث، فربما علق الحق تعالى سخطه على عبد بوقوعه في ذنب صغير في عينه كأخذه الخلال المذكور لأسنانه أو غسل يده بتراب جاره بغير إذنه كما مر آنفاً والله أعلم.

وكان الحرث المحاسبي رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أنه تاب كيال عن الكيل وأقبل على عبادة ربه عز وجل، فلما مات رآه بعض أصحابه في منامه فقال له: ما فعل الله بك يا فلان؟ قال: أحصى علي خمسة عشر قفيزاً من أنواع الحبوب التي كنت أكتالها، فقال له: كيف ذلك؟ قال: كنت أغفل عن تعاهد الكيل بالنقص من الغبار فتراكم في قعره من التراب فكان كل كيلة تنقص بمقدار ما في القعر من التراب، قال: وكذلك وقع لشخص كان لا يتعاهد الميزان بمسحها من الغبار فكان يعذب في قبره ويسمع الناس صياحه في القبر حتى شفع فيه بعض الصالحين ﷺ، وكان أبو ميسرة رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن ميتاً ضرب في قبره ضربة التهب قبره منها ناراً فقال: على ماذا تضربوني؟ فقالوا: إنك مررت على مظلوم فاستغاث بك فلم تغثه، وصليت مرة بغير وضوء أي وأنت متحقق، وكان شريح القاضي رحمه الله تعالى يقول: إياكم والرشوة فإنها تعمي عين الحكيم، وفي رواية تعمي عين الحكم الحق.

وقد كان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا رأى أحداً من الولاة أو أعوانهم يتصدق على أحد من الفقراء يقول له: أيها المتصدق على المساكين لترحمهم ارحم أنت الذي ظلمته ورد إليه ظلامته فإنه أخلص لذمتك، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: من ظلم رجلاً مظلمة وفاته أن يخرج من مظلمته فليستغفر له دبر كل صلاة فإنه يخرج من مظلمته إن شاء الله تعالى.

وكان حذيفة ﷺ يقول: من اقتراب الساعة أن يكون أمراء فجرة وعلماء فسقة

وأمناء خونة، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: إن الرجل ليلعن نفسه في الصلاة ولا يشعر، فقيل له: وكيف ذلك، قال: يقرأ ألا لعنة الله على الظالمين وهو قد ظلم نفسه بالمعاصي وظلم الناس بأخذ أموالهم والوقوع في أعراضهم، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تكونوا أوصياء فإن الوصي قد لا يقدر على العدل في وصيته ولو بالغ في التحرز، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: أمين الخائن خائن، وأمين العشار عشار.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: إياك أن تكون وصيًا فإن الوصي يريد أن يستصلح بك المال ويفسد عليك دينك فكن على دين نفسك أحرص منك على حفظ ماله، وكان أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما يقول: الدخول في الوصية أول مرة غلط، والمرة الثانية خيانة ولا كلام.

وقد رأى كعب الأحبار ﷺ رجلاً يظلم الناس في يوم الجمعة فقال له: أما تخشى من ظلم الناس في يوم تقوم فيه القيامة وفيه خلق أبوك آدم عليه الصلاة والسلام، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: من أعان ظالمًا على ظلمه أو لقنه حجة يدحض بها حق امرئ مسلم فقد باء بغضب من الله، وكان الفضيل بن عياض رضي الله عنهما يقول: بلغنا أن الله تعالى إذا أراد أن يتحف عبده سلط عليه من يظلمه انتهى.

وفي الحديث [من دعا على ظالم فقد انتصر] وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: لو ظلمني أحد ولم أكافئه كان أحب إلي، وكان أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه يقول: ما ظلم أحد أحدًا ولا أساء أحد أحدًا حقيقة، لأن الله تعالى قال من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها، وكان أحمد بن حرب رحمه الله تعالى يقول: يخرج من الدنيا أقوام أغنياء من كثرة الحسنات فيأتون يوم القيامة مفاليس من أجل تبعات الناس، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنبًا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد انتهى.

فتأمل يا أخي في خوف السلف واقتد بهم في ذلك فإنك على شفير الهلاك ومن خاف سلم، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الخوف من الله من أهوال يوم القيامة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الخوف من الله تعالى إذا ذكروا أهوال يوم القيامة وكثرة الغشيان والصعق إذا سمعوا القرآن والذكر، وقد قرأ رسول الله ﷺ يومًا قوله تعالى: [إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا] (١)، وكان وراءه حمران بن أعين فخر ميتًا ﷺ، وقد دخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى يومًا فقال له: عظني يا يزيد، فقال له أمير المؤمنين أنك لست أول خليفة يموت فبكى عمر. وقال له زدني: فقال له: ليس بينك وبين أبيك آدم أب حي فبكى عمر، وقال له زدني: فقال له: ليس بين الجنة والنار منزلة أخرى فسقط عمر مغشيًا عليه.

وكان الحسن بن صالح رحمه الله تعالى يؤذن مرة فقال أشهد أن لا إله إلا الله فغشى عليه فحملوه من المنارة ونزلوا به وصعد أخوه فأذن وصلى بالناس والحسن في غشيته، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: ما رأيت أحداً أكثر خشوعًا من الحسن - يعني ابن صالح- رحمه الله قام ليلة إلى الصباح بسورة عم يتساءلون يرددها ويغشى عليه إلى الفجر ولم يتم السورة، وكان كلما غشي عليه يجدد طهارة.

وقد مر داود الطائي يومًا على امرأة تبكي على قبر لها وتقول: ليت شعري بأي خديك بدأ الدود فخر داود مغشيًا عليه، وقد كانت شعوانة العابدة رحمة الله عليها تقول في مناجاتها: إلهي أنت أكرم الكرماء وسيد السادات ورجاء المسلمين فأسألك أن تغفر اليوم لكل من تعرض لمعصيتك بعد معرفته بعقوبتك ثم تصرخ ويغشى عليها وتقول: هاه، وقد قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يومًا [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ] حتى وصل إلى قوله تعالى: [وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ] (٢)، فخر مغشيًا عليه وصار يضطرب على الأرض ساعة طويلة، قال وسمع الربيع بين خيثم رحمه الله تعالى قارئًا يقرأ قوله تعالى: [إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا] (٣) فخر مغشيًا عليه ثم حمل إلى بيته ففاته الظهر والعصر والمغرب والعشاء وكان هو الإمام في حارته، وفي رواية كان القارئ عبد الله بن مسعود، وقد كان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: صلى سفيان الثوري رحمه الله

---

(١) سورة المزمل: الآية ١٢،١٣.

(٢) سورة التكوير: الآية ١-١٠.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١٢.

تعالى ركعتين خلف المقام ثم نظر إلى السماء فانقلب مغشيًا عليه، قال الداراني وما فعل به ذلك مجرد نظره إلى السماء وإنما ذلك من التفكر في أهوال القيامة.

وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذا ذكر خطيئة يغشى عليه ويسمع وجيب قلبه من مسيرة ميل فيقال له تفعل ذلك وأنت خليل الرحمن فيقول إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي قال: وصلى الفضيل بن عياض رحمه الله الفجر يومًا فقرأ يس فلما بلغ قوله تعالى:[إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ] [1] ، سقط ابنه علي رحمه الله فلم يفق حتى طلعت الشمس، وقد كان عليّ هذا إذا أراد أن يقرأ سورة لم يقدر أن يتمها وكان لا يقدر يسمع سورة إذا زلزلت الأرض ولا سورة القارعة أبدًا، قال: ولما مات ضحك أبوه الفضيل فقيل له في ذلك وكان كثير الحزن فقال: إن الله أحب موته فأحببت ذلك لحب الله، وكان يقول لوالده ادع الله لي أن يقدرني على سماع سورة كاملة أو على ختم القرآن ولو مرة قبل موتي، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: كان أحدهم يقرأ القرآن في الليل فإذا أصبح عرف الناس ذلك في وجهه من شدة التغير والاصفرار والنحول والذبول فصار النّاس اليوم يقرأ أحدهم القرآن كله في الليل فإذا أصبح لا يظهر على وجهه منه شيء وكأنه حمل رداءه، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: سمع سلمان الفارسي ﷺ قارئًا يقرأ قوله تعالى: [وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ] [2] فصلح ووضع يده على رأسه وخرج هائمًا لا يدري أين يتوجه مدة ثلاثة أيام.

فتأمل يا أخي في أحوال سلفك فهل غشي عليك قط عند سماع كلام ربك عز وجل خالصًا أم لم يغش عليك لا خالصًا ولا مرائيًا لقسوة قلبك فخذ حذرك وعليك بالجوع فإنه يرقق القلب، والحمد لله رب العالمين.

انخلاع قلوبهم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): انخلاع قلوبهم من أجسامهم في كل مرضة يمرضونها لاحتمال أن تكون تلك المرضة آخر آجالهم فلا يمكنهم التوبة ولا تدارك الحقوق فيذهبون إلى الآخرة وهم عصاة كالعبد المجرم الذي فسق في حريم سيده وأتوه به حال

---

(١) سورة يس، الآية ٥٣.

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٣.

اشتداد غضبه عليه ولله المثل الأعلى، وقد مرض مرة حسان بن سنان رحمه الله فدخل عليه أصحابه يعودونه فقالوا له كيف تجدك؟ فقال: بخير إن نجوت من النار، فقالوا له: ماذا تشتهي، فقال: ليلة طويلة أحييها بالصلاة والاستغفار قبل أن أموت، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: دخلت على جار لي وهو في مرض موته وكان مسرفًا على نفسه فقلت له: ألا تعاهد الله تعالى على أنك لا تعصيه فلعلك تموت على ذلك، قال مالك: فسمعت النداء من داخل البيت إن كان عهده مثل عهودك التي تعاهدنا عليها ثم تنقضها فلا فائدة فيه بل يزاد به مقتا وطردا فخر مالك مغشيًا عليه.

وقالوا للربيع بن خيثم في مرض موته ألا ندعو لك طبيبًا فسكت ساعة ثم قال: أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرًا وكلاً ضربنا له الأمثال، وكلاً تبرنا تتبيرا مع أنهم كان فيهم المعالجون والأطباء ومع ذلك ماتوا جميعًا ثم قال: والله لا أدعو لي طبيبًا أبدًا ودخلوا على مغيرة الخراز في مرض موته فقالوا له كيف تجدك؟ قال موقرًا بالذنوب، فقالوا: هل تشتهي شيئًا؟ فقال نعم إن يمن علي بالتوبة عن كل ما يكره قبل موتي، ولما مرض وهيب بن الورد سير إليه أمير مكة بطبيب نصراني فقال له: ما تجد؟ فقال: معاذ الله أن أخبرك بما بي، فقال له القوم: أخبرنا ونحن نخبره، فقال: سبحان الله أين هذه العقول اتأمروني أن اشكو ربي إلى عدو من أعدائه قوموا عني أجمعون.

وكان سفيان بن عيينة يقول: دخلنا على الفضيل بن عياض نعوده فقال: لو لم تجيئوا لكان أحب إلي من مجيئكم، إني أخاف أن أشكو لكم ربي، وكان يحيى بن معاذ يقول: عدنا مرة مريضا فقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: أخرجت إلى الدنيا وأنا راغم وقد عشت فيها وأنا ظالم وأفارقها وأنا نادم، ودخل الحسن البصري على عطاء السلمي وهو مريض وقد علاه الصفار فقال له: يا عطاء لو خرجت إلى صحن الدار، فقال: إني أستحي أن يراني ربي أسعى في حظ نفسي.

ولما مرض عمر بن عبد العزيز أتوه بطبيب فنظر إليه الطبيب وقال: هذا رجل قد قطع الخوف من الله كبده، فلا أقدر على دوائه، ولما مرض أبو بكر بن عياش دخل عليه طبيب نصراني فمنعه أن يمس يده فلما قام النصراني أتبعه أبو بكر بصره ثم قال: يا رب كما عافيتني من بلائه الذي هو الكفر فافعل بي ما شئت، وكان سفيان الثوري يقول: قل أن ينفك مريض من غير الأكابر عن هذه الأربع الطمع والكذب والشكوى والرياء وكان شداد بن حكيم إذ حم بالمرض يتصدق بمائة درهم شكرًا لله تعالى على المرض.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا مرض لا يتداوى بإشارة طبيب، وقالوا له مرة: ألا ندعو لك طبيبا، فقال: تالله لو علمت أن شفائي في مس أذني ما مسستها نعم ما يفعله ربي عز وجل، ولما عادوا يحيى بن معاذ قالوا له: كيف تجدك؟ قال: عشت في الدنيا ظالما، وقيل للإمام الشافعي كيف تجدك؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولسوء أعمالي ملاقيا وعلى فضل ربي معولاً، ودخل بعض الأمراء على داود الطائي في مرضه فوضع إلى جنبه ألف دينار فقال له: خذها عافاك الله، فقال له: ألك من حاجة؟ قال: نعم أن لا تأتيني بعد اليوم ثم التفت للحاضرين وقال: هذا يريد أن يزيدني دنسا على دنسي قبل موتي.

(ودخلوا) على الفضيل بن عياض يعودونه فقالوا: ما تشتهي قال: نظرة إلى أخي يوسف بن أسباط قبل موتي، وكان حاتم الأصم إذا رأى بخيلاً يتصدق في مرض موته يقول: اللهم أدم مرضه فإنه تكفير لخطاياه وأفضل للفقراء، وقالوا لمحمد بن سيرين في مرض موته كيف تجدك؟ فقال: أجدني في بلاء شديد أجوع فلا أستطيع أن أشبع وأعطش فلا أستطيع أن أروي وأرقد فلا أذوق الكرى، وقالوا وكان قليل الشكوى في مرضه ولكنه اشتد عليه فلم يطق حمله، فشكى إلى إخوانه ليدعوا له باللطف.

ومرض الفضيل بن عياض مرة فقالوا له: كيف تجدك؟ فقال: بخير ولكن ادعوا لي بطول المرض حتى لا أرى الناس ولا يروني ودخلوا على أبي بكر بن عبد الله يعودونه فخرج إليهم يهادي بين رحلين فقالوا: ادع الله لنا، فقال: رحم الله من اشتغل بطاعة ربه قبل أن يصير إلى مثل حالي هذا. ودخلوا على المأمون في مرضه الذي مات فيه فإذا هو قد أمر خدامه أن يفرشوا تحته جل الدابة ويبسطوا عليه الرماد، وصار يتمرغ عليه وقال يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، ودخلوا على عتبة الغلام في مرض موته فقالوا: كيف تجدك؟ فأنشد يقول:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي	غداة يقل الحاملون جنازتي
وعجل أهلي حفر قبري وصيروا	خروجي وتعجيل إليه كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قط صورتي	غداة أتى يومي علي وليلتي

قال عمر بن عبد العزيز ولما طعن عمر بن الخطاب ﷺ دعا بلبن فشرب منه فخرج اللبن من طعنته فقال: الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه خيرا فقال: والله لو وددت أني خرجت من الدنيا كفافا كما دخلت فيها ولو كان لي اليوم جميع ما طلعت عليه الشمس وما غرب لافتديت به من هول المطلع.

ولما حضرت الوفاة سلمان الفارسي بكى وقال: إن رسول الله ﷺ قد عهد إلينا وقال: ليكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب وها أنا قد جمعت هذه الأمتعة وأشار إليها فلما مات قوموها بخمسة عشرة درهمًا، ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له في ذلك فقال: إني أنتظر رسولاً يأتيني من ربي لا أدري هل يبشرني بالجنة أو بالنار، ولما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على ذنوبي التي رأيتها في عيني هينة وهي عند الله عظيمة، ولما حضرت محمد بن سيرين الوفاة بكى، فقيل له ما يبكيك؟ فقال: أبكي على تفريطي في الأيام الخالية وإدخالي للنار الحامية، ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال: اللهم إني أذنبت فإن غفرت لي فقد مننت، وإن عذبتني فقد عدلت، وما ظلمت لكني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ثم قضى نحبه ﷺ.

ولما حضرت عامر بن قيس الوفاة بكى وقال: إني لم أبك جزعًا من الموت ولا حرصًا على الدنيا ولكن أبكي على عدم قضاء وطري من طاعة ربي وقيام الليل في أيام الشتاء، ولما حضرت عبد الله بن المبارك الوفاة قال لغلامه: اجعل رأسي على التراب فبكى الغلام، قال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت على هذا الحال فقال: إني سألت ربي أن أموت على هذا الحال ثم قال: لقني يا أخي لا إله إلا الله إذا الحال تغير ولا تعد على ذلك إلا أن تكلمت بعده بكلام.

وكان عطاء بن يسار يقول وقف إبليس تجاه أحمد بن حنبل، وقال يا أحمد: خرجت من الدنيا وأنت آمن مني، فقال له: ما أمنتك بعد، ودخل الحسن البصري على رجل وهو يجود بنفسه فقال إن امرأ هذا آخره لحقيقي أن يزهد في أوله ولما حضرت أبا ذر الوفاة قال: يا موت اخنق وعجل فإني أحب لقاء الله.

ودخل أبو الدرداء على محتضر فوجده يقول: الحمد لله فقال له: أصبت يا أخي إن الله إذا قضى أمرًا أحب من عبده أن يحمد عليه. (ودخل) سفيان الثوري على ولد يجود بنفسه وأبواه يبكيان عنده فقال لهما لا تبكيان فإني قادم على من هو أرحم بي منكما.

(ولما حضرت) معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: اللهم ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل عثرتي واغفر زلتي وعد بحلمك على جهل من لم يثق بأحد سواك ولم يرج غيرك ثم بكى حتى علا نحيبه، ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله فقال: قد جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما اجترم فما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له، ولما حضرت أبا هريرة

الوفاة بكى، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: بعد السفر، وقلة الزاد، وضعف اليقين، وخوف الوقوع من الصراط في النار انتهى.

فتأمل يا أخي نفسك فإنك محتضر على الدوام ليس في يدك نفس واحد يطلع ينـزل وأكثر من الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار فإنك على شفا جرف هار والله يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين وعليه الاعتماد.

كثرة الاعتبار

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الاعتبار والبكاء والاهتمام بأمر الموت إذا رأوا جنازة، وقد كان أبو هريرة ﷺ إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك فإنا على أثرك ماضون. وكان مكحول الدمشقي يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنا رائحون موعظة بليغة قليلة وغفلة شنيعة يذهب الأول والآخر لم يعتبر، وكان يظل كأنه لا عقل له مدة أيام، وكان أسيد بن حضير يقول: ما حدثتني نفسي قط عند رؤية الجنازة إلا بما الميت صائر إليه، وربما ترك الأكل والشرب أيامًا وخرج مرة في جنازة فلما أدخلوا الميت القبر غشي عليه فما رجعوا به إلى بيته إلا في النعش.

وخرج مالك بن دينار في جنازة أخ له فبكى وقال: والله لا تقر عيني حتى أعلم ما صار إليه أخي، وكان الأعمش يقول: كنا نشهد الجنائز ولا نعرف من يعزي لأن الحزن قد عم الناس كلهم، وكان ثابت البناني يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا، ومر إبراهيم الزيات على جماعة يترحمون على ميت فقال لهم: خافوا على أنفسكم خير لكم، فإن ميتكم قد جاوز ثلاثًا: رؤية ملك الموت، وذوق مرارة الموت، وأمن من سوء الخاتمة. وحضر عمر بن ذر جنازة رجل كان مسرفًا على نفسه وتحاشى الناس أن يحضروا جنازته من شدة إسرافه، فلما دلوه في القبر قال له عمرو رحمك الله يا فلان محيت التوحيد وعفرت وجهك بالتراب وإن كانوا قالوا عليك إنك مذنب كثير الخطايا، فمن هو منا لم يذنب ولم يخطئ فبكى من كان حامل النعش.

فاعلم يا أخي ذلك واعتبر كما اعتبر هؤلاء وأكثر من البكاء والنحيب فإن بين يديك من الأهوال ما لا يوصف، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الحزن

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الحزن والهم كلما تذكروا الموت وسكراته خوف سوء الخاتمة حتى تزلزل عقولهم من شدة الألم، وقد كان كعب الأحبار يقول: لما أتى البشير إلى يعقوب عليه السلام قال يعقوب: ما عندي شيء أكافئك به ولكن هون الله عليك سكرات الموت.

(قلت): وقد تقدم عن بعضهم انه كان يقول لعلي اكره تخفيف طلوع روحي وانما أحب التشديد لأنه آخر عمل يثاب عليه المؤمن فما هنا في حق من يخاف عليه السخط إذا شدد الله عليه والله أعلم، وكان يقول: مثل الموت كشجرة الشوك أدخلت في جوف ابن آدم فأخذت كل شوكة بعرق ثم اجتذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى، وكان سلمان الفارسي يقول: إذا رشح جبين المؤمن عند الموت وذرفت عيناه وانتشر منخراه فهو في رحمة الله قد نزل، وإذا غط غطيط المخنوق وخمد لونه وأزبدت شفتاه فهو في عذاب قد نزل، وكان حسن البصري إذا حضر قبض روح أحد من اخوانه يمكث أياماً لا يذوق طعاماً ولا شراباً إنما هو البكاء والنحيب، وكان يقول: ثلاثة لا ينبغي للمؤمن أن ينساهن الدنيا وتصرم أحوالها والموت.

وكان سفيان الثوري إذا ذكروا بين يديه الموت لا ينتفع به أحد أياماً، وإذا سأله أحد عن شيء يقول لا أدري، وكان شقيق الزاهد يقول: قد خالف الناس في السنة أموراً قالوا إن الله تعالى تكفل بأرزاقنا ثم لم تطمئن قلوبهم إلا بشيء يجمعونه عندهم، وقالوا إن الآخرة خير من الأولى وتراهم يجمعون المال ولا ينفقونه فكأنهم لم يدخلوا الدنيا إلا ليحملوا الذنوب، وقالوا لابد لنا من الموت وهم يعلمون أعمال من ليس على باله موت، ولما حضرت الوفاة عطاء السلمي نظر إلى أصحابه وهم يدعون له بالتهوين فقال كفوا عن الدعاء فوالله إني أود أن روحي تتردد بين لهاتي وحنجرتي إلى يوم القيامة خوفاً مما أهجم عليه بعد الموت، وكان يقول: من أراد أن ينظر إلى الأرض بعد أهلها فلينظر إلى منازل الحجاج حين يرتحلون عنها وأنشد أبو العتاهية:

نفنى وتبقى الأرض بعد كمثل ما يبقى المناخ وترحل الركبان

وكان الحسن بن عمران يقول الموت أشد من نشر المناشير ومن طبخ القدور ولو أن ألم شعرة واحدة من الميت وضع على أهل الدنيا لوجدوا من ذلك ألماً يشغلهم عن الأكل

والشرب، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما على باب دار فقال: ما لي أرى هذه الدار ساكتة بعد أن كانت ناطقة، فأجابته امرأة من وراء الباب قد صار أهلها يتامى وأيامى فبكى الحسن حتى بل لحيته.

ولما طعن عمر بن الخطاب ﷺ قالوا له إنا لنرجو أن لا تمسك النار، فقال: والله إنكم لجاهلون وإني لأخشى أن أصير فحمة من فحم جهنم، ودخل عليه جماعة وهو مطعون قالوا له استخلف ولدك عبد الله بعدك فإنه عبد صالح، فقال ﷺ: أما يكفي من آل الخطاب واحد يأتي يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، وكان ابن أبي مليكة يقول لما قبض الخليل عليه الصلاة والسلام رآه بعض ولده، فقال يا أبت كيف وجدت الموت، فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام وجدت نفسي كأنها تنزع بالسلاسل وقد سألني ربي عن ذلك فأجبته بهذا، فقال الله تعالى: أما أنا قد هوناه عليك.

وكان ابن عباس يقول لما جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه قال يا موسى أشربت خمراً اليوم، فقال سبحان الله إني صائم فاستنكهه فقبض روحه في نكهته، فقيل به بعد موته: كيف وجدت الموت يا موسى؟ فقال: كشاة يسلخ جلدها وهي حية، وكان الربيع بن خيثم يقول: تمنوا الموت في هذه الدار جهدكم قبل أن تصيروا إلى دار تتمنون الموت فيها فلا تحابون يعني النار، وكان ابن سيرين إذا ذكروا الموت عنده مات كل عضو منه، وكان كعب الأحبار يقول: لما أحيا عيسى بن مريم سام بن نوح قال له عيسى: مذ كم أنت ميت، قال: منذ أربعة آلاف سنة، قال كيف وجدت الموت، قال: إلى الآن لم تذهب عني سكرته ولا حرارته.

(وقيل) لرابعة العدوية أتحبين الموت، فقالت: لو عصيت آدمياً ما أحببت لقاءه خجلاً منه فكيف وقد عصيت ربي عز وجل (وسمع) يحيى بن معاذ نائحة في دار رجل من الأغنياء فقال: ويح المغترين في الدنيا إلى متى يسمعون صيحة الآخرة في دورهم فلا ينتهون، وكان حامد اللفاف يقول: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء تعجيل التوبة وقناعة النفس والنشاط في العبادة، وقال وهب بن منبه لما مات موسى عليه الصلاة والسلام جاءت الملائكة في السموات بعضهم إلى بعض واضعي أيديهم على خدودهم، وهم يقولون: مات موسى كليم الله فأي الخلق لا يموت.

وكان ﷺ يقول: لا يموت عبد حتى يرى الملكين الكاتبين فإن صحبهما بخير قالا له جزاك الله من صاحب خيراً فنعم الصاحب كنت، فكم أحضرتنا معك في مجالس الخير

وكم شممنا منك الروائح الطيبة حال طاعتك الخالصة وإن كان قد صحبهما بسوء قالا له لا جزاك الله عنا من صاحب خيرًا فكم أحضرتنا معك حال معاصيك وكم شممنا منك رائحة النتن، وكان ﷺ يقول: لا يقدر على رضا الله إلا من يعلم أن الله تعالى يراه على الدوام.

(قلت): قد ذكر المحققون أن مراقبة الله تعالى مع الأنفاس ليست من مقدور البشر فليتأمل ما هنا، وكان سفيان الثوري يقول ما استعد للموت من ظن أنه يعيش غدًا وكان يقول الطاعات تتفرع من ذكر الموت والمعاصي تتفرع من نسيانه.

فاعلم يا أخي ذلك وعليك بالوحدة ومجالسة العباد والزهاد والعلماء العاملين، وإياك ومجالسة الغافلين والراغبين فإن مخالطتهم ظلمة على القلب وحجاب عن شهود أهوال يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

النظر إلى الدنيا بعين الاعتبار

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : النظر إلى الدنيا بعين الاعتبار لا بعين المحبة لها وشهواتها كما قد درج عليه جمهور السلف الصالح ﷺ، وقد جاء سعد بن أبي وقاص يومًا إلى رسول الله ﷺ فقال له: أين كنت يا سعد؟ فقال: كنت عند قوم في البادية همتهم لذات بطونهم وفروجهم. فقال له رسول الله ﷺ:[ألا أخبرك بما هو أعجب من ذلك؟ فقال: بلى، فقال: من عرف مثل هذا الذي أنكرت عليهم ثم فعل كفعلهم] وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: من أعمل الفكرة والعبرة في الدنيا لم ينقص له عمل صالح.

(وقيل) لحاتم الأصم متى يكون أحدنا من أهل الاعتبار في الدنيا فقال: إذا رأى كل شيء في الدنيا عاقبته إلى الخراب وصاحبه يذهب إلى التراب، وكان يحيى بن معاذ يقول: ليكن نظرك إلى الدنيا اعتبارًا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا، وكان حاتم الأصم يقول: من خرجت من داره جنازة ولم يعتبر لها لم ينفعه علم ولا حكمة ولا موعظة، وكان أحمد بن حرب يقول: تعجب الأرض من رجلين ممن يمهد مضجعه للنوم ويوطئ فراشه تقول له الأرض يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك في بلا فراش وتعجب ممن تشاجر مع أخيه في قطعة منها. تقول له الأرض لما لا تتفكر في أربابها قبلك فكم مضى من الناس رجل ملكها ولم يقم فيها.

وكان مالك بن دينار يقول: كل من لم يعتبر بصره وبصيرته من هذه الدار إلى الدار الآخرة فهو محجوب القلب قليل العمل، وقال إبراهيم بن أدهم: كان إبراهيم التيمي

يبول في صحن داره فخرج ليلاً من حجرته ليبول فيه فلم يزل شاخصًا إلى الصباح فقيل له ذلك، فقال: لما أردت أن أبول تذكرت أهل النار وما هم فيه لم يزالوا يعرضون علي بسلاسلهم وقيودهم إلى الصباح فلم يأخذني نوم.

(وكانت) فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز تقول: والله ما سم عمر ولا قتل كما قيل، وإنما مات في خشية الله وخوف النار، وكان ثابت البناني يقول مردونا عليه السلام بتنور يوقد فتذكر النار الكبرى فاضطرب وصعق وكادت تخلص أعضاؤه وأوصاله وكانوا يشدونها بالحبال حتى يقدر على أن يحركها فلا تزال كذلك مشدودة أيامًا، وكان يقول في أيام الحر إلهي لا صبر لنا على حر شمسك فكيف نصبر على حر نارك.

وكان يزيد بن مرثد لا يزال عيناه تهملان بالدموع فقيل له في ذلك فقال: لو أذن الله تعالى على أن يدخلني في ماء الحمام إن عصيته لكان يحق لي أن أبكي الدم، فكيف وقد وعد من عصاه أن يحرقه بالنار، ومر عيسى عليه الصلاة والسلام على مقبرة فسمع قائلاً يقول: كم من بدن صحيح ووجه مليح ولسان فصيح بين أطباق الثرى يصيح، وكان أحمد بن حرب يقول ما رأيت أسخف من عقولنا نؤثر الظل على الشمس ولا نؤثر الجنة على النار.

فاعلم ذلك يا أخي واجعل نظرك للوجود عبرة، والحمد لله رب العالمين.

تحذير الناس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تحذيرهم للناس أن يتبعوهم على أفعالهم الرديئة نصحًا للعباد في حياتهم وبعد مماتهم لئلا يلحقهم الإثم بسبب من اتبعهم على تلك الصفات الرديئة التي ربما تقع منهم في غفلة أو سهو، وقد بلغنا أن السيل كشف عن قبر أيام إسكندر ذي القرنين من ذهب طوله عشرة أذرع وعرضه كذلك فكشفوا الغطاء فإذا في ذلك القبر شخص نائم على سرير قوائمه من ذهب وهو مغطى بالحرير وفي عنقه لوح من زبرجد مكتوب فيه اسم واجب الوجود وعلة العلل كل ما له ابتداء فله انتهاء، قد ملكت الربع المسكون من الدنيا ألف سنة وبلغ خراجي كل يوم زنة قبري هذا ذهبًا، وسخر لي الشمس والقمر والأفلاك. أطاعني الريح والماء والنار والحديد ثم صعدت إلى الجو العلوي وتركت هذا الجسد بينكم يتلاشى ليعتبر به من بعدي، فلا مخلوق إلا سيفنى والباقي الله رب العالمين، ذكره الغزالي ففي ذلك تحذير هذا الملك للناس من أن يتبعوه في الغفلة عن الموت اشتغالاً بالدنيا.

وكان وهب بن منبه يقول دخل داود عليه السلام غارًا من أغوار بيت المقدس، فإذا فيه سرير عليه رجل ميت وعند رأسه لوح مكتوب فيه أنا فلان الملك، ملكت الدنيا ألف عام وتزوجت ألف بكر وبنيت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وهذا مصرعي فاعتبروا بي يا أهل الدنيا، وكان الفضيل بن عياض يقول كما أراد عدو الإنسان أن يضره فيصرفه الله عنه ولا يشعر، ثم يقرأ قوله تعالى: [إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ][1]

وكان أنس بن مالك يقول: لا تذهب الأيام والليالي حتى يكون سماع الشعر أحب إلى الناس من سماع القرآن. وكان يحيى بن معاذ يقول: عجبت من أقوام يعيبون على الصالحين المباح، ولم يعيبوا على أنفسهم الذنوب القباح، فترى أحدهم يقع في الغيبة والنميمة والحسد والحقد والغل والكبر والعجب ولا يستغفر من ذلك ثم ينكر على الصالحين لبس أحدهم الثوب المباح أو أكل الحلاوة أو السكر المباح، وكان أبو حمزة البغدادي يقول لا تنظروا لشكر العامة في العلماء إذا ماتوا، وكان انظروا إلى شكر الزهاد والعباد لهم.

وقال صالح المري يومًا من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت امرأة وهل أغلق بابه تعالى قط، فقال صالح: امرأة عقلت وشيخ جهل، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: لا يسب النبي والصالح إلا أهل مدينته أو جيرانه لأنه ينصحهم فيكرهونه ويسبونه، وكان يحيى بن معاذ يقول: إذا رأيت العالم في مكان من الأماكن التي تزري به فلا تعجل باللوم عليه فربما كان أحذر منك في حضوره وأقل لومًا منك على لومك.

(قلت) وسيأتي في هذا الكتاب أن من الصالحين من لا يفارق مواضع المعاصي يشفع في أهلها ويحوطهم من أن ينـزل عليهم بلاء، ولا ينبغي المبادرة بالإنكار عليه إلا بعد الفحص عن حاله والله أعلم. (وكان) يحيى بن معاذ يقول: إذا صادفت النفس مالا فقد صادف الذئب غنمًا في البرية، وكان أبو الدرداء يقول: لا تجعلوا عبادته تعالى بلاء عليكم، فقيل كيف ذلك؟ قال: يوقف أحدكم على نفسه العمل ثم لا يفي به، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: كل كلام الله يرجع معناه إلى أن الآخرة خير من الأولى ولا ينبغي لأحد أن يشك في ذلك، قال: وكان حاتم الأصم يقول: من أحب الدرهم لذاته فقد أحبه للآخرة.

فاعلم ذلك يا أخي، وقل اللهم لا تجعلنا عبرة لغيرنا وبصرنا بعيوبنا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١.

رؤيتهم لأنفسهم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): رؤيتهم نفوسهم أنهم من أفسق الناس وأن مثلهم لا يستحق أن يجيب الله له دعاء، ولذلك كان أحدهم يمتنع من أن يخرج مع الناس للاستسقاء ودفع الوباء، وقد كان سعيد بن جبير يقول: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فلم يسقوا، فقال الملك: إن لم يرسل الله علينا السماء وإلا آذيته، قيل كيف تقدر أن تؤذيه وهو الحق تعالى مستحيل عليه أن يكون في السماء لأنه تعالى منـزه عن المكان والزمان، قال: أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك له أذى، فأرسل الله تعالى عليهم السماء فضلاً منه وحلماً.

وقالوا لمالك بن دينار: ألا تخرج معنا للاستسقاء فقال أخاف أن تمطر عليكم حجارة لأجلي، وكان يقول: إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر، وكان وهب بن منبه يقول: خرج عيسى عليه السلام يستسقي فخرج فضجر ولم يسق، فقال: من أذنب منكم ذنبًا فليرجع، فرجع الناس كلهم إلا واحدا فقال له أما لك ذنب؟ فقال: نعم نظرت مرة إلى امرأة فلما ولت أدخلت إصبعي في عيني هذه فقلعتها، فقال له عيسى عليه السلام: فادع الله للقوم، فدعا فجللت السماء لوقتها وأمطروا.

وخرج موسى عليه السلام ثلاثة أيام يستسقي فلم يسق فأوحى الله إليه أن فيكم رجلاً نمامًا فلا أستجيب لكم وهو فيكم، فقال موسى: يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا، فقال يا موسى: أنهاكم عن النميمة وأكون نمامًا، فقال موسى عليه السلام: توبوا كلكم عن النميمة فتابوا فسقوا في الساعة، وكان سفيان الثوري يقول قحط بنو إسرائيل سبع سنين حتى أكلوا الميتة والأطفال، فكانوا يخرجون إلى الجبال ويتضرعون فلا يجابون، فأوحى الله إلى موسى أن قل لهم لو عبدتموني حتى صرتم كالسوط البالي ما قبلت لكم دعاء حتى تردوا المظالم إلى أهلها، وأصاب بني إسرائيل مرة أخرى قحط فاستسقوا فلم يسقوا، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام كيف أستجيب لهم وقد خرجوا بأبدان نجسة ورفعوا إلى أكفًا قد أكلوا بها الحرام حتى ملئوا بطونهم فلا يزدادون مني إلا بعدًا وقحطًا فليتوبوا وأنا أرفع عنهم القحط.

وقحطوا مرة أخرى حتى أكلوا الكلاب الميتة، وكانوا يستسقون فلا يسقون، فأوحى الله تعالى إلى موسى قل لهم: لو مشيتم بأقدامكم حتى تجثوا على ركبكم ويبلغ عملكم عنان السماء وتكل ألسنتكم من الدعاء فإني لا أجيب لكم داعيًا ولا أرحم فيكم باكيًا حتى

تردوا المظالم لأهلها، فقال موسى لهم ذلك، فقالوا: نحن لا نحصي عدد المظالم حتى نردها فماتوا عطشًا وجوعًا.

فانظر يا أخي إلى كثرة اتهام السلف أنفسهم وإياك والمبادرة إلى الخروج إلى الاستسقاء إلا إن كنت تظن أن الله غفر لك ذنوبك، فإن لم تظن ذلك فتربص ثم تب إلى الله تعالى واخرج، والحمد لله رب العالمين.

كثرة العفو

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة العفو والصفح عن كل من آذاهم بضرب أو أخذ مال أو وقوع في عرض أو نحو ذلك تخلقًا بأخلاق رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ كان لا ينتقم لنفسه وإنما ينتقم إذا انتهكت حرمات الله، وكان جعفر بن محمد يقول: لأن أندم على العفو أحب إلي من أن أندم على العقوبة، وكان حاتم الأصم يقول من عدم إنصافك أن تبغض الناس إذا عصوا ربهم ولا تبغض نفسك إذا عصت ربها، قلت المراد ببغض الإنسان نفسه معاقبتها بالجوع والعطش وعدم النوم على فراش ونحو ذلك، فيعاملها معاملة الشخص لمن يكره بالغضب وعدم الشفقة لا كمعاملة المحب لمحبوبه.

وقد قال الشيخ أبو يزيد البسطامي ﷺ دعوت نفسي إلى العبادة مرة فأبت فعاقبتها فمنعتها الماء سنة، وكان المدايني يقول: أقبح المكافأة المجازاة بالإساءة، وكان التيمي يقول: كثرة الاحتمال تورث المحبة، قال: وأدخلوا على ابن الزبير رجلاً قد أحدث أي أذنب فدعا بالسياط ليضربه فقال له الرجل أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذل مني بين يديك ألا عفوت عني، فنزل ابن الزبير عن سريره والصق خده بالأرض وقال قد عفوت، قلت: ولعل تركه للتأديب على من أقسم عليه لعذر شرعي كان خاف من إقامته مفسدة أعظم من إقامته التأديب عليه والله أعلم.

وسئل قتادة من أعظم الناس قدرًا؟ قال أكثرهم عفوًا، وسرقت امرأة مصحف مالك بن دينار وملحفته فجعل يتبعها أنا مالك خذي الملحفة وهاتي المصحف لا تخافي، وكان أبو سعيد المقبري يقول من تمام العفو ترك مكافأة الظالم والترحم عليه وكثرة سؤال الله أن يعفوا عنه، ولما ضرب الإمام مالك جعل ضاربه في حل من أول سوط ضربه به، وكذلك بلغنا عن الإمام أحمد لما ضرب وكان يقول وماذا على رجل أن لا يعذب الله أحدًا بسببه، وكان كعب الأحبار يقول: من صبر على أذى امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيوب

عليه السلام، ومن صبرت على أذى زوجها لها أعطاها الله تعالى من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم رضي الله عنها.

وسيأتي أواخر هذا الكتاب بسط الكلام على هذا الخلق إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

تعظيم حرمة المسلمين

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة تعظيمهم حرمة المسلمين ومحبة الخير لهم لأنها من جملة شعائر الله تعالى، وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ يقول لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير، وكان عبد الله بن عباس يقول: أفضل الحسنات إكرام الجليس، وكان ينظر إلى الكعبة ويقول: إن الله حرمك وشرفك وكرمك والمؤمن أعظم حرمة عند الله تعالى منك، وكان عكرمة ﷺ يقول إياكم أن تؤذوا أحدًا من العلماء فإن من آذى عالمًا فقد آذى رسول الله ﷺ، وكان أبو هريرة ﷺ يقول: المؤمن أكرم على الله تعالى من بعض الملائكة الذين عنده، وقيل لحاتم الأصم لما كانت يد السارق المسلم تقطع في خمسة دارهم مع أن ديتها خمسمائة دينار، فقال لهتكه الستر وفعله الجور وتركه الحرمة.

فتأمل يا أخي في نفسك هل عظمت حرمات المسلمين فضلاً عن العلماء والصالحين كما ذكرنا أم احتقرتهم ووقعت في أعراضهم وصرت من الفاسقين بذلك فاستغفر الله.

الصبر على أذى زوجاتهم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): صبرهم على أذى زوجاتهم وشهودهم أن كل ما بدا من زوجة أحدهم من المخالفات له صورة معاملته لربه فلما خالف ربه كذلك خالفته زوجته وهي قاعدة أكثرية لا كلية، فتخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ذلك لعصمتهم، وكان عوام السلف إذا لم يشهدوا ما ذكرناه صبروا على أذاها لشهودهم أن نفعها أكثر من ضررها. وكانوا رضي الله عنهم يؤدون إلى المرأة حقها على الكمال ولا يمنعهم مخالفتها لهم عن ذلك عملاً بنحو حديث [أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك] وإن كان على كل من الزوجين الحق للآخر كما هو مقرر في كتب الحديث والفقه، وتقدم في الخلق قبله قول كعب الأحبار من صبر على أذى زوجته له أعطاه من الأجر ما

أعطى أيوب عليه السلام. وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: من جهاد المرأة حسن التبتل لزوجها، وكان الحسن البصري يقول: أربعة من الشقاء كثرة العيال، وقلة المال، وجار السوء في دار الإقامة، وزوجة تخون زوجها.

وكان سفيان الثوري يقول من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، ومن أدخل الدنيا بيته فقد تزوج ابنة إبليس، ومن تزوج ابنة إبليس أكثر إبليس التردد إلى بيته لأجل ابنته فاحذروا من التزويج، قلت كلام سفيان ﷺ في حق من تزوج بغير نية صالحة، فإن في الحديث من تزوج لله كفى ووقى لابد من هذا الحمل ليخرج من تزوج من الأنبياء والمحفوظين والأولياء والله أعلم.

وفي الحديث [لولا أن الله ستر المرأة بالحياء لكانت لا تساوي كفًا من تراب] وكان علي بن أبي طالب يقول: من سعادة المرء خمسة أشياء أن تكون زوجته موافقة، وأولاده أبرارًا، وإخوانه أتقياء، وجيرانه صالحين، ورزقه في بلده، وكان ﷺ يقول: [اللهم إني أعوذ بك من صاحب غفلة، ومن جار سوء، ومن زَوج يؤذي]، ولما ماتت زوجة مالك بن دينار لم يتزوج بعدها وكان يقول: لو أني قدرت على طلاق نفسي لطلقتها، وكان أحمد بن حرب يقول: إذا اجتمع في المرأة ست خصال فقد كمل صلاحها: المحافظة على الخمس، وطواعية زوجها، ومرضاة ربها، وحفظ لسانها من الغيبة والنميمة، وزهدها في متاع الدنيا، وصبرها عند المصيبة.

وكان عبد الله بن المبارك يقول: من فتنة النساء التي حذر النبي ﷺ منها أنهن يدخلن على الأزواج القطيعة للقرابة ويحوجونهم لأدنى المكاسب الزائدة على فتنة الشهوة والليل، وكان حاتم الأصم يقول: المرأة الصالحة عماد الدين وعمارة البيت وعون على الطاعة، والمرأة المخالفة تذيب قلب صاحبها وهي ضاحكة.

وكان عبد الله بن عمرو يقول: علامة كون المرأة من أهل النار أن تضحك لزوجها إذا أقبل وتخونه إذا أدبر. وكان شقيق البلخي يقول لامرأته: لو كان أهل بلخ كلهم معي وأنت عليَّ ما قدرت على حفظ ديني، وكان المدايني يقول: شكا نبي من الأنبياء إلى ربه سوء خلق امرأته فأوحى الله إليه إني جعلت ذلك حظك من العقاب، وكان عبد الملك بن عمير يقول: إذا طعنت المرأة في السن تعقم رحمها واختل لسانها وساء خلقها، وإذا طعن الرجل في السن استجمع رأيه وذهبت حدته وحسن خلقه، وكان حاتم الأصم يقول من علامة المرأة

الصالحة أن يكون حسبها مخافة الله وغناها القناعة بقسمة الله وحليها السخاوة بما تملك وعبادتها حسن خدمة الزوج وهمتها إلى استعداد الموت، وكان يقول كن مع زوج ابنتك أو أختك تقم دينها بذلك ولا تكن مع ابنتك أو أختك على زوجها تفسد عليها دينها، وشكا أبو مطيع البلخي إلى أيوب بن خلف زوجته فقال له أيوب: من لم يصبر على أذى زوجته كيف يدعي أن له درجة عليها.

وكان حاتم الأصم في بيته كالدابة المربوطة إن قدموا لها شيئا أكل وإلا سكت وطوى، وفي الحديث [المرأة الفاجرة كألف فاجر] وكان إياس بن معاوية يقول: اثنان لا أدري لهما دواء حاقن البول والمرأة السوء، وسيأتي بسط هذا الخلق في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد درج السلف كلهم على الصبر على الزوجة وعدم مقابلتها أو أدبها إلا لمصلحتها، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا به.

ترك طلب الرياسة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): ترك طلب الرياسة حتى تفجأهم وتقديمهم الناس على أنفسهم ويصير أحدهم يقول ما أنا بأهل للإمامة مثلاً، فيقول الناس له: بل أنت أهل لذلك وزيادة، وقد كان سفيان الثوري ﷺ يقول: من طلب الرياسة قبل مجيئها فرت منه وفاته علم كثير، وكان يقول: لا يطلب أحدكم الرياسة إلا بعد مجاهدة نفسه سبعين سنة، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: إذا جعلكم الناس رؤوسا فكونوا أذنابا، وكان حجاج بن أرطاة يقول: قد قتلني طلب الرياسة وحبها.

وكان الأنطاكي يقول: الرياسة رأس حب الرياء ومعشوق النفس وقرة العين للشيطان، وكان إبراهيم بن أدهم يقول: كونوا أذنابا ولا تكون رؤساء، فإن الذنب ينجو والرأس يهلك، وكان الفضيل بن عياض يقول: ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحد عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه، وكان سفيان الثوري يقول: ترك الرياسة وترك محبة المرأة أمر من الصبر.

وكان ميمون بن مهران يقول: إياكم أن تدعوا أحدا يمشي معكم أو في ركابكم إذا ركبتم لقضاء حاجة فإن ذلك معدود من الفتنة للمتبوع والمذلة للتابع، قال: وأول من مشى

معه الرجال يشيعونه من المسجد إلى الدار الأشعث بن قيس فكان يركب والغلمان بين يديه فقال الناس: قاتله الله من جبار.

فإياك يا أخي وحب الرياسة في شيء من أمور الدنيا أو ما يؤول إليها، وسيأتي بسط ذلك في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): نصح بعضهم بعضا فكان الكبير لا يتكدر من نصح الصغير له وبالعكس، وهذا بخلاف ما عليه أهل الرعونات اليوم، وقد نصحت أنا مرة شيخا من مشايخ هذا الزمن فهجرني إلى أن مات، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: ما من شيء أحب إلى الله من شاب ينصح شيخا، وشيخ ينصح شاباً وبذلك صار الشاب التائب حبيب الله، وقال ﷺ: [أوصيكم بالشباب خيراً فإنهم أرق أفئدة إلا وأن الله تعالى أرسلني شاهدا ومبشرا ونذيرا فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ] فأنشدوا في ذلك:

إن الغصون إذ لاينتها اعتدلت ولن يلين إذا لاينته الخشب

قال أنس: وكان الشباب على عهد رسول الله ﷺ لا يتعبدون إلا قليلاً فلما توفى رسول الله ﷺ زادوا في العبادة وقالوا: إن كنا في أمان من نزول العذاب بنا في حياة رسول الله ﷺ فلما مات رسول الله ﷺ ذهب ذلك الأمان، وكان أحمد بن حرب يقول: ينبغي للرجل أن يرتدع عن الهوى والمعاصي إذا بلغ الأربعين سنة، وإذا طلع الشيب في رأسه، وإذا حج إلى بيت الله الحرام، وإذا تزوج فإن الزنا بعد التزويج أقبح من كل قبيح، قلت والمعنى أن ما ذكر يشتد قبحه على من تخلق بهذه الصفات لا أنها كانت مباحة لمن لم يبلغ الأربعين نظير ما قالوا: يستحب للصائم ترك الغيبة. وكان يحيى بن معاذ يقول: أعمر الإنسان في هذه الدار ولو طال إلا كنفس واحد في جنب عيش الجنة، ومن يضيع نفسا واحدة يعيش به عيش الأبد إنه والله من الخاسرين. وكان كعب الأحبار يقول: الشاب المتعبد أحب إلى الله من الشيخ المتعبد، ومر رجل على حذيفة بن اليمان وحوله فتيان جلوس فقال ما هؤلاء الأحداث حولك؟ فقال: وهل الخير إلا في الشباب، أما سمعت قول الله تعالى: [قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ] (1)، وقوله تعالى: [إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ] (2)، وقال تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٣.

[قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا] [١] ، وإن الله لم يبعث نبيًا إلا وهو شاب.

وفي الزبور ما بلغ أحد سبعين سنة إلا اشتكى من غير علة، وكان محمد بن حسان يقول: لا تطلب من نفسك العمل في هذه السنة مثل عملها في السنة التي قبلها، لأن الإنسان كل يوم في نقص، وقد قيل لشيخ كيف حالك؟ فقال: صار يسبقني من هو معي ويدركني من هو خلفي وصرت أنسى كل شيء سمعته من الخير، وصرت إذا قمت دنت مني الأرض وإذا قعدت تباعدت وصرت أبصر الواحد اثنين، واسود مني ما كنت أحب أن يبيض، وابيض مني ما كنت أحب أنه يسود واشتد مني ما كنت أحب أنه يلين، ولان مني ما كنت أحب أنه يشتد انتهى.

فتأمل يا أخي ما ذكرته لك واستغنم شبابك ورقع مشيبك بكثرة الاستغفار، فلعلك تجبر ما انصدع من دينك. والحمد لله رب العالمين.

حسن الأدب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): حسن أدبهم مع الصغير فضلاً عن الكبير ومع البعيد فضلاً عن القريب ومع الجاهل فضلاً عن العالم، وقد قال تعالى لموسى وهارون: [فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا] [٢]، مع أن فرعون كان من أفسق الكفار، وأجمعوا على أن علو الدرجات إنما يكون بزيادة الأدب، والأصل في الأدب شهود النقص في أنفسهم والكمال في غيرهم عكس من كان قليل الأدب.

وقد كان رسول الله ﷺ يكره للرجل أن يحد النظر إلى أخيه، وكان ميمون بن مهران إذا دعي إلى وليمة جلس مع الصبيان والمساكين من الرجال وترك الأغنياء، وكان سعيد بن عامر يقول من وصف إنسانًا بما ليس فيه لعنته الملائكة، فقال له رجل يومًا وهو لا يعرفه يا أصلع، فقال له يا أخي إن كنت لغنيًا عن لعن الملائكة لك، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول أعلم الناس بالله أشدهم تعظيمًا لأهل لا إله إلا الله.

وكان بكر بن عبد الله المزني يقول: إذا رأيت من هو أكبر منك فعظمه وقل إنه سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح، وإذا رأيت من هو أصغر منك فعظمه وقل في نفسك إني

(١) سورة الكهف، الآية ٦٢.

(٢) سورة طه، الآية ٤٤.

قد سبقته إلى الذنوب، وإذا أكرمك الناس فقل هذا من فضل الله عليّ لا أستحقه وإذا أهانوك فقل هذا بذنب أحدثته وإذا رميت كلب جارك بحصاة فقد آذيته.

وكان وهب بن منبه يقول: لما أكثر بنو إسرائيل المسائل على موسى عليه الصلاة والسلام وأبرموه أوحى الله تعالى في يوم واحد إلى ألف نبي ليكونوا أعوانه له تكرمة لموسى، فمال الناس إليهم فوجد موسى من نفسه غيرة فأماتهم الله في يوم واحد، قلت: غيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام محمودة لخروجهم من حظ النفوس بالعصمة وليست إماتة الله تعالى لهؤلاء الأنبياء عقوبة، وإنما ذلك لما سبق في علمه تعالى من انتهاء آجالهم بعد معاونتهم موسى عليه الصلاة والسلام، وكان محمد بن واسع يقول: لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يحسن إلى كل من صحبه ولو ساعة، وكان إذا باع شاة يوصي بها المشتري ويقول: قد كان لها معنا صحبة.

وكان حاتم الأصم يقول: قد قلت أخلاق الرجال في ثلاث: تعظيم أخلاق الإخوان، وستر معايبهم، واحتمال أذاهم، وكان يحيى بن معاذ يقول: بئس القوم قوم إن استغنى بينهم المؤمن حمدوه وإن افتقر أذلوه، وما مشى صغير قدام كبير إلا عوقب بحرمان الخيرات، ومدحوا عند الفضيل بن عياض رجلاً وقالوا إنه لا يأكل الخبيص، فقال: وما ترك أكل الخبيص انظروا كيف صلته للرحم، انظروا كيف كظمه للغيظ، انظروا كيف عطفه على الجار والأرملة واليتيم، انظروا كيف حسن خلقه مع إخوانه.

وكان أحمد بن حرب يقول: مثل الذي يعلم الناس الخير ويرشدهم إليه مثل من استأجر أجراء يعملون له بأبدانهم وأموالهم الليل والنهار في حياته وبعد مماته، وسمع يحيى بن معاذ رجلاً يتمنى مالاً فقال له: ماذا تصنع به؟ فقال: أجود به على المقلين، فقال دع المقلين تكون مؤنتهم على الله لتصير تحبهم فإنهم إذا صارت مؤنتهم عليك أبغضتهم وثقلوا على قلبك، وكان يقول من تعظيم أخيك المسلم إذا مات له ميت في بلد آخرى أن تسافر إلى تعزيته، وقد خرج أبو معاوية الأسود من الشام إلى مكة ليعزي الفضل في ولده علي، ولم يخرج لحج ولا عمرة وكان أبو بكر الصديق ﷺ يقول: من سره أن يظله الله تعالى من نار جهنم يوم القيامة فليكن بالمؤمن رحيماً رفيق القلب.

وكان محمد بن المنكدر يقوم الليل، وإذا طلبت أمه أن يغمز رجلها إلى الصباح يرى ذلك أفضل من صلاته. قلت: وقد قالوا مثل ذلك في حق شيخ الإنسان، وكان كهمس بن

الحسن يقول: كنت أخدم أمي وأرفع القذر من تحتها فأرسل إلى سليمان بن علي بصرة وقال اشتر بها خادمًا يخدم أمك فأبيت، وقلت إن والدتي لم ترض غيرها لخدمتي وأنا صغير فكذلك لا أرضى غيري لخدمتها وأنا كبير، وكان مورق العلجي ﷺ يفلي رأس أمه ولا يدع أحدًا يفليها غيره، وكان الحسن البصري يقول في قوله تعالى:[فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ] [١]، قال: إذا بلغا سن الكبر وولي من قذرهما ما كان يليان من قذره في الصغر فلا يقل لهم اف ولا ينهرهما ولا يمسك بأنفه من رائحة قذرهما كما كانا لا يمسكان أنفهما من رائحة قذرة، وسيأتي في هذه الأخلاق بسط الأدب مع الوالدين في مواضع وأن من نادى أباه أو أمه باسمهما فقد عقهما إلا أن يقول يا أبي أو يا أماه وإن مشى بين يدي والديه فقد عقهما إلا إن كان يميط الأذى بين يديهما، كما قاله ابن محيريز ﷺ، فتأدب يا أخي مع جميع إخوانك المسلمين لا سيما الفقراء والمساكين، والحمد لله رب العالمين.

شدة الخوف من الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : شدة خوفهم من الله تعالى أن يختم لهم بسوء فيكونوا من المحجوبين عنه في النار، وكان أحدهم يأخذ في التفكر والحزن حتى يغيب عن الحاضرين، وكان الحسن البصري ﷺ إذا سمع بحديث [آخر من يخرج من النار رجل يخرج بعد ألف سنة] يقول الحسن البصري يا ليتني كنت ذلك الرجل، وقيل له يومًا في ذلك فقال: أليس يخرج من النار، وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: ما أمن أحد على دينه يعني غالبًا إلا سلبه.

وكان الإمام أبو حنيفة ﷺ يقول: أكثر ما يسلب من الناس الإيمان عند الموت، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: إذا صعدت الملائكة بروح المؤمن وقد مات على الإسلام تعجبت الملائكة منه، وقالوا كيف نجا هذا من الدنيا وقد هلك فيها خيارنا، وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول: تطلع روح العبد على ما كان الغالب عليه قبل موته، قال: وقد دخلت على محتضر فكنت كلما أقول لا إله إلا الله يحسب الدراهم.

وكان مطرف بن عبد الله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك؟ وإنما أعجب ممن نجا كيف نجا؟ وما من الله على عبد بنعمة أفضل من أن يميته على الإسلام، وكان

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

زيد بن أسلم يقول: لو كان الموت بيدي لأذقته نفسي وأنا محب للإسلام ولكنه ليس بيدي، وبكى سفيان الثوري مرة حتى غشي عليه، فقيل له علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زمانا ونحن الآن نبكي على الإسلام أي خوفاً أن يذهب منا، وكان يقول: ربما يعبد الرجل الأوثان وهو في علم الله سعيد، وربما يطيع وهو في علم الله شقي لحديث [إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها] الحديث، وهذا هو الذي أذهل العقول، وفي الحديث [أصدق المؤمنين إيمانا أكثرهم تفكراً في الدنيا، وأشد الناس فرحًا في الجنة أكثرهم بكاء في الدنيا].

وكان يحيى بن معاذ يقول: التفكر والاعتبار يخرجان من قلب المؤمن عجائب الحكمة فتسمع منه أقوالاً لا ترضاها الحكماء وتخضع لها رقاب العلماء وتعجب منه الفقهاء ويسارع إلى حفظها الأدباء، وكان سفيان الثوري يقول: خوف المؤمن وحزنه على قدر نور بصيرته.

وكان وجه محمد بن واسع كأنه وجه ثكلاء فقدت ولدها، وكان لا يراه أحد إلا زالت من قلبه القسوة. وكان يقول لا تصحب من الناس إلا من يفضلك برؤيته قبل كلامه، وكان وهيب بن الورد يقول أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام اغسل قلبك، فقال: يا رب الماء لا يصل إليه فكيف أغسله؟ فقال: اغسله بطول الهم والغم والحزن على ما فاتك مني وما يفوت، وكان إبراهيم بن أدهم يقول: إن الأسقام التي تصيب القلب أصلها من الذنوب، كما أن الأسقام في البدن تنشأ من الأمراض وقد جعل الله تعالى لكل داء دواء، فإذا اشتد حزن الرجل رجعت دموع عينيه إلى قلبه فانحلت بدنه، وقيل لإبراهيم ألا تخضب شيب لحيتك؟ فقال: الخضاب معدود من الزينة ونحن في مأتم وحزن ليلاً ونهاراً، وقالوا لبشر بن الحرث: ما لنا لم نزل نراك مهموماً فقال: لأني رجل مطلوب من الحاكم بالحقوق، وكان يقول كل حزن سوف ينقضي إلا حزن الذنوب فإنه يتجدد مع الأنفاس.

وكان حاتم الأصم يقول في قوله تعالى: [أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ] (١)، إنما يقال ذلك لمن طال خوفه وحزنه في الدنيا، وأما من أذنب وبطر ولم يندم فلا يقال له شيء من ذلك، وكان معاذ بن جبل يقول: لا ينبغي لعبد أن يظهر الفرح حتى يجاوز جسر جهنم -يعني الصراط-.

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٠.

وكان علي بن أبي طالب ﷺ يبكي ويقول: تستريح البهائم والطيور والحيتان وأنا مرتهن بعملي، وكان صالح بن عبد الجليل ﷺ يجمع عياله وأهله في كل يوم عيد ويجلسون فيبكون فقيل له ذلك، فقال: إني عبد أمرني الله تعالى بطاعته ونهاني عن معصيته فلا أدري هل وفيت بهما أم لا، وإنما يليق الفرح والسرور يوم العيد لمن كان آمنا من عذاب الله، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: [ما أتاني جبريل عليه السلام إلا وهو خائف يرعد من هيبة الله تعالى].

وكان وهب بن منبه يقول: إنما اتخذ الله إبراهيم خليلا لكونه كان شديد الخوف منه، وكانوا يسمعون خفقان قلبه من مسير ميل، وكان موسى بن مسعود يقول: كنا إذا جلسنا عند سفيان الثوري فكأنما نار احاطت بنا لما نرى عليه من شدة الخوف والجزع، . وكان الفضيل بن عياض يقول: إن لله عبادًا إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم في بطونهم ثم تندمل ثم تتقطع ثم تندمل ثم تتقطع ثم تندمل أبدًا ما عاشوا، وكان يقول: خوف العبد من الله على قدر معرفته به.

وكان إبراهيم بن الحرث لا يرفع طرفه إلى السماء أبدًا خوفًا وحياء من الله تعالى من حيث أن السماء قبلة الدعاء، وقالوا: وكان الخوف كثيرًا ما يغلب على سفيان الثوري ومالك بن دينار والفضيل بن عياض فيخرجون على وجوههم لا يدرون أين يذهبون، وكان عمران بن حصين يقول: والله إني لأود أن أصير رمادًا تنسفني الريح في يوم عاصف، وكان إسحاق بن خلف يقول: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح دموعه، وإنما الخائف من ترك فعل الأمور التي يخاف أن يعذبه الله عليها، وكان الحسن البصري يقول: قرأت قول الله تعالى: [كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ] [1]، وصرت أردها فإذا بهاتف يهتف ويقول كم تردد هذه الآية وقد قتلت أربعة آلاف من الجن لما سمعوها، فلم يرفعوا طرفهم إلى السماء حتى ماتوا.

(ووقف الفضيل بن عياض) في يوم عرفة قابضًا على لحيته ويبكي من الزوال إلى غروب الشمس وهو يقول: واسوأتاه وإن غفرت لي، وكان حماد بن زيد لا يجلس قط إلا مستوفزًا فقيل له في ذلك، فقال: إنما يجلس مطمئنًا من كان آمنًا من عذاب الله وأنا غير آمن من نزوله علي ليلا ونهارًا، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: لولا الغفلة لمات الخلق كلهم من خشية الله عز وجل.

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨٥.

وكان مالك بن دينار يقول: والله لقد هممت أن أوصي أهلي إذا أنا مت أن يقيدوني ويغلوني ويدخلوني في القبر كذلك كما يفعل بالعبد المجرم الآبق من سيده، كيف يمني أحدكم نفسه بدخول الجنة والتنعم بالحور والقصور وهو مستوجب للسعير والثبور، وكان الفضيل بن عياض يقول: والله إني لا أغبط نبيًا مرسلاً ولا ملكًا مقربًا لأن كل هؤلاء يشاهدون أهوال يوم القيامة، وإنما أغبط من لم يخلق بعد، وتقدم قول سفيان بن عيينة ينبغي للعبد أن يكون عند الله من أجل عبيده، وعند نفسه من أشر العبيد وعند الخلق من وسطهم.

وكان فرقد السنجي يقول: دخل بيت المقدس خمسمائة بكر نغص عليهن بعض الأحبار شيئًا من أمور الآخرة فمتن جميعًا في ساعة واحدة وكان لباسهن المسوح، وكان عطاء السلمي ﷺ يقول: اللهم إني أسألك العفو والصفح ولا يتجرأ قط أن يقول اللهم أدخلني الجنة، قال فرقد السنجي: ودخلنا مرة على عطاء السلمي فوجدناه قد وضع خده على الأرض في الشمس فنظرنا إليه فإذا مجرى دموعه في خديه قد انسلخ من البكاء، ورأينا ما تحت خده من الأرض قد صار طينًا ووحلاً، وكان كثيرًا ما يتلقى دموعه بيديه ويرشها حوله حتى يظن الداخل أن ذلك ماء الوضوء.

وبلغنا أنه مكث لم يرفع طرفه إلى السماء أربعين سنة فرفع طرفه يوم غفلة ووقع على بطنه فانفتق في بطنه فتق فلم يزل مريضًا به إلى أن مات، وكان إذا أصاب أهل بلده بلاء يقول هذا بذنوب عطاء لو أنه خرج من بلادهم لما نزل عليهم بلاء، وكان غالب الميل يمس جلده مخافة أن يكون قد مسخ، وكان يقول خرجنا مرة مع عتبة الغلام فمررت على مكان فسقط مغشيا عليه، فلما أفاق قال هذا مكان عصيت الله فيه وأنا دون البلوغ، وكان ذلك بعد أن صلى الصبح بوضوء العشاء نحو أربعين سنة هو وأصحابه حتى نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم حتى صارت كأنها قشور البطيخ الهندي.

وسيأتي في هذا الكتاب زيادة على ذلك وأنه كان يغشى على أحدهم من البكاء وبعضهم يبكي بكاء الميت إلى أن مات رحمه الله، والحمد لله رب العالمين.

قيام الليل

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): مواظبتهم على قيام الليل صيفًا وشتاء ورؤيتهم تأكده عليهم كأنه فرض حتى قالوا: كل فقير نام في الليل من غير غلبة فلا يجيء منه شيء في الطريق وقد أغفل هذا الخلق كثير من الفقراء فينامون في الليل على طراريح كما ينام العامة وأبناء الدنيا وبعضهم يدخل كل يوم الحمام فلا يخرج منه حتى تطلع الشمس من غير ضرورة بل ترفهًا، وما أقبح الشيخ وهو ذاهب إلى الحمام كل يوم بكرة النهار والعامة المريدون يرونه وكان آخر من أدركت من فرسان الليل الشيخ محمد بن عنان كان ورده كل ليلة خمسمائة ركعة وهي ورد المهدي على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام. وكان الشيخ الصالح ذو الأحوال والكرامات الشيخ فرج بناحية شان شلمون بالشرقية يجيء لسيدي محمد هذا ويقول له: أهلاً براعي الصهيب لأجل كونه كان مواظبًا على قيام الليل. وكان لا يتهجد ليالي الشتاء إلا فوق السطح ﷺ، وفي الحديث [عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة إلى ربكم وتكفير لخطاياكم ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد].

وقالت أم سليمان بن داود: يا بني لا تنم الليل فإن من نام الليل جاء يوم القيامة وهو مفلس من الحسنات، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني. وفي الحديث [إن الله تعالى يباهي ملائكته بالعبد إذا قام يتهجد من الليل في الليلة الباردة ويقول انظروا إلى عبدي خرج من تحت لحافه وترك الدنيا وامرأته الحسنى يناجيني بكلامي أشهدكم أني قد غفرت له].

قال نافع: وكان عبد الله بن عمر يقوم من الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فيقول له لا فيقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أسحرنا؟ فيقول نعم، فيقعد فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر. وكان الإمام زين العابدين ﷺ يقول: نام يحيى بن زكريا عليهما السلام ليلة عن ورده، وكان قد شبع من خبز الشعير فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى لو اطلعت على جنة الفردوس إطلاعة لذاب جسمك ولبكيت الصديد بعد الدموع وللبست الحديد بعد المسوح، وكان عمر بن الخطاب ﷺ ربما تمر عليه الآية في ورده من الليل فيسقط مغشيًا عليه حتى يصير يعاد أيامًا كما يعاد المريض، وكان ﷺ أيام خلافته لا ينام ليلاً ولا نهارًا وإنما هي خفقات برأسه وهو جالس وكان يقول: إذا نمت في الليل ضيعت نفسي وإن نمت في النهار ضيعت رعيتي وأنا مسئول عنهم.

وكان عبد الله بن مسعود يقوم للتهجد إذا هدأت العيون، فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح، وكان سفيان الثوري إذا غفل عن نفسه فأكل كثيرًا يقوم الليلة كلها ويقول: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في تعبه في بقية الأحمال الشاقة.

وكان طاوس رحمه الله يفرش فراشه من العشاء ويصير يتقلب عليه ويئن إلى الصباح لا ينام، وكثيرًا ما كان يقوم من العشاء إلى الفجر شاخصًا وكثيرًا ما يمكث جالسًا مطرقًا إلى الفجر لا يتكلم وكان يقول: إن خوف جهنم أطار النوم نوم العابدين، وكان السلف الصالح ﷺ يعرفون وجه من نام عن قيام الليل ويقولون: ما رأيناك في الحضرة الإلهية وقد حضر فلان وفلان وفرقوا عليهم التحف، وكان يعيب بعضهم على بعض النوم على فراش وطئ له وكان بعضهم قعد على فراش حين قدم من سفر فنام عن ورده تلك الليلة فحلف أن لا ينام على فراش حتى يموت.

وكان عبد العزيز بن أبي داود يفرش له الفراش فيضع يده عليه ويقول ما ألينك ولكن فراش الجنة ألين منك ثم يقوم إلى صلاته فلا يزال يصلي إلى الفجر، وكان الفضيل بن عياض يقول: إني لأقوم الليلة فيطلع الفجر فيرجف قلبي وأقول جاء النهار بما فيه من الآفات، وكان بشر الحافي وأبو حنيفة ويزيد الرقاشي ومالك بن دينار وسفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم يقومون الليل كل على الدوام إلى أن ماتوا، وقالوا مرة لبشر الحافي ألا تستريح لك في الليل ساعة، فقال: إن رسول الله ﷺ قد قام حتى تورمت قدماه وقطر منهما الدم مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف أنام وأنا لم أعلم أن الله غفر لي ذنبًا واحدًا.

وكان الحسن البصري يقول: ما ترك أحد قيام ليلة إلا بذنب أذنبه تفقدوا نفوسكم كل ليلة عند الغروب وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل، وكان كثيرًا ما يقول إنما يثقل قيام الليل على من أثقلته الخطايا، وكان أبو الأحوص يقول: أدركنا العلماء والعباد وهم لا ينامون الليل وكنت إذا طفت بدار أو بمسجد في الليل سمعت فيه دويًا كدوي النحل، فما بال هؤلاء أهل زماننا يأمنون مما كان أولئك يخافون منه، وكان صلة بن أشيم ﷺ يصف قدميه للصلاة من العشاء إلى الفجر ثم يقول إذا فرغ من صلاته يا رب أجرني من النار فإن مثلي لا ينبغي له سؤال الجنة.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء، فقال له: لا

تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف والعاصي لا يستحق ذلك الشرف، وكان عتبة الغلام يقول إذا توضأ من الليل قبل أن ينتصب للصلاة اللهم إني قد حملت نفسي ما لا أطيق من المعاصي والقبائح حتى استحقيت الخسف والمسخ ودخول النار وها أنا أريد أن أقف بين يديك خلف كل عارض على وجه الأرض رجاء أن تغفر لأحد منهم فيصيبني شيء من المغفرة، وكان الحسن بن صالح يقوم الليل هو وجاريته فباعها لقوم فلما صلت العشاء افتتحت الصلاة فمازالت تصلي إلى الفجر وكانت تقول لأهل الدار كل ساعة تمضي من الليل قوموا يا أهل الدار، قوموا يا أهل الدار صلوا، فقالوا لها نحن لا نقوم إلا الفجر، فجاءت إلى الحسن بن صالح وقالت بعتني لقوم ينامون الليل كله وأخاف أن أكسل من شهود نومهم فردها الحسن إليه رحمة بها ووفاء بحقها.

وكانت رابعة العدوية تتوضأ كل ليلة وتتطيب وتقول لزوجها ألك حاجة؟ فإن قال لا قامت إلى الصباح. وكانت تقول أول الليل إلهي نامت العيون وغارت النجوم وأغلقت ملوك الدنيا أبوابها، وبابك لا يغلق فاغفر لي ثم تصف قدميها للصلاة وتقول وعزتك وجلالك هذا موقفي بين يديك إلى الصباح ما عشت، وكان سفيان الثوري يقول: عليكم بقلة الأكل تملكوا قيام الليل.

وكان ثابت البناني يصلي الليل كله ويقول لأهله: قوموا فصلوا فإن قيام الليل أهون من مكابدة أهوال يوم القيامة، وكان أبو الجويرية يقول: صحبت الإمام أبا حنيفة لا أفارقه ستة أشهر فما رأيته وضع جنبه إلى الأرض في ليلة منها، قالوا: ولم يكن لأبي حنيفة فراش في الليل، وكان سفيان الثوري يقول ما رأيت أعبد من أبي حنيفة ولا أزهد ولا أورع منه، وكان الفضيل بن عياض يقول: بلغنا أن الله تعالى يقول حين يتجلى من الليل أين المدعون لمحبتي في النهار أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه فها أنا الآن مطلع على أحبائي يكلموني على الحضور ويخاطبوني على المشاهدة وغداً أقر أعينهم في جنتي.

وكان المغيرة بن حبيب يقول: رمقت عيناي ليلة مالك بن دينار وقد انتصب بين يدي الله تعالى من العشاء قابضاً على لحيته فمازال يبكي ويقول يا رب ارحم شيبة مالك إلى أن طلع الفجر، قال: ورمقت عبد الواحد بن زيد شهراً فرأيته لا ينام من الليل شيئاً، وكان يقول لأهل الدار كل ساعة مضت من الليل يا أهل الدار انتبهوا فما هذه دار نوم عن قريب يأكلكم الدود.

وكان صهيب العابد رقيقًا لامرأة بالبصرة وكان يقوم الليل كله فقالت له سيدته يومًا: إن طول القيام بالليل يضرك بخدمتك بالنهار، فقال لها: ماذا أصنع وإذا ذكرت جهنم طار نومي، وكان أزهر بن مغيث ﷺ يقول: رأيت ليلة حوراء من أجمل النساء، فقلت لها من أنت؟ فقالت: لمن يقوم الليل في ليالي الشتاء، وكان العلاء بن زياد يقوم الليل كله فقالت له امرأته ألا تستريح لك لحظة؟ فأطاعها فأتاه آت في منامه وأخذ بمقدم شعر رأسه وقال: قم فصل ولا تضع حظك من عبادة ربك فقام فوجد تلك الشعرات واقفة فلم تزل واقفة حتى مات، ونام إبراهيم بن أدهم ليلة في بيت المقدس فسمع صوتًا من جانب الصخرة يقول: قيام الليل يطفئ لهب النار ويثبت الأقدام على الصراط فلا تتساهل في قيام الليل فما تركه بعد ذلك حتى مات.

فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.



الباب الثانى

في جملة أخرى من الأخلاق

شدة هضم النفوس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة هضمهم لنفوسهم بحيث يصير أحدهم يتبرك بتلميذه ويحمله الحملة ولا ينظر إلى كونه أعلم من مريده أو أكثر عملاً منه بطريقه الشرعي إذا كان لا يخشى عليه فتنة بذلك، وقد بلغنا أن الإمام الشافعي ﷺ لما أرسل قاصده للإمام أحمد بن حنبل بأنه سيقع في محنة عظيمة ويخلص منها سالمًا -يعني مسألة هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق- فلما أخبره القاصد نزع الإمام أحمد له قميصه سرورًا بقدوم رسول الشافعي، فلما رجع الرسول بالقميص وأخبر الشافعي به قال له: هل كان هذا القميص على جسده من غير حائل، قال: نعم، قال: فقبله الإمام الشافعي ووضعه على عينيه ثم صب عليه الماء في إناء وعركه فيه ثم عصره ووضع غسالته عنده في قارورة فكان من مرض من أصحابه يرسل له شيئًا من تلك الغسالة فإذا مسح به جسده عوفي من مرضه لوقته.

فانظر يا أخي تواضع الإمام الشافعي مع الإمام أحمد مع كونه من تلامذته وهذا يدلك على أن القوم مع كثرة أعمالهم الصالحة كانوا رضي الله عنهم لا يرون نفوسهم على أحد من المسلمين. عكس ما عليه المتمشيخون في هذا الزمان وكان آخر من أدركته يعتقد في تلميذه ويتبرك به ويرسل له الأرمد والمريض ليرقيه الشيخ محمد بن عنان محمد السروي رحمهما الله تعالى فكان الشيخ محمد بن عنان يرسل من يريد الدعاء لمريضه إلى الشيخ الحريثي رحمه الله، وكان الشيخ محمد السروي يرسله إلى الشيخ علي الحديدي رحمه الله مع أن الشيخ يوسف والشيخ علي المذكورين من تلامذة هذين الشيخين فرضي الله تعالى عن الصادقين. فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ذكر الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الغيرة على ذكر الله تعالى أن يذكره أحد وهو غافل. وذلك كقصد الوالدة بالذكر تنويم ولدها إذا سهرت به الليل فإن ذكر الله يجل عن مثل ذلك، وقد قال بعض الصالحين يومًا لمريض قل يا لطيف وهو غافل عن كونه بين يدي الله تعالى فعاتبه ربه عز وجل على ذلك في المنام وقال له: قد جعلت ذكر اسمي لعبًا ولهوًا انتهى. فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

الانقياد

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أن يكون أحدهم هينًا لينًا ينقاد للصغير كما ينقاد الجمل، وفي الحديث الذي فيه تسوية الصفوف [لينوا في يد إخوانكم] وفي القرآن العظيم [وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ] [1]، إذا علمت ذلك فاعلم أن من جملة لين الفقراء أن أحدهم إذا دخل على جماعة يذكرون الله تعالى كذكر الأعاجم أو المغاربة أو الشناوية أو المطاوعة أو الرفاعية مثلاً أن يذكر معهم كهيئتهم في الصورة بطريقه الشرعي، وكذلك يوافقهم في ذكرهم الذي لقنوه حين دخلوا في الطريق من نفي أو إثبات ولا يقول أن هذه الكيفية ليست طريقة شيخنا كما يقع ذلك في كثير من الناس فيفوتهم الأجر مع وقوعهم في الجفاء وغلظ الطبع فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

الجـــوع

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة الجوع بطريقه الشرعي وإن لم يجدوا شيئًا حلالاً يأكلونه طووا الأيام والليالي وقد جربوا فوجدوا النور كله والخير في خلو الباطن حتى قالوا في المثل السائر في الطبل إنما كان صوته قويًا جهوريًا لكونه خالي الجوف، وقد قالوا: ينبغي للعالم أن لا يشبع قط لا سيما أيام التأليف وذلك لئلا يحجب عن كمال الفهم في القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، وذلك لأن فهم الشبعان يكون ضعيفًا ومن شك فليجرب وقد أدركنا جماعة كثيرة من الفقراء كانوا رضي الله عنهم على قدم الصدق في الجوع حتى كان أحدهم لا يدخل الخلاء إلا كل سبعة أيام مرة حياء من الله تعالى أن يكثر تردده للخلاء وهو مكشوف العورة.

وقد انتهى أمر سيدي الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله تعالى إلى أن صار يتوضأ في كل اثنى عشر يومًا مرة، وقد كان سيدي علي الشهاوي المشهور بالذويب رحمه الله تعالى يأمر كل من لقيه بالجوع ويقول إنه سلاح المؤمن وصاحب الجوع إن لم يطع الله لم يعصه لعدم وجود داعية تدعوه إلى المعاصي، وممن صام الدهر كله أخي الشيخ عمر النبتيتي المكشوف الرأس وولد عمه الشيخ عبد القادر المكشوف الرأس أيضًا، وصار كل منهما في غاية النورانية وعلو الهمة رحمهما الله تعالى.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

فاتبع يا أخي سلفك في ذلك ولا تأكل إلا بعد جوع شديد وهو أن تشتعل أمعاؤك وتصير تلذعك لعدم وجود طبيعة تشتغل بطبخها، فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

التعليم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إذا علموا بالقرائن عدم إخلاص من يتعلم منهم العلم أن يدوموا على تعليمه، ولكن يتوجهوا إلى الله تعالى في الدعاء له بإصلاح النية فيؤجرون هم وإياه ولا يتركون تعليمه، فإن ذلك بمراد الشارع وذلك لأن العلم يحمل لأمرين: للعمل به، ولإحياء الشريعة به فصاحبه مأجور على كل حال، أما أجرًا كاملاً أو أجرًا ناقصًا، وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما من حامل علم إلا وهو يعمل به ولو في حق نفسه إذا ارتكب المعاصي لأنه يتوب ويندم إذا وقع فيها، فلولا علمه بالحكم ما اهتدى لكون ذلك ذنبًا ولا تاب منه فقد عمل هذا بعلمه من تلك الحيثية، وإن كان من ارتكب المعاصي لم يعمل بعلمه على مصطلح الناس فافهم فالعلم نافع لصاحبه على كل حال، ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله في كل عصر، والحمد لله رب العالمين.

العزم على العمل

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عزمهم على العمل بعمل كل عالم رأوه ولا يعتني بالعمل بما علم فيعملون بعلمه، ثم يجعلون ثواب ذلك في صحائف هذا العالم ويطلبون أجرهم من الله تعالى من باب المنة والفضل كما أنهم إذا قرءوا في علم من العلوم يجعلون ثواب ذلك للمؤلف ولا يزاحمونه في ذلك لأن ثواب كل قول لقائله فافهم ولكن هذا الأمر لا يتحقق به إلا من كان أشفق على المؤمنين من أنفسهم بحكم الإرث لرسول الله ﷺ كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب [المنن الكبرى] والحمد لله رب العالمين.

المخالطة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): مخالطتهم لمن كان عدوًا لهم في السر ويدعي محبتهم ظاهرًا وإيهامهم أن أحدهم صدقه في دعواه المحبة له، ولم يلحق لما عنده من عدم الصدق ولا يكذبونه قط في دعواه، وكذلك لا يمتنع قط من تقريبه إذا طلب منه القرب

فإن ذلك يزيده عداوة وتعظيماً للفتنة لكن يحتاج هذا المخالط للعدو إلى حفظ جوارحه من سائر المخالفات لأن العدو ربما كان قصده من المخالطة إطلاعه على عورة أخيه ليصير يهجوه بذلك في المجالس أيام ظهور عداوته له كما هو واقع كثيراً، فليكن المخالط لعدوه على حذر ولا يخالط إلا من يعتقد فيه الصداقة والمحبة فإن البعد من العدو أولى لكل من لم يكن عنده كمال سياسة وكثرة دين فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

محاسن الناس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): رؤية محاسن الناس والتعامي عن مساوئهم حتى أن أحدهم لا يكاد يرى في أخيه المسلم عيباً يهجوه به أبداً ويصير الناس كلهم عنده صالحين، فعلم أن الصالحين لا يعادون أحداً لحظ نفس وإنما الناس هم الذين يعادونهم حسداً وعدواناً فإن قيل إن صاحب هذا المقام يقل نفعه لأصحابه من حيث عدم النصح والتحذير من المنكر فيصير هذا مرتكباً للمعاصي على الدوام ولا يهتدي لتحذيره عنها لعدم شهودها فيه إذا حمله على المحامل الحسنة فالجواب أنه يهتدي للتحذير بالإلهام الصحيح بواسطة رابطته به أو بقياسه على نفسه ويقول كما إني أرتكب للمعاصي مثلاً فكذلك أخي قد لا يخلو منها فإن ما جاز في حقي جاز في حق غيري ومعلوم عند القوم إن ذكرهم نقائص إخوانهم لا يكون إلا على وجه التحذير دون التشفي لبراءتهم عن مثل هذا الفعل لأن الكامل يكني عند القوم أبا العيون فلكل شيء عنده عين تراه بها فيشهد سلامة أخيه من النقائص كالرياء والنفاق ونحوهما بعين ويحتاط له كاحتياط من يتهمه بالنقائص فعلاً أو تقديراً بالعين الأخرى ويحذره منها بالعين الأخرى والله أعلم.

الشكر لله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة شكرهم لله تعالى إذا كثر حسادهم وأعداؤهم ثم كثرة استغفارهم بعد ذلك فيشكرون الله تعالى على تلك النعمة التي حسدهم الناس عليها ويستغفرونه عز وجل من حيث أنه لولا وجودهم ووجود النعمة التي عليهم ما وقع أحد في حسدهم المحرم فاستغفارهم المذكور إنما هو تورع من حيث اللازم للنعمة، وإلا فوجود النعمة ليس بيدهم ويسمى هذا استغفار الأكابر وكذلك كثرة استغفارهم لمن يحسدهم ورحمتهم له وشفقتهم عليه لكونه أهلك دينه بكثرة حسده لهم

فيقول أحدهم اللهم اغفر لحاسدينا فإنهم لما عندهم من الضيق لا يحتملون رؤية النعم التي علينا دونهم ولو اتسعت نفوسهم لم يقعوا في حسدنا وهذا الخلق لا يكاد يتخلق به إلا قليل من الناس بل غالبهم يتمنى لحاسده كل سوء والله أعلم.

الإنصاف

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إنصافهم لكل من سعى لهم عند الأكابر والأمراء في تحصيل رزقه أو حوالي أو هدية ونحو ذلك فيقاسمونه بالنصف أو الربع بقدر ما يرونه يرضيه لا سيما إن وصف أحدهم بالصلاح والزهد والورع حتى أعطوه ما أعطوه فإن ذلك من باب النصب والتلبيس، فلا ينبغي للشيخ أن يشح عليه بما يطلبه من ذلك لأنه معدود من كسب ذلك الناصب حقيقة فالأولى له عدم أخذ شيء منه مطلقًا إلا بطريق شرعي.

وقد كثر النصب في أهل هذا الزمان فصار أحدهم يوقف النقيب مثلاً ينصب له عند الأمراء أو مشايخ العرب ثم إذا أتاه به يختص به ولا يعطي النقيب الذي نصب وتعب شيئًا وذلك حيف عظيم، وقد رأيت بعضهم رفع الشيخ إلى الحاكم وذكر فيه العجر والبجر حتى قال القاضي وجماعته للشيخ إنك يا رجل طماع عظيم.

فإياك يا أخي أن تظن في مشايخ العصور المتقدمة إنهم كانوا كذلك فتسيء بهم الظن بل كانوا على جانب عظيم من الزهد والورع فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

العمل بالسنة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عملهم بالسنة إذا خطبوا امرأة فيرون منها الوجه والكفين، قال بعضهم، ويكون ذلك بغير شهوة لأنها ليست بمحل الاستمتاع بها الآن ولكن الجمهور على خلافه لأذن الشارع له في النظر، ولا يتعلل أحدهم بالحياء فإن في ترك النظر مفاسد وحصول شرور إذا لم تعجبه، ثم إذا رأى أحدهم المخطوبة لا يرى منها إلا بقدر الحاجة فإن علم من نفسه الطغيان فلينظر دون القدر المأذون فيه ويفوض أمره إلى الله تعالى أو يأذن لامرأة يثق بها تنظرها له بحكم النيابة فعلم أن من ترك النظر وتعلل بالحياء فهو جاهل بالسنة جافي الطبع وإن حياءه الذي تعلل به طبيعي لا شرعي، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الأدب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة أدبهم مع من علمهم سورة أو آية من القرآن وهم أطفال فلم يزل أحدهم يتأدب مع من علمه السورة أو الآية أو الباب من العلم حتى إنه لا يقدر يمر عليه راكبًا ولا يتزوج له مطلقة ولو صار من مشايخ الإسلام أو من مشايخ الطريق، ومن جملة أدبهم معه أيضًا افتقاده بالهدايا والكسوة له ولعياله ومن يلوذ به إكرامًا له.

وكذلك من أخلاقهم عدم البخل على الفقيه الذي يعلم أطفالهم القرآن، ولا يستكثرون عليه شيئًا يعطونه له من الدنيا، وقد حكي عن ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة رحمه الله تعالى أن أعطى فقيه ولده لما علمه حزبًا من القرآن مائة دينار، فقال له الفقيه: أنا يا سيدي ما عملت شيئًا أستحق به هذا كله، قال: فحول الشيخ ولده من عنده إلى فقيه آخر، وقال هذا رجل مستهين بالقرآن.

(قلت): وقد عملت أنا بهذا الخلق بحمد الله تعالى مع فقيهي الشيخ حسن الحلبي رحمه الله تعالى فكنت أكسوه مع أولاده إلى أن مات، ولم أر أنني قمت بواجب حقه رحمه الله تعالى، وقد كنت مارًا يومًا مع الشيخ شمس الدين الدمياطي رحمه الله تعالى في سنة ثمان عشر وتسعمائة فرأى الشيخ رجلاً أعمى تقوده ابنته فنزل الشيخ من على دابته وقبل يده وماشاه طويلاً فلما رجع سألته عنه، فقال: هذا رجل قرأت عليه وأنا صبي شيئًا من القرآن فلا أقدر أمر عليه وأنا راكب، مع أن الشيخ شمس الدين المذكور كان قد أعطى من الجاه والاعتقاد والعلم والصلاح عند الملوك فمن دونهم ما لم نر أحدًا أعطى مثله من أقرانه حتى أني رأيته بين القصرين يومًا والناس يزدحمون عليه لتقبيل يديه، ومن لم يصل إليه نشر ردائه وحذفه عليه حتى يصيب من ثياب الشيخ ثم يصير يقبل ذلك الرداء كما يفعل الناس ذلك بكسوة الكعبة حين تمر عليهم بالقاهرة، فرضي الله تعالى عن أهل الأدب، فاعلم ذلك واقتد بهم والحمد لله رب العالمين.

النوافل

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم شهودهم في نفوسهم أن لهم نوافل من العبادات ولو قاموا حتى تورمت أقدامهم، وإنما يرون ذلك كالجابر لبعض النقص الحاصل

في فرائضهم، إذ النوافل حقيقة إنما تكون لمن كملت فرائضه كما أشار قوله سبحانه وتعالى : [وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ] [1]، فذكر الله تعالى إنها نافلة له لكمال الخصائص وغيره أيضًا وإن قدر أن أحدًا من الأولياء أتى بعباداته على الكمال فذاك بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، وقد رأيت في كلام بعض العلماء أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا تعرض على الله تعالى صلاة أحد إلا بعد تكملتها له من نوافله أدبًا مع الله تعالى، وقد فعل جماعة الملوك مثل ذلك فيمن كان ببدنه عاهة مثلاً فلا يعرضونه على السلطان أبدًا صيانة له أن يقع بصره على ناقص، وإن حدث ذلك في وزير أو دفتردار أو نحوهما عزلوه واستنابوا غيره وما جعله الناس أدبًا مع الملوك فهو أدب مع الله تعالى، فإن الشرع قد يتبع العرف في كثير من المسائل كما هو معلوم، فاعلم ذلك واقتد بهم، والحمد لله رب العالمين.

الهدية

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم استشراف نفوسهم إلى هدية أحد جاء من الحجاز أو من الشام مثلاً، فلا يحدث أحدهم نفسه بأن فلانًا سيهدي إلي شاشًا أو مداسًا أو فاكهة أو نحو ذلك أبد بل هم غافلون عن مثل ذلك، وكذلك إذا أهدوا هم إلى أحد جاء من السفر المذكور شيئًا ابتداء لا تحدثهم أنفسهم بأنه سيكافئهم على ذلك بل هم غافلون عن ذلك بالكلية وليس ذلك من باب سوء الظن بأخيهم إنما هو من باب ترك الطمع فهو وإن لزم من ظنهم بأخيهم إنه لا يكافئهم سوء الظن فليس ذلك مقصودًا لهم ولا يؤاخذ الشخص إلا بما قصده.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى إذا سمع أحدًا يذكر أشعب الطماع وإنه كان يفتش على الدخان يترحم عليه ويقول: إنه كان حسن الظن بجيرانه فجزاه الله تعالى خيرًا يعني إنه محمود في ظنه الخير بالجيران وإن لزم منه الطمع، فافهم واعلم أنه ينبغي لك إذا أرسلت هدية وعلمت من أخيك المكافأة عليها لما هو عليه من المعروف أن تخبره بذلك على لسان القاصد وتقول له قل لأخي فلان إن هذا أمر لا يستحق مكافأة عليك وقد أقسم عليك أخوك بعدم المكافأة فيه جبرًا لخاطره وذلك لأجل أن يستريح من تعب المكافأة ولو لحظة.

وقد أرسلت مرة لأخي الشيخ شمس الدين البرهمتوشي رحمه الله تعالى هدية قليلة،

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٩.

فأرسل إلي أضعافها فعلمت بذلك كبر مروءته لكن لا يخفى أن البداءة بالهدية مطلوبة شرعًا لا سيما لمن بينهما عداوة في السر لخبر[تهادوا وتحابوا] وخبر [الهدية تذهب وحر الصدر] أي غشه وشؤمه فابدأ بالهدية يا أخي بطريقه الشرعي، واحذر من استشراف نفسك إلى هدية ممن جاء من سفر أو إلى مكافأة ممن اهديت انت إليه، ومتى خالفت ذلك فقد خرجت عن طريق سلفك فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

العزومة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أن يشددوا في العزومة على الضيف فإنه لا يأكل بعد ذلك إلا رزقه الذي قسمه الله له، وقد كان الشيخ عبد الحليم بن مصلح رحمه الله تعالى يحلف على الضيف أنه لا يأكل عند أحد غيره مادام في بلده، فكان الضيف بعد ذلك لا يأتيه إلا نادرًا وقد قلت له مرة في ذلك، فقال لي: قد استفدنا في التشديد على العزومة بياض الوجه ولم يأكل إلا ما قسم له، ولو اني لم أشدد في العزومة لربما أكل عندي على رغم أنفي وأكون مذمومًا عنده وعند الله وعند الخلق، وقد فعلت أنا بذلك مع أولاد سيدي الشيخ محمد الشناوي وأولاد الشيخ عبد الرزاق البخاري رحمهما الله تعالى لما أقاموا عندي مرة نحو ثلاثة أشهر فكنت اغضب منهم إذا أكلوا عند غيري، وكان يحصل لهم بذلك انشراح قلب ويزول ما كانوا يتوهمونه من حصول ثقل عندي أو حصول ثقل منهم، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

شدة الورع

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة ورعهم في أمر الطعام والشراب حتى ان أحدهم كان لا يأكل إلا بعد أن يرى سبعة أيد قد تداولت على ذلك الطعام أو ثلاثة أيد في الحل فإن لم يجدوا ذلك طووا حتى يجدوا حلالا يناسبهم، وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى من آخر من رأيته من المتورعين فكان لا يأكل من طعام إلا إن تداولت عليه سبعة أيد في الحل، وكان ان لم يجد طعامًا على هذا الحكم طوى الأيام المتوالية حتى تأكل الأمعاء بعضها ويخاف على عقله ودينه فهناك يأكل كالمضطر، وكان رحمه الله تعالى يعرف تداول تلك الأيدي من طريق الكشف وقد من الله تعالى علي باقتفاء أثره لكن بتداول ثلاثة أيد فقط ثم ان حصل عندي شك في ذلك تقيأته وتارة يطلع هو نفسه، فالحمد لله رب العالمين.

التفقد للنفوس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تفقد نفوسهم كل ساعة ليخرجوا منها صفات المنافقين ويدخلوا فيها صفات المؤمنين لأنها عكسها فمن جملة صفات المؤمنين ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز بقوله عز وجل: [ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ] إلى آخر الآية، ومنها قوله تعالى: [قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ] (1) الخ، ونحوهما من الآيات وفي الحديث [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه] وفي حديث آخر [لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله، قال: غشه وظلمه] وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يتول إذا رأيتموني زغت عن الطريق فقوموني وانصحوني فإن المؤمن لا يكون إلا ناصحًا لأخيه، وقد جمع يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى جملة من صفات المؤمن في بعض رسائله فقال: أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الخير قليل الفساد صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول كثير البر للرحم وصولا ووقورًا شكورًا كثير الرضا عن الله إذا ضيق عليه الرزق حليمًا رفيقًا بإخوانه عفيفًا شفوقًا لا لعانًا ولا سبابًا ولا عيابًا ولا مغتابًا ولا نمامًا ولا عجولا ولا حسودا ولا حقودا ولا متكبرا ولا معجبًا ولا راغبًا في الدنيا ولا طويل الأمل ولا كثير النوم والغفلة ولا مرائيًا ولا منافقًا ولا بخيلاً هشاشًا بشاشًا لا خساسًا ولا جساسًا، يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب لله زاده تقواه وهمته عقباه وجليسه ذكراه وحبيبه مولاه وسعيه لأخراه، وذكر نحو ثلاثمائة وصف.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لو نبت للمنافقين أذناب ما وجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها -يعني لكثرتهم- وكان حذيفة ﷺ يقول: كان الرجل يتكلم بالكلمة الواحدة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقًا وإني لأسمعها من أحدكم في المجلس الواحد عشر مرات وهو لا ينتبه لها، وفي الحديث [المنافق همته في الطعام والشراب والمؤمن همته في الصيام والصلاة] وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: قوة المؤمن في قلبه وقوة الكافر والمنافق في يده.

وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: من علامة المؤمن أن يفعل الطاعات ومع ذلك يبكي ومن علامة المنافق أن ينسى العمل ثم يضحك، وكان الفضيل بن عياض رحمه

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ١،٢.

الله تعالى يقول: المؤمن يزرع نخلاً ويخاف أن يثمر شوكًا والمنافق يزرع شوكًا ويطلب أن يثمر رطبًا اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وفتش في نفسك قبل موتك وابك عليها إن وجدت فيها أخلاق المنافقين وأكثر من الاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

القناعة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم إمساك الدينار والدرهم في بداية أمرهم ثم جمعهما للإنفاق في نهاية أمرهم، وذلك لأن الشخص في بداية أمره في الطريق حكم الطفل الرضيع فيحتاج عند الفطام إلى وضع الصبر ونحوه على الثدي ليصير يكره الرضاع من اللبن الذي يضره، فإذا وثقنا كراهية مصه لذلك صار هو يكره شرب اللبن وتعافه نفسه، وكذلك الفقير في حال نهايته يصير يعاف الدنيا وهناك يكون الكمال في إمساكه لها ليعف بها نفسه عن سؤال الناس وينفق منها في سبيل الله كما أمره الله تعالى، وعلى هذا التقدير ينزل قول من نهى عن الدنيا من السلف ومن أمر بإمساكها، وقد كان مسلم النحات رحمه الله تعالى يقول: لما ضرب الدينار والدرهم وضعهما إبليس على جبهته وقبلهما وقال من أحبكما فهو عبدي حقًا.

(قلت) لابد من استثناء من أحب الدنيا للإنفاق من هذا الإطلاق والله أعلم، لأنه إطلاق في محل تفصيل. وقد كان كهمس بن الحسن رحمه الله تعالى لا يمسك بيده دينارًا ولا درهمًا ويقول: والله لجراب بعر أحب إلي من جراب ذهب، وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل مقام الفقير إلا برفض الدنيا وعدم تقدم نفسه فيها على إخوانه إلا أن يكون أحوج منهم.

وقد طلب رجل صحبة إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى فقال له بشرط أن لا تكون أحق بمالك مني، فقال: لا طاقة لي على ذلك ثم ذهب، وفي التوراة حرام على قلب يحب الدنيا أن يقول الحق، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: اعلموا أن الدرهم عقرب فمن لم يحسن رقيته قتله سمه، فقيل له: وما رقيته؟ قال: أن يؤخذ من حله ويوضع في محله، وكان سميط بن عجلان رحمه الله تعالى يقول: الدراهم أزمة المنافقين يقادون بها إلى المهالك، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: لا يكون الرجل صالحًا حتى يتساوى عنده الذهب والتراب، وكان شقيق البلخي رحمه الله تعالى يقول: من انشرح لدخول الدنيا

عليه فهو منافق يعني بذلك من تظاهر للناس بالزهد في الدنيا، وأما من لم يتظاهر بذلك فلا والله أعلم.

وكان أمير المؤمنين علي رحمه الله تعالى يضع الدرهم في كفه ويقول: أف لك من درهم لا تنفعني إلا إن خرجت عني، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا دخل الدرهم الحرام من الباب خرج الحق من الكوة، فقيل له: فإن سدت الكوة، فقال: يخرج من حيث يأتي ملك الموت، وكان العلاء بن زياد رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل العالم إلا إن عف عن الدنيا وعن النساء، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله كثيرًا ما ينشد قوله:

إني وجدت فلا تظنوا غيره ... إن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

اهـ. فاحذر يا أخي من فضل الدنيا واقتد بسلفك الطاهر في الزهد تسلم من آفاتها، والحمد لله رب العالمين.

المحبة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): محبتهم لتقديم مريدهم خدمة الله تعالى على خدمتهم، فإذا دعوا أحدا إلى حاجتهم ولم يأت لاشتغاله بتلاوة القرآن مثلاً أو بذكر الله تعالى كان ذلك أرجح عندهم من حاجاتهم ولو كانت ضرورية كطحن القمح وطبخ الطعام ونحو ذلك، وهذا الخلق لا يعمل به إلا من خلص من رعونات النفس وصحت له محبة مرضاة الله تعالى حتى صار يقدمها على جميع أهوية نفسه، وقد كان لي ورد في الصلاة على النبي ﷺ فطلب لي الذكر ليلة واستمريت فيه حتى فاتني ورد في الصلاة على النبي ﷺ فخجلت بعد ذلك منه عليه الصلاة والسلام حياء منه فلما أصبحت عرضت ذلك على شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى فقال لي: لا ينبغي الخجل منه ﷺ لأجل ذلك فإنه ﷺ يحب ربه سبحانه وتعالى أكثر من نفسه بيقين فلا ينبغي أن يتوهم فيه ﷺ أنه يتكدر منه لأجل ذلك بل هو ﷺ افرح بذكر الله عز وجل من الصلاة عليه، على أن الصلاة عليه ﷺ لابد فيها من ذكر الله تعالى اهـ والله أعلم.

وكذلك ينبغي أن يكون الشيخ ينشرح لاشتغال المريد بالصلاة على رسول الله ﷺ أكثر مما ينشرح إذا صار المريد يقول اللهم ارحم شيخي واغفر له ونحو ذلك، لكون النبي ﷺ أحب إلى كل شيخ من نفسه ومن أهله، فافهم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

أعمال الآخرة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تقديم أعمال الآخرة دائمًا على أعمال الدنيا فيقدم أحدهم ورده بعد صلاة الصبح على سائر مهماته، كما يقدم التهجد في الليلة الباردة على نومه تحت اللحاف. وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم ﷺ فمن أصبح وهمته الدنيا فهو خارج عن طريقهم. وقد رأيت مرة شيخنا أراد التنـزه في بستان فترك ذلك اليوم الورد وصلاة الصبح مع الجماعة، وكان له عمامة صوف وعذبة فقلت له: يا أخي لو لبست لك عمامة مخططة وثوبًا مخططًا مما يلبسه العياق وصليت الصبح في جماعة وقرأت الورد لكان ذلك أفضل لك عند الله تعالى فلم يرد جوابًا، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: من لم تكن عنده تسبيحة أو تهليلة واحدة خيرًا من الدنيا وما فيها فهو ممن آثر دنياه على آخرته، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: ومن خطب الدنيا طلبت منه دينه كله في صداقها لا يرضيها منه إلا ذلك، وكان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول: الدنيا ابنة إبليس فمن خطبها كثر تردد أبيها إليه فإن دخل بها أقام عنده بالكلية.

(قلت) المراد بخطبته الدنيا تمنيها والدخول بها إمساكها، أي إمساك الفاضل منها عن حاجته لغير غرض شرعي فعلم أن من أراد أن إبليس لا يسكن عنده مع تزويجه ابنته فقد رام المحال، ولذلك كان يتوسوس في الصلاة والوضوء والنيات كلها كثير من الناس الذين يحبون الدنيا بقلوبهم، والحمد لله رب العالمين.

ضياع الذرية

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم خوفهم من ضياع ذريتهم من بعدهم ولذلك كانوا ينفقون كل ما دخل يدهم من الدنيا ولا يدخرون شيئًا ولو أنهم خافوا على ذريتهم الضياع لحكم عليهم الحرص والبخل والشح وخرجوا عن صفات القوم، وفي الحديث [الولد مبخلة مجبنة] أي يدع أباه بخيلاً جبانًا عن الجهاد وغيره، وفي الحديث أيضًا [مالك ما قدمت ومال وارثك ما أخرت].

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: أنفق يا ابن آدم ولا يغرنك من حولك من هذه السباع الضارية ابنك وحلائلك وكلالتك وخادمك، فإن ابنك مثل الأسد ينازعك

فيما في يدك ليختص به دونك فلا هو يتصدق به عنك، ولا هو يدعه في يدك لتنفق منه في مرضاة الله تعالى، وأما حلائلك فهن مثل الكلبة في البصبصة والهرير، وأما كلالتك فوالله لدرهم يصل إليهم بعد موتك أحب إليهم من حياتك، وأما خادمك فمثل الثعلب في الحيل والسرقة فلا تطلب المحبة من هؤلاء وتدخر مالك لهم وتوفر ظهرك فإنهم إنما هم معك على غلالة فإذا وضعوك في اللحد رجعوا إلى بيوتهم فبخروا الثياب وعانقوا النساء وأكلوا وشربوا وبطروا بمالك وأنت المحاسب بذلك.

وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: أنفقوا ولا تخشوا الضيعة على أولادكم فإنهم إن كانوا مؤمنين فإن الله يرزقهم بغير حساب، وإن كانوا فاسقين فلا تساعدوهم على الفسق بأموالكم، وكان سالم بن أبي الجعد رحمه الله تعالى ينفق كل ما دخل يده أولاً فأولا فلامته امرأته على ذلك فقال لها: لأن أذهب بخير وأترككم بشر أحب إلي من أن أذهب بشر وأترككم بخير.

وكان محمد بن يوسف رحمة الله تعالى يقول: أنفق على أخيك الصالح فإنه خير لك من ورثتك فإنهم يقتسمون مالك وينسونك ولا يرون لك فضلاً عليهم ويقولون إن الله تعالى جعل لنا ذلك، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى لا يقتني في بيته شيئا سوى الحصير والمصحف والإبريق، وقد أعطاه شخص مرة ركوة جديدة فلما أصبح أعطاها مالك لشخص من أصحابه وقال له: خذها يا أخي فإنها شغلت قلبي خوفاً أن يسرقها أحد من بيتي.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: دخلت يوماً على أخ لي أزوره فرأيت عينيه قد غارتا من الجوع فأخرجت له درهمين وقلت له خذهما واشتر لك بهما شيئا تقتات به يقويك على العبادة فأبى أن يقبلهما وقال: في قدرة الله تعالى أن يقويني على عبادة هذه الليلة بلا طعام ولا شراب وإني أخاف أن آخذهما منك فيبيتان عندي فأموت ولم أشتر بهما شيئا، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يجدوا في بيته ديناراً ولا درهماً، قال: ولما حضرت الوفاة محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى أنفق ماله كله فقالوا له هلا ادخرت شيئا منه لذريتك، فقال: ادخاره لنفسي أولى وأما ذريتي فادخرت لهم فضل ربي.

وقد كان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: يخاف أحدنا من فضيحة الدنيا وفقرها ولا يخاف من فضيحة الآخرة وفقرها مع أن فقر الشخص من الأعمال الصالحة في الآخرة يكون به أشد خجلاً من الناس فبئس ما فعلنا وكان يقول إن هم النفقة والأكل

والشرب قد منع قلوب الغافلين عن كل خير، ولدرهم واحد يتصدق به العبد في حياته خير له من ألف دينار بعد موته.

وكان المدايني رحمه الله تعالى يقول: توريث الأولاد الأدب خير لهم من توريث المال، لأن الأدب يكسبهم المال والجاه والمحبة للإخوان ويجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة، وأما المال فإنه يعدم سريعًا ويصيرون لا دنيا ولا آخرة وقد جربنا المال الموروث غالبًا فوجدناه لا خير فيه ولا بركة لكونه ليس بكسب الوارث، وربما كان المورث بخيلاً به على ورثته وغيرهم، فاعلم يا أخي ذلك والحمد لله رب العالمين.

زيارة القبور

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): زيارتهم لقبور المسلمين كل قليل عملاً بقوله ﷺ: [زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة] وهذا الخلق قل من يعمل به الآن من الناس وإن وقع أنهم دخلوا تربة فليس في دخولهم اعتبار وإنما ذلك لأمر عادي كزيارتهم للميت في أول جمعة أو عند تمام الشهر خوفًا من تغير خاطر أهل الميت مثلاً، لا سيما إن كان لهم عليه حق في زيارتهم ولده أو والده لما مات وهو غرض آخر أجنبي عما قلناه.

وكان آخر من رأيته عاملاً بهذا الخلق سيدي الشيخ محمد بن عنان كان رحمه الله تعالى يزور القرافة كل يوم جمعة فكان يزور من عرف من الأموات ومن لم يعرف، وكان عندما يرى القبور يبكي ويقول: الذكر الوارد في ذلك ثم يقول ما منهم أحد إلا وهو يشتهي أن يصلي ركعتين أو يقول لا إله إلا الله ولو مرة واحدة فاستغنموا عمركم، وكان يزيد الرقاشي رحمه الله تعالى إذا زار المقبرة يبكي ويقول ليت شعري بأي أعمالكم اغتبطتم واستبشرتم ثم يصرخ كما يصرخ الثور.

وكان هشام الدستوائي رحمه الله تعالى إذا زار المقابر ورجع إلى داره يمكث أيامًا لا يستضيء بسراج ويقول أتذكر ظلمة القبر، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يزور قبور آبائه من بني أمية ويقول كأنكم يا آبائي لم تشاركوا أهل الدنيا في لذة ولا نعيم، وكان يقول ما أحسن ظواهر هذه القبور وإنما الدواهي في بواطنها، وقد رأى الحسن البصري رحمه الله تعالى رجلاً يضحك في المقابر فقال له: أما يكفيك أن رسول الله ﷺ كان يكره ذلك، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إن الميت يفتن في قبره سبعة أيام ولذلك استحبوا التصدق عنه تلك المدة مساعدة له حتى يلقن حجته.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: مررت على مقبرة فرأيت شخصًا خارجًا من قبر وهو يلتهب نارًا من فرقه إلى قدمه، فقال لي: يا عبد الله اسقني ماء، فلا أدري أعرفني باسمي أم ناداني كما ينادي الرجل من لا يعرفه، فأردت أن أسقيه فقال لي الموكل به: لا تسقه، ولا زال يضربه بالسوط حتى رجع إلى قبره فانطبق عليه، وكان عطاء السلمي رحمه الله تعالى كثيرًا ما يخرج بعد العشاء إلى المقابر فلا يزال يناجيهم إلى الصباح ويرجع، وكان يقول يا أهل المقابر متم فواموتاه وعاينتم أعمالكم فواعملاه اهـ.

وقد مر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يومًا على مقبرة ففرش رداءه وصلى ركعتين هناك فقيل له في ذلك فقال: ذكرت أهل القبور وقد حيل بينهم وبين العبادة فأحببت أن أتقرب إلى الله تعالى بركعتين بينهم، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: إن أعمالكم تعرض على موتاكم فتارة يسرون وتارة يحزنون، وكان كثيرًا ما يقول اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً تخزي به أمواتي بين الأموات.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا حضر دفن ميت يكاد يغشى عليه ويقول: والله إن أمرًا هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله ويخاف من آخره، واعلم يا أخي أنه ليس من أخلاق القوم حفر قبورهم في حال حياتهم أدبًا مع الله سبحانه وتعالى في قوله عز وجل: [وما تدرى نفس بأى أرض تموت] [1] أي تدفن، ولكن قد بلغنا أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حفر قبره بدير سمعان هو وفتيانه فجعل يحفر والفتيان ينقلون التراب حتى فرغ من حفره فدفن فيه يوم السابع.

وكذلك قد بلغنا عن رجلين من بني خولان أنهما حفرا قبريهما بباب القرافة بمصر ونقشا اسميهما على لوح رخام هناك وأنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وقد قرأته أيام سياحتي ولم يكن أحدهم يبني على قبره قبة ولا يعمل له مقصورة ولا يزخرف له حائطًا ولا يجعل له في طبقات قبته قمرية، خلاف ما حدث من بعض متصوفة زماننا وربما كان من مال بعض الظلمة، فاحذر أيها الأخ الصالح من مثل ذلك فقد قالوا كم من ضريح يزار وصاحبه في النار، وقد رأيت شيخًا من مشايخ العجم باع كتبه وثيابه وأمتعة داره وعمل له قبة وتابوتًا وسترًا وشخاشيخ ونحو ذلك صرف عليه جملة كثيرة ثم كتب على بابها يقول:

---

(١) سورة لقمان: الآية٣٤.

قف على الباب خاضعًا   واحسن الظن وارتج
فهو باب مجرب   لقضاء الحوائج

وصار كل من رأى تلك القبة وتلك الكتابة يضحك على ذلك الفقير ويقول إنه خاف أن لا يعتني به أحد بعد موته فعمل هو ذلك حتى يقال شيخ، وهذا كله غرور وفتح باب للاستهزاء بالصالحين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ذكر الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم غفلتهم عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة على رسول الله ﷺ في كل مجلس جلسوه عملاً بقوله ﷺ: [لا يجلس قومًا مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم محمد ﷺ إلا كان عليهم ترة] أي تبعة ونقصًا يوم القيامة، وايضًا عملاً بقوله ﷺ: [ليس يتحسر اهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها] اهـ.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: قد خفف الله تعالى علينا بقوله عز وجل: اذكروني أذكركم ولم يخص مكان، ولو أنه تعالى عين لنا مكانًا نذكره فيه لكان الواجب علينا السعي له ولو كان مسيرة مائة سنة كما صنع في دعاء الناس إلى الكعبة فله الحمد والمنة، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إذا ذكرتم الخلق في مجالسكم فاذكروا الله تعالى فإن ذكره دواء لداء ذكر الخلق، وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يشترط على من يريد مجالسته أن لا يغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى، وكان عطاء السلمي رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لمن ظلم نفسه أن يذكر الله تعالى إلا بعد التوبة والاستغفار فإن الله تعالى يلعن الظالم إذا ما ذكره مادام مصرًا.

(قلت) وهو يريد ما ذهب إليه القوم من التوبة كلما أرادوا أن يذكروا ربهم عز وجل احتياطًا لنفوسهم ولاحتمال ظلمهم لها ولو بارتكاب مكروه أو غفلة أو خاطر مذموم ونحو ذلك اهـ والله أعلم، وكان داود الطائي رحمه الله تعالى يقول: كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين.

وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: إن أولى الناس بالله من افتتح المجلس بالذكر، وكان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: إني لأعرف متى يذكرني الله تعالى،

قيل له وكيف ذلك؟ قال: إذا ذكرته سبحانه وتعالى ذكرني، قال تعالى: [اذكروني أذكركم]، وكان أبو المليح رحمه الله تعالى إذا ذكر الله تعالى يحل له طرب ويقول إنما طربي بذكر الله تعالى لي فإنه سبحانه وتعالى يقول: [اذكروني أذكركم] وكان إذا مشى في طريق وهو غافل عن ذكر الله تعالى رجع ثانيًا وذكر الله تعالى فيها ولو مرحلة ويقول: إني أحب أن تشهد لي البقاع التي أمر فيها كلها يوم القيامة، وقد كان داود عليه الصلاة والسلام يقول: اللهم اجعلني من الذاكرين لك وإذا رأيتني جاوزت مجلس الذاكرين إلى مجلس الغافلين فاكسر رجلي فإنها نعمة منك عليّ.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: حادثوا القلوب بذكر الله تعالى فإنها سريعة الغفلة، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: واعجبا من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد، وكان بشر بن منصور رحمه الله تعالى يقلل من مجالسة الناس ويقول الاجتماع بالناس محل الغفلات ووالله ما جلس عندي أحد إلا ورأيت ترك مجالسته أفضل لأنها تصير خيرًا لي وله انتهى، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.



عدم وضع الجنب في الأرض

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم وضع جنبهم في الأرض إلا عند العجز عن الجلوس وعلمهم بالقرائن أن الله سبحانه وتعالى يسامحهم بمثل ذلك، وكان آخر من أدركته على هذا القدم سيدي الشيخ تاج الدين الذاكر - رحمه الله تعالى- فإنه أخبر أصحابه ليلة وفاته أن له سبعًا وعشرين سنة ما وضع جنبه إلى الأرض، وكذلك سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله، وقد كان على هذا القدم من السلف عمر بن عبد العزيز وبشر الحافي ومحمد بن إسماعيل البخاري والإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حنيفة ورابعة العدوية والأوزاعي وجماعة ذكرناهم في الطبقات رضي الله عنهم، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا غلبه النوم يقوم فيجول في الدار وينشد قوله:

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل

وكذلك كانت رابعة العدوية وشعوانة وفاطمة الرملية رحمة الله عليهن كن يقلن نخاف أن نؤخذ على بغتة فعلم أن كل من ادعى الصلاح ونام في الأسحار بلا عذر فهو كاذب. فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

رقة القلوب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): رقة قلوبهم وكثرة بكائهم على تفريطهم في حقوق الله تعالى لعل الله يرحمهم وكان على هذا المقام أبو بكر الصديق ﷺ وعمر بن الخطاب وأبو الدرداء ﷺ، وكان لعمر بن الخطاب ﷺ خطان أسودان في وجهه من مجرى الدموع، وكذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وكذلك كان لعمر بن عبد العزيز ويزيد الرقاشي والفضيل بن عياض وبشر الحافي ومعروف الكرخي ﷺ، وكان يزيد الرقاشي رحمه الله إذا دخل بيته يبكي وإذا قدم إليه الطعام بكى وإذا جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم ويقول هل خلقت النار إلا لمثلي، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله طول ليله يبكي ويجول في داره ويصرخ إلى الصباح وكثيرا ما يقع مغشيا عليه، وكان يصلي في سطح غرفته فيبكي في سجوده حتى تجري دموعه وتتقاطر من الميزاب على النائمين تحته حتى كانوا يظنون أنها سحابة مارة فأمطرت عليهم.

وقد كانت رابعة العدوية رحمة الله عليها تبكي وترش دمعها حولها حتى كان يظن الداخل إليها أن ذلك من ماء الوضوء، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى إذا حمى مجلسه وتباكى الناس يذكر لهم بكاء داود عليه الصلاة والسلام وبكاء سفيان الثوري وداود الطائي والفضيل بن عياض وعمر بن عبد العزيز وأضرابهم فيستصغر الناس عند ذلك بكاءهم.

وكان كعب الأحبار ﷺ يقول: لأن أبكي من خشية الله حتى تخرج من عيني قطرة واحدة أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب وأنا غليظ القلب، وكان علي ﷺ يقول علامة الصالحين صفرة الألوان وعمش العيون وذبول الشفاه أي من كثرة سهرهم وبكائهم وجوعهم، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ليس البكاء بكاء العين إنما البكاء بكاء القلب فإن الرجل قد تبكي عيناه وقلبه قاس، لأن بكاء المنافق يكون من رأسه لا من قلبه، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول البكاء عشرة أجزاء فواحد منها لله تعالى والتسعة كلها رياء، فإذا جاء ذلك الجزء الذي لله تعالى في السنة مرة واحدة نجا صاحبه من النار إن شاء الله تعالى.

(قلت) لا يكمل مقام الرجل في البكاء إلا ببكاء عينيه وقلبه، وأما الباكي بأحدهما فناقص لا سيما إن كان له أتباع فإن بكاءه بالقلب لا يذوقه أتباعه فيحتاج إلى بكاء العين

ضرورة، وإن كان مقامه قد ارتقى عن ذلك والله تعالى أعلم، وقد بكى رجل رياء في مجلس صلة بن أشيم فرحمه الناس فقيل له في المنام خذ أجر بكائك ممن أحببت إلى أن يراك باكيًا، وكان سميط بن عجلان رحمه الله تعالى يقول: كان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى إذا بكى بكت زوجته وعياله وخدمه ولا يدرون لما ذلك البكاء.

وكان صالح المري رحمه الله تعالى يقول: الذنوب تطمس القلوب ولا يزيل ذلك إلا البكاء، وقد بكى شعيب بن حرب رحمه الله تعالى في مجلس طاوس رحمه الله تعالى حتى أبكى الناس وظن أنه فعل أمرًا عظيمًا فقال له طاوس اعلم يا أخي أنه لو بكى معك أهل السماء وأهل الأرض لأجل ذنب واحد فعلته لكان ذلك قليلاً فكيف تظن أن ذنوبك تمحى لبكائك وحدك، وقد قيل لمالك بن دينار رحمه الله تعالى ألا نأتيك بقارئ يسمعك القرآن، فقال الثكلاء لا تحتاج إلى نائحة، وكان الضحاك رحمه الله تعالى يبكي كل عشية حتى يغشى عليه ويقول إني لا أدري ما صعد اليوم من عملي القبيح هل غفر لي أو هو باق في صحيفتي حتى أقف عليه غدًا، وكان مكحول الدمشقي رحمه الله تعالى يقول إذا رأيتم أحدًا يبكي فابكوا ولا تظنوا به الرياء فإني ظننت ذلك مرة برجل فحرمت البكاء سنة اهـ.

فعلم أن كل من ادعى الصلاح ولم يبك بقلبه عند سماع القرآن فهو كاذب لأن قسوة القلب تنافي أخلاق الصالحين، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

الظن بالنفس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): ظنهم بنفسهم الهلاك بسبب تقصيرهم في الطاعات فضلاً عن وقوعهم في المعاصي ويقولون الرجاء في الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنا هو تحصيل الحاصل، وإنما الشأن في ظن أحدهم أن الله تعالى يؤاخذه على النقير والقطمير ليخف وقوفه للحساب يوم القيامة فإن من لم يحاسب نفسه هنا يطول وقوفه للحساب هناك نسأل الله تعالى اللطف، وقد كان عبد الرحمن بن هرمز الأعرج رحمه الله تعالى يقول: فتشوا أنفسكم فيما هي عليه من القبائح فإن كل أحد يحشر غدًا مع جنسه، فمن وقع في سائر المعاصي فله مع كل قوم حشر، وكان رحمه الله تعالى كثيراً ما يعاتب نفسه ويوبخها ويقول لها إن المنادي ينادي يوم القيامة يا أهل الخطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم فأراك يا أعرج تقوم مع كل طائفة.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل الفقير حتى يكون ليلاً ونهارًا كأن أهوال القيامة نصب عينيه لأجل أن يستعد لها من هذه الدار، وكان رحمه الله تعالى كثيرا يقول: من أراد هدوء السر في القبر فلا يجعل له سريرة يفتضح بها يوم القيامة وما دام له سريرة سيئة فالرعب من لازمه إلى أن يبعث من قبره مرعوبًا، ولذلك كان لقمان عليه السلام يقول لابنه: يا بني كما تنام كذلك تموت وكما تستيقظ كذلك تبعث فاعمل عملاً صالحًا لأجل أن تنام وتستيقظ كالعروس ولا تعمل سوءًا فتنم وتستيقظ مرعوبًا كالمجرم الذي طلبه السلطان ليسفك دمه.

وكان أويس القرني رحمه الله تعالى يقول: استعمل الخوف في هذه الدار فإنه أنجى لك من العذاب، وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: اعمل لنفسك ولا تعول على غيرك من صاحب وشيخ فإن لكل منهم يومئذ شانا يغنيه، وصف أعمالك من الرعونات فإن نورها يوم القيامة على قدر إخلاصك فيها واعلم انه لا يستضيء منافق في نور مؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، وكان كعب الأحبار ﷺ يقول: من أغلق بابه وعصى الله تعالى واستحيا من المخلوقين دونه عز وجل حاسبه الله تعالى حسابًا شديدًا ووبخه توبيخًا منكرًا ثم نظر إليه نظر الغضب ويقول للملائكة خذوه فيبتدره ألف ملك أو يزيدون ويسحبونه على وجهه، قال: فيتفتت في أيديهم فانظر يا ابن آدم هل وقعت في ذلك وتشفع بأنبياء الله ورسله عسى أن يغفر لك لأجل من استشفعت بهم.

وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول لنفسه: كيف بك يا ربيع إذا حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، وقد كان أبو عمران الجوني رحمه الله تعالى يقول: إن البهائم إذا رأت ما يصنع ببني آدم يوم القيامة تقول الحمد لله الذي لم يجعلنا من بني آدم، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: لا تكن ممن يفضحه الميزان والحساب يوم القيامة فقد بلغني أن أهل الجمع يعضون كلهم أناملهم خجلاً وحياء من الله تعالى، كل واحد حزنه على قدر ما فرط في جنب الله.

وقد سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول: يسهل الله تعالى على العبد طلوع روحه بقدر ما ذاق من الغصص في مرضاة الله تعالى، فقلت له يا سيدي إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس بلاء ومع ذلك فقد ورد أن أحدهم يشدد عليه المرض وغيره، فقال: تشديد المرض على الأكابر قد يكون تعظيما لأجورهم لا علاقة دنيوية تجذبهم إليها بل لا يجوز حملهم على ذلك وبعضهم يصعب عليه طلوع روحه لأجل

تلامذته فيريد عدم الخروج من الدنيا حتى يكملهم ويرشدهم إلى كمال مقامة المعرفة مع محبته للقاء الله تعالى أيضًا، فلما تجاذب عنده الأمران حصل بذلك صعوبة طلوع الروح، ولولا ما عنده من كمال الشفقة على تلامذته لكان أسرع الناس خروجًا لروحه طلبًا للقاء الله تعالى اهـ.

وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: سأل بنو إسرائيل عيسى ﷺ أن يحيي لهم سام بن نوح عليهما الصلاة والسلام فقال أروني قبره فذهبوا فوقف على قبره وقال يا سام قم بإذن الله تعالى، قال: فقام حيًا وإذا برأسه ولحيته بيضاء، فقال له عيسى: إنك قد مت وشعرك أسود، فقال سام: نعم ولكني لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة فلذلك شابت رأسي ولحيتي الآن، فقال له عيسى: كم لك من السنين ميت، فقال له: خمسة آلاف سنة وإلى الآن لم تذهب عني حرارة طلوع الروح، وقد كان عيسى ﷺ إذا ذكر يوم القيامة بين يديه يصيح كصياح الثكلاء ويقول: لا ينبغي لابن مريم أن يسكت عند ذكر القيامة، وكان وهيب المكي رحمه الله تعالى يقول: كيف ينبغي لأحد أن يضحك في الدنيا وهو يعلم أن بين يديه يوم القيامة صرخات وجولات ووقفات يكاد الإنسان أن تنقطع مفاصله من شدة الرعب والخوف، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: في قوله تعالى: [فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ] [1] قال هو من طلوع الشمس يوم السبت إلى نصف النهار فلا ينتصف النهار حتى يفرغ الخلائق من الحساب ويستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من وجد في نفسه داعية للتفرج في البساتين والنوم مع النساء الحسان في الفراش الوطيئة ولبس الثياب المبخرة فهو غافل عن أهوال يوم القيامة إلا أن يكون من كمل الأولياء الذي لا يشغلهم عن الله تعالى شاغل في الدارين فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

عدم الإعتناء ببناء الدور

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم الاعتناء ببناء الدور ونحوها ثم إن وقع أن أحدهم بنى دار اقتصر منها على ما يدفع الضرورة من غير زخرفة وذلك لعدم وجود ما يكفي ذلك من الحلال، وعدم طول أمل فلا يدعهم قصر أملهم يفعلون ذلك، وقد بنى سيد أحمد الزاهد رحمه الله تعالى جامعه وداره بطين وطوب وسقف ذلك بالجريد فعلم أن كل

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤.

من ادعى الصلاح وبنى البناء المحكم فرحا بالدنيا فهو كاذب في دعواه لا سيما من ادعى الانقطاع إلى الله تعالى فإن ذلك لا يليق به بحال إلا إن كان يرصد ذلك عن جهات بر وصدقة ونحو ذلك فيكون الباعث له على أحكام البناء دوام الصدقة بعد موته، كما وقع لسيدي مدين وسيدي أبي العباس الغمري وأضرا بهما رحمهما الله تعالى فلا حرج على ذلك اهـ، وقد مر سيدي الشيخ عبد القادر الجبلي رحمه الله على شخص يبني دارًا ويحكمها فأنشد يقول:

أتبني بناء الخالدين وإنما مقامك فيها لو عقلت قليل

لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كان يومًا يقتفيه رحيل

وممن أدركته على هذا القدم شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى كان يعيب على الفقير إذا رآه يبني دارًا ويقول له: إن الذي تصرفه على هذا البناء لا تلحق تسكن به، ولما بنى أخي أبو العباس رحمه الله له بيتًا في جامع البشير صرف عليه سبعمائة دينار زجره الشيخ وقال له: لو سكنت بأجْرة لكفاك العشر مما صرفته في هذا البناء وكنت تتصدق بالباقي، ثم مات أخي أبو العباس بعد سبع سنين أو نحو ذلك وكان الشيخ رحمه الله تعالى يقول: إذا عمر الفقير بيتًا من أموال إخوانه فمن الأولى له نصحهم في عدم صرفهم مالهم في ذلك وإرشادهم إلى ما يكون أثقل في ميزانهم يوم القيامة، هذا لو أنهم سألوه في ذلك فكيف لو فعلوا ذلك عن سؤال منه تعريضًا أو تصريحًا.

وقد درج السلف الصالح كلهم على عدم الحرص وطول الأمل حتى أن رسول الله ﷺ بلغه أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما اشترى وليدة إلى شهر فصار ﷺ يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر والله إن أسامة لطويل الأمل، ثم قال ﷺ: [والله ما رفعت قدمي وظننت أني أضعها حتى أقبض ولا فتحت عيني وظننت أني أغمضها حتى أقبض ولا لقمت لقمة وظننت أني أسيغها حتى أقبض] وفي رواية «حتى أغص الموت».

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: من جاع وقصر أمله لم يجد الشيطان محلاً من قلبه، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: يا ابن آدم إنما أنت أيام فكل يوم يمضي فقد مضى بعضك، وقد أقاموا الصلاة مرة بحضرة معروف الكرخي رحمه الله تعالى فقدموا فقيرًا ليصلي بهم فأبى وقال أخاف أن أموت في الصلاة فأشوش على الناس صلاتهم فعزموا عليه فقال بشرط ألا أصلي بكم صلاة أخرى، فقال له معروف عند ذلك تأخر يا

أخي فإنك رجل مخلط تخاف أولا أنك تموت في الصلاة ثم تحدثك نفسك أنك تعيش إلى صلاة أخرى، ثم قدم غيره فصلى بالناس.

وكان داود الطائي رحمه الله تعالى يقول: من لازم من طال أمله أن ينسى العمل غالبًا ويسوف بالتوبة، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من شأن قصير الأمل أن يظن في كل شيء أكله أنه لا يخرج من بطنه إلى على يد الغاسل بعد موته وأن ما جمعه لا ينتفع به إلا غيره، ومتى ظن خلاف ذلك فهو طويل الأمل وكان أبو عثمان النهدي رحمه الله تعالى يقول: إن عمري الآن مائة وثلاثون سنة فما من شيء إلا وتغير علي إلا أملي فإني أجده كما هو فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: الدنيا مطلقة الزهاد لا تنقضي عدتها منهم أبدًا وكل من طلق الدنيا تزوجته الأخرى على الفور، وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يسلم إنسان منا من طول أمله لكن كل بمقامه فأعلاهم من كان أمله نفسًا واحدًا فطول الأمل من رحمة الله لكل أحد ولولاه ما هنأ أحد منهم العيش، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: مكتوب على ظهر الحوت في البحر وعلى ظهر النواة من التمر رزق فلان بن فلان لا يأكله غيره ومع ذلك فالحريص يجتهد ويخاف على رزقه أن يأخذه غيره، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

الشفقة على المسلمين

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الشفقة على المسلمين الطائع والعاصي وعلى سائر الحيوانات والعمل على حصول عدم نقص لدين أحد بسببهم وهذا من أشرف أخلاقهم ولا يقدر على العمل به إلا من نور الله تعالى بصيرته، وكان أشفق على الناس من أنفسهم بحكم الإرث لرسول الله ﷺ وهناك يرغب الناس في القرب منه حتى ربما زادوا في الدار المجاورة له أكثر من المجاورة لأهلهم، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول يزاد في ثمن الدار إذا كان جارها طلق الوجه حلو اللسان، وقد كان أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى من المبالغين في التخلق بالرحمة حتى إنه ربما كان يمر بالقوم فلا يسلم عليهم ويقول: أخاف أن يحتقروني فلا يردوا علي السلام فيأثموا بسببي، وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول: إذا علمت من الناس الوقوع في عرضك إذا رأوك فلا تجتمع بهم رحمة لهم إلا في أوقات الصلاة، وكان أبو عبد الله المغاربي رحمه الله تعالى يقول: من لم ينظر للعصاة بعين الرحمة فقد خرج عن الطريق.

وقد كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى إذا رأى عاصيًا دعا له بالمغفرة ورجا له الرحمة ويقول: إن الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ وبعثه لنجاة الناس والرحمة لهم والشيطان لعنه الله بعث لإهلاكهم والشماتة فيهم، قال ومر علي معروف رحمه الله قوم في زورق في الدجلة وبين أيديهم الخمر ونحوه، فقيل له: ألا تدعو عليهم وها أنت تدعو لهم فقال: معاذ الله أن أدعو على مسلم وإن الله تعالى لا يفرحهم في الآخرة إلا إن تاب عليهم في الدنيا وغفر لهم وهذا من حسن سياسته رحمه الله.

وكان إبراهيم التيمي رحمه الله لا يدعو قط على من ظلمه ويقول يكفيه ما حل عليه من وزر ظلمه، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا نزل بفناء داره رفقة وناموا يسهر يحرس متاعهم إلى الصباح من غير علمهم بذلك، وقد روى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب دلني على أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: يا موسى أحب الخلق إلي من إذا سمع بأن أخاه المؤمن شاكته شوكة حزن لها كأنها شاكته هو اهـ.

وكان سالم بن أبي الجعد رحمه الله تعالى يقول: بلغنا ان رسول الله ﷺ جلس يومًا في الظل وأصحابه رضي الله عنهم في الشمس فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد تجلس في الظل وأصحابك في الشمس، أي عاتبه ﷺ على ذلك تشريعًا لأمته، وكان أبو عبد الله بن عون رحمه الله تعالى يقول: أول ما يرفع من هذه الأمة الرحمة والشفقة، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا حصل لأحد من المسلمين أمر يهتم به سفيان حتى ربما يبول الدم من شدة الحصر.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول من علامة الإبدال كثرة الشفقة والرحمة لعامة المسلمين. وكان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يقول: من قال كل يوم اللهم ارحم أمة محمد، اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد كتبه الله من الإبدال اهـ. فاعلم يا أخي واقتد بسلفك في الرحمة، والحمد لله رب العالمين.

أحوال أهل الطريق

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): موافقة الفقيه إذا أنكر شيئًا من أحوال أهل الطريق أو أمرهم بشيء ولا يقيم أحدهم عليه الحجة إلا إن علم أنه يرجع إلى قوله، وذلك لأن الفقيه في دائرة لا يعرف غيرها فإذا قال إن القطب مثلاً أو البدل أو الوتد لا حقيقة له.

فقل له نعم، واقصد بذلك أنه ليس له حقيقة عنده، وإذا قال إن الأولياء قد انقرضوا ولم يبق منهم أحد، فقل له صدقت أي على معتقده هو، وكذا إن قال الخضر لا وجود له فقل له نعم لا سيما إن أتى بكلام أحد ممن ينكر ذلك كابن تيمية.

وقد خالف جماعة هذا الخلق وخالف الفقيه فوقع بينهم شرور وقذف أعراض وسب للطائفة وما هكذا كان الأشياخ السابقون، وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى إذا جلس إليه فقيه وأراد أن يبحث معه في علم يقول له: قال الإمام الغزالي كذا وكذا فقلت له في ذلك، فقال: إنما تنقل لهؤلاء الفقهاء عن الغزالي لأنه من دائرتهم في الأصل قبل التصوف، ولو أني نقلت لهم شيئًا عن أحد ممن ليس هو في دائرتهم لما قبلوه منا.

(قلت) ومما يدل على وجود الإبدال قوله ﷺ: [إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة إنما دخلوها بسخاوة النفوس والنصح للأمة] وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: الإبدال بالشام والنقباء بالعراق والنجباء بمصر، وقد سئل الإمام أبو عبد الله بن ماجد الجريمي رحمه الله تعالى أيكون من النساء أبدال، قال: نعم.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لولا الإبدال لخسفت الأرض بمن فيها ولولا الصادقون لفسدت الأرض ولولا العلماء لكان الناس كالبهائم ولولا السلطان لأهلك الناس بعضهم بعضًا ولولا الحمقى لخربت الدنيا ولو الريح لأنتن ما بين السماء والأرض، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ما من نبي إلا وله نظير من أمته اهـ والحمد لله رب العالمين.

رياضة النفوس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة رياضة نفوسهم حتى يصير أحدهم ينظر الذي عليه ببادئ الرأي دون الذي له فإذا سمع نحو قوله تعالى: [هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] [1] يرى نفسه جاهلاً ويرى جميع اقرانه علماء ببادئ الراي وأنه لا يستوي مع واحد منهم ولا يقاربه في مقام ولا حال، عكس ما يتبادر إلى الذهن لا سيما ذهن من لم يجاهد نفسه، فاعلم ذلك واعمل عليه تجد فيه راحة عظيمة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الزمر، الآية ٩.

كثرة العمل

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة عملهم على رقة الحجاب حتى يروا كل شيء في الوجود حيًا ويعاملونه معاملة الأحياء، فلذلك كانوا لا يجد أحدهم له خلوة يعصي الله فيها أبدًا لأنه يرى كل شيء نظر إليه بعينيه فيستحي منه ويصير يعطيه حقه من الأدب وذلك لأن كل أحد يعلم أن المكان الذي عصي الله تعالى فيه لابد أن يشهد عليه بين يدي الله يوم القيامة فإذا عصى في محل فقد عرضه لوجوب الشهادة عليه،ولو ذكر أحدهم كلامًا قبيحًا يكاد أن يذوب من شدة الحياء ويود أن الأرض ابتلعته ولا كان يتلفظ بذلك، وهذا خلق غريب والحمد لله رب العالمين.

استقامة القلب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أنهم لا يطلبون من الله تعالى إجابة دعائهم في حق أنفسهم أو في حق أحد من الخلق إلا إن كان أحدهم مستقيم القلب مع الله تعالى الاستقامة المكنة في حقه بحيث لا يصير له سريرة يفتضح بها في أحد الدارين أو فيهما ليأتي للإجابة من بابها، وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن لا يرد له دعاء فليكن على قدم الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم العصيان.

وقد كان أبو نجيح رحمه الله تعالى يقول: لو أن المؤمن لم يعص ربه عز وجل لكان إذا أقسم على الله تعالى أن يزيل له الجبل لأجابه، وكان خالد الربعي رحمه الله تعالى يقول: كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى جالسًا في ظل الكعبة يومًا فقام إليه رجل وقال يا أبا إسحاق ما علامة المستقيم؟ فقال: علامته لو أومأ إلى جبل أبي قبيس أن زل عن مكانك لأزاله الله تعالى له، قال: فعند ذلك تحرك أو قبيس لإزالة فأومأ إليه إبراهيم أن قف فإني لم أعنك بهذا فوقف.

وقد بلغنا عن جنيد رحمه الله تعالى أنه كان يقول: شهد شخص على الوليد زورًا فقال الوليد: اللهم إن كان كاذبًا فأمته الساعة، قال: فانكب الرجل على وجهه ولا زال يضطرب حتى مات في الوقت.

وكان الأعمش رحمه الله تعالى يقول: ربنا عز وجل لو أطعناه في كل ما امرنا لأجابنا في كل ما سألناه سبحانه وتعالى، قال وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يومًا

جالسًا تحت قنطرة في بلد تسمى مرو الروذ فوقع رجل من أعلى القنطرة، فقال إبراهيم: اللهم أمسكه في الهواء حتى يأتي من ينقذه من الهلاك، قال: فوقف في الهواء حتى أتاه الناس فأنزلوه سالمًا اهـ.

وضرب رجل من أعوان الولاة مالك بن دينار بالسوط فقال مالك: اللهم اقطع يده فقطعت يد الرجل من الغد ومر عليه وهي معلقة، قال: وكذب رجل على مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالى فقال مطرف: اللهم إن كان كاذبًا فأمته الساعة، قال: فوقع الرجل ميتًا في الحال والناس ينظرونه فتعلق الناس بمطرف وأخذوه إلى والي البصرة وقصوا عليه القصة فلما سمع الوالي ذلك قال: إن هي إلا دعوة رجل صالح صادفت منية الرجل، والحمد لله رب العالمين.

عدم ادعائهم محبة أحد

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : أن لا يدعي أحد منهم محبة أحد إلا بعد أن يعرض على نفسه مقاسمته في ماله، وإذا أصابه بلاء في جسده يتألم كما يتألم المصاب فإن طابت النفس بما ذكر فليقل له إني محب وإلا فليكف عن الكذب فإنه نفاق، وهذا الخلق قل من يتخلق به الآن. وقد تخلقت أنا به في حق بعض أصحابي دون البعض. فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

رحمة العصاة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): رحمة العصاة وعدم ازدرائهم وفداؤهم بأنفسهم حتى يود أحدهم أن جلده يقرض بالمقاريض ولا يعصى أحد منهم ربه، وكانوا يرون كثرة الشفقة على العصاة أفضل من الدعاء عليهم، وكان مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول: من لم يجد عنده رحمة للعصاة فليدع لهم بالتوبة والمغفرة فإن من أخلاق الملائكة عليهم الصلاة والسلام أنهم يستغفرون لمن في الأرض.

وكان زهير بن نعيم رحمه الله تعالى يقول: وددت لو أن جلدي يقرض بالمقاريض ولا يعصى أحد ربه تبارك وتعالى، وكان حبيب العجمي رحمه الله تعالى إذا قرأ آية فيها أن الله غضب على قوم يبكي عند قراءتها ويقول: يا رب إنك قد أدخلت قلبي الرحمة لهم فإن شئت فاغفر لهم وإن شئت عذبني عنهم.

(قلت) ولعل مراده رحمه الله بالرحمة التي دخلت قلبه فتح باب سؤاله ربه أن يرضى عنهم لا التحجير على الحق تعالى في غضبه عليهم، فإن الكامل من شأنه أن يغضب لغضب الحق ويرضى لرضاه عز وجل، وقد كان حبيب هذا رحمه الله معدودا عند التابعين ممن غلبت عليه أحوال الفقراء وأرباب الأحوال لا يقتدى بأفعالهم عند أهل الطريق، فإن الله تعالى أرحم بعباده من حبيب هذا والله أعلم.

وكان منصور بن محمد رحمه الله تعالى يرحم الرجل أن يأمره بأمر ويقول أخاف أن يخالف أمري فيأثم ويقع في العقوبة وأكون أنا السبب، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: لولا أن يأثم الناس في لقلت أن من يغتابني ويذمني أحب إلى ممن مدحني لأن المادح لي قد يكذب، وقد كان شقيق البخلي رحمه الله تعالى يقول: من لم يرحم الرجل السوء فهو أسوأ حالاً منه، ومن ذكر عنده رجل صالح فلم يجد لذكره حلاوة فهو رجل سوء.

وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى إذا سمع بقوم ظلموا في بعض أقطار الأرض يمرض لأجلهم حتى يصير يعاد كما تعاد المرضى، فإذا قيل له: قد فرج الله عنهم يزول مرضه لوقته، وقد كان ثابت البناني رحمه الله تعالى إذا سأله أحد حاجة يصير لا يصلي صلاة إلا دعا له في سجوده حتى تقضى حاجته، وقد رد شريك رحمه الله تعالى نملة فارسية رآها في سفرته من مقدار أربعة فراسخ رحمة لها، وكان رحمه الله تعالى يفت الخبز للنمل ويذر لهم الدقيق على بيوتهم.

وكان أبو الدرداء رحمه الله تعالى يشتري العصافير الصغار التي تمسكها الأطفال ويرسلها إلى عشها وكذلك الأمهات يرسلها إلى أولادها إذا صيدت، قلت: وليس هذا من باب تسييب السوائب وإنما كان الغرض رحمة الأم أو الولد والله أعلم، وكان معاوية إذا سأله أحد في حاجة فقضى بعضها يحس بتخفيف الهم بقدرها من شدة ارتباطه بإخوانه رحمه الله تعالى اهـ.

ففتش يا أخي في نفسك هل وجدت شيئا من ذلك لأجل إخوانك وابك على نفسك حيث لم يكن لك نصيب في مقام الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

القناعة بالموجود

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): القناعة بالموجود وعدم طلبهم الزيادة في الدنيا من مطعم أو مشرب أو ملبس أو مركب أو منكح أو مسكن أو غير ذلك، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول خرج الغنى والعز يجولان يطلبان من يقيمان عنده فلقيا القانع فاستقرا عنده، وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يأكل الخبز بالملح أو الخل ويقول من رضي من الدنيا بمثل هذا لم يذل نفسه للناس. وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من لم يقنع بخبز الشعير في هذا الزمان ابتلى بالذل والهوان، وقد استأذنه مرة شخص في جمع المال فقال له: من جمع المال ابتلى بخمس خصال طول الأمل وشدة الحرص وكثرة الشح ونسيان الآخرة وقلة الورع.

وقد كان حامد اللفاف رحمه الله تعالى يقول: من طلب الغنى بالقناعة فقد أصاب الطريق ومن طلبه بالمال فقد أخطأ الطريق، وقد أدركت بحمد الله تعالى من أصحاب هذا المقام خلقًا كثيرًا منهم شيخنا شيخ الإسلام زكريا وشيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري والشيخ عبد الحليم بن مصلح والشيخ علي النبتيتي والشيخ علي البحيري، والشيخ محمد بن عنان والشيخ محمد المنير والشيخ محمد العدل وغيرهم ﵃ ورأيتهم يفتون الخبز اليابس في الماء ويكتفون به، وكان الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله تعالى يقول: ليس القناعة بأن يأكل الشخص كل ما وجد من غير كلفة وإنما القناعة أن يكون عنده المال الكثير والطعام ومع ذلك لا يأكل إلا كل خمسة أيام أكلة صغيرة أو ثلاثة أيام، وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى إنما أكل لا يجاوز تسع لقم ويقول: قال رسول الله ﷺ: [حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه] واللقيمات من الثلاث إلى التسع، وقوله ﷺ حق وصدق، فمن آمن به ﷺ الإيمان الكامل كفته التسع لقم ولا يحتاج إلى زيادة عليها، وقد سمعته رحمه الله مرة يقول من لم يكتف بالتسع اللقم في اليوم والليلة فهو لم يؤمن الإيمان الكامل لقوله ﷺ حسب ابن آدم إلخ.

(قلت) وينبغي حمل ذلك على غير أصحاب الأعمال الشاقة أما أصحابها كالحراث والحصاد والتراس والنوتي والفاعل ونحوهم فلا يكفيه مثل ذلك إلا إن كانت تصير قوته ملكية وغلبت روحانيته على جثمانيته، كما قلع جبريل عليه الصلاة والسلام مدائن قوم لوط عليه الصلاة والسلام ورفعها إلى نحو السماء حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب كما ورد مع أن جبريل عليه الصلاة والسلام لا يأكل ولا يشرب، فافهم والحمد لله رب العالمين.

شدة العلم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة علمهم على رقة حجابهم حتى يصير أحدهم يرى الآخرة ونعيمها بعين قلبه، وذلك ليصح زهده في الدنيا ويتفرغ للآخرة وإلا فمن حجب رؤية الآخرة فبعيد عليه الزهد في الدنيا، وكان عبد الله بن سلام ﷺ يقول: من أراد أن يزهد في الدنيا من غير أن يرى الآخرة بين يديه فقد رام المحال، وكان أبو واقد الليثي رحمه الله تعالى يقول: لقد كابدنا الأعمال فلم نجد في أعمال الآخرة عملاً أبلغ من الزهد في الدنيا.

وقد سمع مالك بن دينار رحمه الله تعالى رجلاً يقول: لو أعطاني الله تعالى في الجنة بيتاً صغيراً لرضيت به، فقال له مالك ليتك يا أخي زهدت في الدنيا كما زهدت في الجنة، وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما طلب سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده إلا ليتحقق بمقام الزهد لأن الزهد مع وجود الدنيا أعظم ممن كان زهده فيها مع الفقد.

وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: لو حلف حالف أن الزاهد في الدنيا خير الناس لقلت له صدقت لا تكفر عن يمينك، وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: لو أوصى رجل بمال إلى أعقل الناس لصرفته إلى الزاهد في الدنيا اهـ.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: يحشر الناس كلهم عراة إلا الزاهد في الدنيا، كان شقيق البلخي رحمه الله تعالى يقول: الزاهد الصادق يقيم زهده بفعله والمتفعل يقيم زهده بقوله من غير فعل، وقد قال رجل لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أشتهي أن أرى عالماً زاهداً في الدنيا فقال له: تلك ضالة لا توجد الآن لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض وأين يوجد ذلك حتى أن الإنسان يزهد فيه.

(قلت) إن الحلال موجود والمقامات موجودة ولكن حلال كل إنسان ومقامه على قدر حاله ولذلك طلب الشارع ﷺ منا أن نأكل حلالاً ونتأسى به في الأخلاق والمقامات ولولا وجود الحلال وإمكان الترقي لبطلت الأحكام الشرعية من قرون متعددة قائمة إلا من يأكل حلالاً ويخاف الله عز وجل ويزهد ويتورع ولكن على قدر حظه ونصيبه فلعل قوله لم يوجد الحلال على سبيل المبالغة والله أعلم.

وقد كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: من كان أكثر الناس زهداً في الدنيا فهو

أكثرهم عملاً صالحًا اهـ، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: من ادعى الزهد في الدنيا ثم غضب ممن ينقصه عند أهلها فهو كاذب في دعواه، وكان حماد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: ليس شيء أقطع لظهر إبليس من الزهد في الدنيا، وكان ابن السماك رحمه الله يقول: قد صار الزهد في الدنيا مذكورًا في الكتب ولا نجد له فاعلاً، وقد سئل يونس بن عبيد الله رحمه الله تعالى عن غاية الزهد في الدنيا فقال: هو عدم الراحة فيها بالكلية.

(قلت) وممن أدركته من رجال هذا المقام شيخنا سيدي علي الخواص والشيخ عبد الله الفيومي المدفون بتربة الأمير يشبك خارج مصر والشيخ علي المفتي بالصالحية بمصر والشيخ شمس الدين السمنودي والشيخ محمد المنير والشيخ أبو الحسن الغمري والشيخ عبد الحليم بن مصلح والشيخ محمد بن داود وشيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، فكل هؤلاء رضي الله عنهم كانت الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم وكانوا لا يردون سائلاً ولو طلب عمامة أحدهم أعطاها له.

وقد لقي الشيخ محمد المنير رحمه الله تعالى شخصًا هربت جماله في طريق الحج فأعطاه خمسمائة دينار فلما وصل الرجل إلى مكة أتاه بعوضها فأبى الشيخ أن يأخذها وقال له: إني لم أعطها لك وأخذ بدلها مع أنه لم يكن بينهما معرفة قبل ذلك، فانظر يا أخي في فقراء زمانك هل يفعل أحد منهم مثل ذلك مع صاحبه إلا كيد في طريق الحج من غير رجوع عليه مع أن أحدهم ربما يقول أو يظن أن الشيخ محمد المنير دونه في المقام، فابك على نفسك في تخلفها عن مقامات الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

سرعة المبادرة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : سرعة المبادرة للإحرام خلف الإمام إن كان في ذلك تعظيم لأمر الله عز وجل أن يتهاون أحد منهم في تأخيره لكن لا لعلة ثواب ولا للذة مجالسة للحق عز وجل في تلك الصلاة، فإن المبادر لأجل ذلك إنما هو ساع في حظ نفسه بخلاف من كان الباعث له على تلك المبادرة تعظيم أمر الله سبحانه وتعالى وعدم التهاون به، ولذلك لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالاختتان ولم يجد الموسى اختتن بالقدوم فقيل له: هلا صبرت حتى تجد الموسى، فقال: إن تأخير أمر الله عز وجل لعظيم، فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

هوان الدنيا

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): هوان الدنيا عندهم وشدة رفضهم لها عملاً بقول رسول الله ﷺ: [إن للدنيا بنين وللآخرة بنين فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا]، وقد روى الطبراني وغيره عن أنس ﷺ قال: دخلت على رسول الله ﷺ يوماً فوجدته يدفع شيئاً بيديه فقلت يا رسول الله ما هذا الذي تدفعه فقال: [الدنيا تطاولت لي فقلت لها إليك عني]، وفي الحديث أيضاً ،أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة قوم فرأى شاة ميتة فمسك بأذنها وقال: أترون هذه هانت على أهلها، فقالوا: من هوانها عندهم ألقوها يا رسول الله فقال ﷺ:[للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها]، وفي حديث آخر [لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء]، وكان محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى يقول: تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها فتقول يا رب اجعلني لأحسن عبادك داراً فيقول الله تعالى: لا أرضاك له، اذهبي يا لاشيء كوني هباءً منثورا، وفي رواية: فيقول لها اذهبي إلى النار فتقول: يا رب ومن يحبني معي، فيقول لها: ومن يحبك فتأخذهم جميعاً إلى النار.

وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: يوقف من يعظم الدنيا بين يدي الله فيقال له: هذا الذي عظم ما حقره الله فيسقط لحم وجهه من الخجل، فمن ادعى أنه يحب الله تعالى وهو يحب الدنيا فهو كاذب لأن من شرط المحب أن يكره ما كرهه محبوبه، وإن الله يكره الدنيا.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن الله تعالى يقول: إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: تعالوا بنا نتوب من الذنب الذي ترك الناس التوبة منه، فيقولون وما هو؟ فيقول: حب الدنيا وسوف يحب الدنيا رجال حتى يعبدوها ويعبدوا أهلها، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من لم يجعل حب الدنيا من الكبائر فقد أخطأ الطريق وذلك لأن الكفر ينبني على الرغبة في الدنيا.

(قلت) وذلك لأن سبب الكفر بالله تعالى عصيان ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام حسداً أو كبراً أو كلاهما من حب الدنيا والله أعلم، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول للحواريين: بحق أقول لكم إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وكان مالك بن

دينار رحمه الله تعالى يقول: اتقوا السحارة التي تسحر قلوب العلماء وتلهيهم عن الله تعالى - يعني الدنيا- وهي أسحر وأقبح من سحر هاروت وماروت لأن ذاك يفرق بين المرء وزوجه وهذا يفرق بين العبد وربه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهو يرون الدنيا عندهم كوديعة يؤدونها إلى صاحبها ليس لهم فيها ملك ولذلك ذهبوا إلى الآخرة خفافًا.

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: كل الخبز الحاف وأنت خائف من الدنيا، وإياك أن تعد نفسك بعد ذلك أنك من الزاهدين فإن صغير الدنيا يجر إلى كبيرها من حيث لا يشعر العبد.

وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: إنما أكثر القوم من ذكر الله تعالى لتبعد عنهم الدنيا فإنهم إذا ذكروا الله بعدت وإذا تفرقوا عن الذكر أخذت بأعناقهم: فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

الاقتداء بالرسول

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): استحياؤهم من كثرة ترددهم إلى الخلاء وذلك بدوام الجوع الشرعي مع الجدة اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ يشد الحجر على بطنه الشريف من الجوع. قالت عائشة رضي الله عنها لو شاء ﷺ لأكل ولكن كان يؤثر على نفسه. (قلت) قد كان له ﷺ مقام آخر أكمل من هذا وهو أنه كان يبدأ بنفسه ولا يجوع إلا اضطرارًا لأن الكامل من شأنه أن يوفي طبيعته حقها لأنه مسئول عنها فما جاع ﷺ اختيارًا وآثر على نفسه إلا ليقتدى به في ذلك، فافهم.

وكان عبد الرحمن بن أبي نعيم رحمه الله تعالى لا يأكل إلا كل خمسة عشر يومًا أكلة، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فدعاه ثم أمر به فوضع في بيت وأغلق عليه الباب خمسة عشر يومًا ثم فتح عليه فإذا هو قائم يصلي.

وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما يطوي الأسبوع فكان لا يأكل إلا يوم السبت، وكان الإمام أبو حنيفة ﷺ مقللاً في الأكل جدا، كان يأكل كما يأكل الطير في القلة، ولم يكن في بيته إلا الحصير، وقد كان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: أحلى ما تكون لي العبادة إذا ألصقت بطني بظهري فإن الحكمة كالعروس تطلب البيت الخالي تنام فيه لتخلو فيه بصاحبها.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لا تجمعوا بين أدمين فإنه طعام المنافقين، وقد رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ رجلاً قد تثلث جلدة بطنه فعلاه بالدرة وقال: إن هذه تشبه جلدة بطن كافر، وكان ﷺ إذا رأى رجلاً يشتري اللحم كثيرًا يضربه بالدرة ويقول له: أما علمت أن لهذا اللحم ضراوة كضراوة الخمر.

وقد كان الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى يدخل الخلاء كل شهر مرة، فصار يدخل في الشهر مرتين فكانت أمه تقول لأصحابه ادعوا لعبد الرحمن فإنه قد صار مبطونا، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: والله قد استحييت من ترددي إلى الخلاء كل ثلاثة أيام مرة، وكذلك كان الإمام مالك بن أنس والإمام البخاري رضي الله عنهما، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: [شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة، ووالله لقد خلطت دقيقي بالرماد وأكلته مدة حتى ضعف جسدي ولو أني قويت عليه ما تركته أبدًا].

وكان سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما إذا لم يجدا طعامًا حلالاً استفا الرمال الخمسة عشر يومًا أو أكثر، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: بت عند الحجاج بن فرافطة رحمه الله أحد عشر يومًا فما رأيته ذاق طعامًا ولا شرابًا ولا قام لشيء سوى الصلاة اهـ.

فإن قيل إن ما ذكرتموه في هذا الخلق من الطي أكثر من ثلاثة أيام لم يفعله النبي ﷺ وقد قيدتم هذا الخلق أولاً بالجوع الشرعي فما وجه الزيادة على ثلاثة أيام، فأجاب بعضهم بقوله إن رسول الله ﷺ كان رحمة على أمته، وكان يقول: [اقدروا القوم بأضعفهم] مع أنه ﷺ قد ورد أنه كان يواصل الصوم فيحتمل أن هؤلاء القوم الذين جاعوا تلك المدد الطويلة كانوا من الورثة له ﷺ، ويحمل نهيه ﷺ عن الوصال على من لم يطق ذلك فنهاه عن أن يعذب نفسه لئلا تصير نفسه تكره العبادة.

وقد بلغنا أن أبا عقال المغربي رحمه الله تعالى كان يأكل في كل ستة أشهر أكلة، وقد سمعت سيدي عليًا المرصفي رحمه الله تعالى يقول: قد وقع لسيدي عيسى بن نجم المدفون بساحل بحر البرلس رحمه الله تعالى أنه مكث سبعة عشر سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو على وضوء واحد اهـ.

وقد أجاب أيضًا بعض المحققين أن هؤلاء الذين كانوا يطوون تلك المدد الطوال أن

أحدهم كان يتناول نحو الزبيبة ونحو القطرة من الماء ليخرج بذلك عن الوصال المنهي عنه وذلك هو الظن بهم والله أعلم.

وقد أجمع القوم على أن الجوع من أعظم أركان الطرق حتى قالوا إذا طلب المريد الأكل بعد خمسة أيام فأمروه بالكسب فإنه لا يصح منه في الطريق، وكان أبو عثمان الجيزي رحمه الله تعالى يقول: كنت أمكث السنة كاملة في بداية أمري وسياحتي لا يخطر الأكل على بالي إلا إن حضر بين يدي اهـ، فانظر يا أخي جوعك تجده كلا شيء بالنسبة لجوع هؤلاء القوم رضي الله عنهم مع أن جوعهم لم يخرج عن السنة كما مر تقريره لقوتهم عليه، وما نهى عن الجوع بالأصالة إلا لخوف الضرر على النفس.

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى يقسم عقله وقوته ومعرفته إلى سبعة أجزاء فكان لا يأكل حتى يذهب من كل واحدة ستة ويقول لولا أخاف الهلاك كنت لا آكل حتى تفنى السبعة أجزاء، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

السلامة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تقديمهم السلامة على الغنيمة من حيث رفض الدنيا وفراغ يدهم منها فكانوا يقدمون فراغ يدهم من الدنيا وإنفاقها في سبيل الله تعالى خوفاً أن يمنعوا منها حقها حتى كان أحدهم يقول يا طالب الدنيا لتبر بها غيرك تركك لها أبر وأبر، وكان الجنيد رحمه الله يقول: تجريد العبد من الدنيا أفضل من جمعها وإنفاقها.

وقد كانوا إذا قيل لأحدهم خذ هذه الدراهم ففرقها على المساكين يأبى ذلك ويقول: إن من جمعها أولى بتفرقتها وربما يكون فيها حرام وشبهة فتكون الهناء للفقراء والتبعة على من فرق، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: إن من تفرغ لعبادة ربه أفضل ممن تركها وسعى على عياله، وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: إن بينكم وبين القوم بعداً أقبلت عليهم الدنيا ففروا منها وأدبرت عنكم فتبعتموها، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: تجرع مرارة الدنيا أشد من تجرع مرارة الصبر، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لا يبلغ أحد منازل الصديقين حتى يترك زوجته وكأنها أرملة وأولاده وكأنهم يتامى.

وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر ليلة على شخص نائم والناس قائمون يصلون فقال له: قم فصل، قال له: إني قد عبدت الله تعالى بأفضل العبادة، فقال له عيسى وما هي؟ قال: قد عبدت الله بأفضل العبادة وهو أني قد زهدت في الدنيا، فقال له عيسى: نم فقد فقت العابدين.

ومن أدلة القوم في هذا الخلق ما ورد أن رسول الله ﷺ خرج يومًا على أهل الصفة ﷺ فقال: [أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان فيأتي بناقتين كوماوين، فقالوا: كلنا نحب ذلك يا رسول الله، فقال ﷺ: لأن يترك أحدكم ذلك ثم يذهب إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من اثنتين وثلاث خير من ثلاث وأربع خير من أربع من أعدادهن من الإبل] اهـ.

ولكل مقام رجال ومن شأن الشارع أن يرغب كل أحد فيما أقامه الله تعالى فيه لئلا تتعطل المراتب، والحمد لله رب العالمين.

حسن الظن

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إذا رأوا شخصًا انقطع عن الناس في الجبل مثلاً ثم رأوه صار ينزل للناس ويحضر ولائمهم ويزور أمواتهم أن لا يحملوه على علة فاسدة، كأن يقولوا عنه أنه لا يقدر على الوحدة التي شهر نفسه بها، أو يقولوا إنه يفعل ذلك مع الناس لأجل أن يصيروا يحضروا مولده أو نحو ذلك، بل يجب حمله على أنه يفعل ذلك خالصًا لوجه الله من باب حسن الظن وحسن الخلق مع إخوانه المسلمين، فإياك يا أخي أن تظن في أحد من عباد الله المنقطعين في قرية أو جبل سوءًا إذا رأيت أحدهم خالط الناس وتقول: أن هذا قد انقطع عن الناس فماله ولمخالطتهم، بل الواجب أن تظن به خيرًا فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

أمر الرزق

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم اهتمامهم بأمر الرزق وانشراح صدورهم إذا لم يبت عند أحدهم دينار ولا درهم وكانوا يكرهون ادخار قوت غد، وإذا وقع أن أحدهم ادخر قوت الغد أو الجمعة أو الشهر أو نحو ذلك كان ذلك على اسم العائلة لا

على اسم نفسه تسكينا للاضطراب الذي ربما يقع في قلب العائلة إذا لم يكن عندهم شيء يأكلونه، فربما وقع أحدهم في سوء الظن بربه عز وجل وقال بعضهم ربما ادخر القوت الذي علم من طريق كشفه انه رزقه ولا يصح لأحد غيره أن يتناول منه شيئا، ولكن قد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: من كمال العارف إذا أطلع على أن الشيء الفلاني من رزقه أن لا يخزنه بل يصبر حتى يأتيه في الوقت الذي جعله الله تعالى فيه إيثارًا لفراغ اليد من الدنيا على إمساكها إذا لا فائدة للادخار اهـ.

وقد سمعت الشيخ عليًا النبتيتي البصير رحمه الله تعالى يقول: من شرط من يجتمع بالخضر عليه السلام من الأولياء أن لا يدخر قوت غد فمن خبأ قوت غد لم يجتمع به ولو كان على عبادة الثقلين، قال: ومن شأن الخضر عليه السلام أن يأتي للعارفين في اليقظة وللمريدين في المنام لأن المريد لا يقدر على صحبته يقظة فلذلك يأتيه منامًا يعلمه الآداب التي جهلها.

وقد كان أبو عبد الله اليسرى أحد رجال الرسالة رحمه الله تعالى يجتمع به يقظة ويحادثه طويلاً ثم انقطع عنه بعد ذلك في اليقظة وصار يأتيه في المنام، قال: فسأله عن سبب انقطاعه عنه يقظة؟ فقال له، نحن لا نصحب من يخبأ رزق غد وأنت قد قلت لزوجتك في الوقت الفلاني خذي هذا الدرهم فاجعليه على الرف إلى غد، فقال أبو عبد الله صحيح ذلك ولكني تبت إلى الله تعالى عن الادخار، قال: وبعد ذلك لم يأته في اليقظة إلى أن مات كما أخبر عن نفسه في مرض موته رحمه الله تعالى، وكان أويس القرني رحمه الله تعالى يقول: لا يقبل الله من عبده عملاً وهو يهتم بأمر رزقه إذ المهتم بأمر رزقه متهم لله عز وجل والمتهم لربه لا يرفع له عمل.

(قلت) قد يهتم العبد لرزقه ويسعى في طلبه بكل وجه اهتمامًا بأمر الله تعالى بالكسب لا شكًا في أنه يضيعه وعلى ضد ذلك يحمل كلام أويس ﷺ. (وقد قيل) مرة لأبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى أنت من أين تأكل وتشرب، فقال: من حيث يرزق الله الذبابة والبعوضة أفتراه يطعمها وينسى أبا يزيد، قال: وصلى خلف إمام مدة فسأله الإمام يومًا وقال: إني أراك لا كسب لك فمن أين تأكل؟ فقال له أبو يزيد: دعني أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك فإنك لا تعرف الله تعالى ولا تصح صلاة من لم يعرف الله سبحانه وتعالى.

(قلت) وهذا لا ينافي حديث [صلوا خلف كل بر وفاجر] لأن الحديث ورد في سد باب

الخروج على الأئمة وهذا في مقام الكمال للإمام، واعلم أن دليل القوم في عدم الادخار ما روى أن شخصنا أهدى إلى رسول الله ﷺ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائرًا منها فلما كان الغد أتته بها فقال ﷺ: [ألم أنهك أن ترفعي شيئا لغد فإن الله يأتي برزق كل غد] اهـ.

فامتحن نفسك يا أخي لعدم ادخار شيء لغد فإن رأيتها مضطربة فقل لها ليس لك في مقام الصالحين نصيب، والحمد لله رب العالمين.

شدة البلاء

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): اختيارهم شدة البلاء على النعمة والرخاء لأن بذلك يدوم توجههم إلى الله تعالى، ومن أحب الله أحب ما يقربه إليه ويذكره به، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة فليس هو بفقيه، وقد دخل جماعة على مالك بن دينار رحمه الله تعالى وهو جالس في بيت مظلم وفي يده رغيف فقالوا له يا مالك ألا سراجٌ ألا شيء تضع عليه الرغيف، فقال: دعوني فإني والله نادم على ما مضى.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من وسع الله عليه في الدنيا ولم يخف أن يكون ذلك مكرًا به فقد أمن مكر الله تعالى، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: من وجد كل ليل كسرة يابسة يأكلها فليس بفقير، إنما الفقير من لم يجد شيئا، وقد كان الربيع بن أنس رحمه الله تعالى يقول: إن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا شبعت سمنت وإذا سمنت ماتت، وكذا ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا مات قلبه، وكان حفص بن حميد رحمه الله يقول: أجمع العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء على أن كمال النعيم في الآخرة لا يدرك إلا بنقص النعيم في الدنيا اهـ.

واعلم أن من أدلة القوم على هذا الخلق ما ورد أن رسول الله ﷺ قال: [كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه واصغى بسمعه وحنى بجبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ] اهـ، فعلم أن الكاملين ينظرون إلى أهوال القيامة من هذه الدار فذلك هو الذي منعهم لذة الأكل والشرب والنوم والجماع وغير ذلك، فافهم والحمد لله رب العالمين.

حسن الأدب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إذا سألهم أحد في حاجة وهو في حارة شيخ من مشايخ عصرهم أن يردوا صاحب تلك الحاجة إلى ذلك الشيخ الذي هو في حارته ويحسنوا اعتقاد صاحب تلك الحاجة فيه، ومتى قضوا لذلك المحتاج حاجته فقد أساءوا الأدب مع ذلك الشيخ، وقد كان ذلك دأب شيخنا سيدي علي الخواص كان رحمه الله تعالى إذا جاءه أحد وسأله في حاجة يقول له: أنت من أي حارة فإذا أخبره قال له: ارجع إلى شيخ حارتك فإن الله تعالى لم يجعله في حارتك إلا ليتحمل هموم أهلها، فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه والحمد لله رب العالمين.

انشراح الصدور

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): انشراح صدورهم إذا صرف الله تعالى عنهم الدنيا وذلك لأنهم يحبون الله ورسوله ومن أحب الله تعالى ورسوله ﷺ كره الدنيا ضرورة لأنها تشغل عن كمال العبادة فلذلك كان من أكرم أخلاقهم انقباض قلوبهم من إقبال الدنيا عليهم وتأمل يا أخي لما كان الصحابة ﷺ أكثر الناس محبة لرسول الله ﷺ كيف كان أكثرهم يبيت ويصبح وليس عنده دينار ولا درهم وقد دعا ﷺ لأهل بيته رضي الله عنهم لشدة محبته لهم ومحبتهم له فقال: [اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا] وذلك ليكون العبد مقبلاً علي الله تعالى لا يعوقه عنه عائق لا سيما إن كان ليس عنده صبر على الجوع مثلاً فإنه يصير مقبلاً على الله تعالى ليلاً ونهارًا يسأله قوته لا يفتر عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: الدنيا سجن المؤمن وأعظم أعماله في السجن الصبر وكظم الغيظ، وليس للمؤمن في الدنيا دولة وإنما دولته غدًا في الآخرة، وقد كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من الأمة فيعيش كدود الخل في الخل، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: من حبس الله عنه الدنيا ثلاثة أيام وهو عنه راض وجبت له الجنة، وكان عبد الله بن بكر المزني رحمه الله تعالى يقول: إن الله عز وجل ليجرع عبده المؤمن ويذيقه مرارة الدنيا محبة فيه كما تجرع المرأة ولدها الصبر لأجل العافية اهـ.

ومن أدلة القوم في هذا الخلق ما ورد أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ إني أحبك يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: [لئن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه]، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: مازالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى قبض النبي ﷺ فصبت علينا الدنيا صبًا أي لأنا كنا ببركته ﷺ في حماية من الدنيا فلما توفى النبي ﷺ ذهبت تلك الحماية ودخل علينا النقص، وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا ترقى العبد في مقامات العرفان صارت الدنيا تزداد منه نفرة ولو أنه طلبها لما أجابته وذلك لعدم رؤيتها محلاً من قلبه تمكث فيه اهـ، فعلم أن من علامة من ادعى الفقر كذبًا أن يزداد من أمتعة الدنيا وزينتها كلما طعن في السن، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

شدة الفرح

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة الفرح في الدنيا كلما حيل بينهم وبين الوصول إلى شهواتهم فيها، فيقولون: لولا أن الله تعالى يحبنا ما حال بيننا وبين ما يحجبنا عنه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: قال لي معلمي عبد الله الرازي رحمه الله تعالى إن أردت القرب من الله تعالى فاجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام حرام على قلب أحب الشهوات أن أجعله إمامًا للمتقين.

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: أميتوا الشهوات في أنفسكم ولا تميتوا أنفسكم في الشهوات، فإن من جعل شهوته تحت رجليه فر الشيطان من ظله كما أن من جعلها في قلبه ركبه الشيطان فصرفه كيف شاء بتسليط الله تعالى، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الجنة ترجع بجملتها إلى شيئين الراحات والشهوات ولا يدخل أحد الجنة إلا بترك الراحات والشهوات في الدنيا.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: سيأتي على الناس زمان يكون همة أحدهم بطنه ودينه هواه وسيفه لسانه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: ليست الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام من نفسك.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: ما عالجت شيئًا أشد من نفسي مرة معي ومرة علي، وكان يقول: كفوا أنفسكم عن الشهوات قبل أن يخاصم بعضكم بعضًا، ومن

أدلة القوم في هذا الخلق قول النبي ﷺ: [حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات] وقد ورد أنه قدم إلى رسول الله ﷺ مرة سويق اللوز فرده وقال: [هذا طعام المترفهين في الدنيا]، وكان أبو هريرة ﷺ يقول: ما زاد على لون واحد من الطعام فهو طعام الفساق اهـ، وسيأتي زيادة على ذلك في محله إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

عدم التغالي

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم التغالي في الثياب بل كانوا يلبسون ما وجدوا من الحلال ولو خيشة، وإذا لبس أحدهم جبة أو عمامة صوف لا يتغالى في ثمنها عكس ما عليه الفقراء في هذا الزمان فربما تكون جبة أحدهم أو عمامته أغلى ثمنًا من ثياب التجار، اللهم إلا أن يكون أحدهم ممن لا تدبير له مع الله تعالى فهذا يلبس ما شاء من المباح، وقد كان حاتم الأصم وأصحابه ﷺ لا يلبسون من الدنيا إلا ما خلق من الثياب وصارت فيه رقع كثيرة، وقد كان أويس القرني ﷺ يلتقط الخرق من المزابل ثم يخيطها بعد غسلها ويلبسها.

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يلبس الجبة السوداء حتى تنشق عليه وقالوا له مرة: كم لهذه الجبة عليك فقال تسع سنين ما نزعتها قط، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يلبس الثوب حتى يتسخ جدًا، فإذا قيل له ألا تغسل ثوبك يقول: الأمر أعجل من ذلك، وقد قال علي بن أبي طالب لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما إن أردت اللحوق بصاحبيك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع.

وقد كان أبو ذر ﷺ بيته خال من المتاع ليس فيه سوى المطهرة التي يتوضأ منها فقيل له يومًا ألا تجعل في بيتك متاعًا، فقال: إن رب البيت لا يدعنا نقيم فيه، وإن لنا بيتًا آخر سنوجه إليه صالح أعمالنا إن شاء الله تعالى، وكان أبو إدريس الخولاني رحمه الله تعالى يقول لأصحابه لا تعتنوا بغسل ثيابكم فلقلب نقي في ثوب دنس أحب إلى الله تعالى من قلب دنس في ثوب نقي.

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: كان أصحاب رسول الله ﷺ أخشن منكم ثيابًا وأرق قلوبًا وسيأتي زمان يكون أهله أرق ثيابًا وأخشن قلوبًا، وكان أبو عبيدة ﷺ يقول رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، وقد قيل مرة لأبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى ألا تسرح

لحيتك، فقال له: إني إذا لفارغ القلب، وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: ربما أريد أن أغسل ثوبي فأفكر في قلبي فأتركه، وكان يغسل ثوبه بالأشنان فقط دون الصابون، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى لا يزيد على العباءة صيفاً وشتاءً ليلاً ونهاراً، وكان أبو إسحاق السبيعي رحمه الله تعالى يقول: كانت طيالس الناس قعر بيوتهم ولم يكن يلبس الطيلسان على عمامته إلا شهر بن حوشب فقط رحمه الله، وقد كان أنس بن مالك ﷺ يقول: ما شبهت الناس اليوم في المساجد وعليهم الطيالسة إلا بيهود خيبر اهـ.

(قلت) المطلوب من الطيلسان على الرأس إنما هو كف النظر عن فضول النظر للحيطان وغيرها، وليس هو بكبير أمر وإنما الشأن أن يلبس على قلبه طيلسانه يمنعه أن يمد بصره إلى شيء من شهوات الدنيا، قال تعالى: [لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ] [1]، ولكل مقام رجال والله أعلم، وقد كان عروة بن الزبير رضي الله عنهما يقول: رأيت رداء رسول الله ﷺ الذي كان يخرج به إلى الوفود طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر فكان عند الخلفاء بعده ﷺ حتى خلق كانوا يلبسونه يومي العيدين، وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: يا قارئ مالك وللطيلسان إنما ينبغي لك مدرعة صوف وعصا كراع تفر من الله إلى الله وتشوق إخوانك إلى الله، وقد كان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول: رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في طريق مكة فقومت ما عليه من الثياب حتى نعله فوجدت ذلك يساوي درهماً واحداً أو أربع دوانق، واعلم يا أخي أن دليل القوم في هذا الخلق قوله ﷺ: [البذاذة من الإيمان] والبذاذة لبس الخلق من الثياب فلا يبالي الشخص بأي ثوب لبس، والحمد لله رب العالمين.

عدم الإسراف

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم إسرافهم في الحلال إذا وجدوه وذلك لأن الحلال غريب في كل زمان بحسب تفاوت أهله في المقام، فربما كان حلالاً عند قوم وغير حلال عند قوم آخرين وقد كان السلف يقدمون كسف الدراهم الحلال على سائر مهماتهم وذلك لأنهم من أبناء الآخرة بيقين، والأعمال الأخروية الخالصة لا تقع إلى على يدي من أكل حراماً أو شبهات، فإن من أكل حراماً نشأ عنه فعل الحرام ومن أكل شبهة نشأ عنه فعل الشبهة حتى لو أراد من أكل الحرام أن يطيع الله لما قدر على ذلك.

---

(١) سورة الحجر : الآية ٨٨.

وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: ما ثم اليوم أقل من درهم طيب ولو وجدناه لاستشفينا به مرضانا، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: دين الرجل حيث رغيفه من حل وإن أهل بيت يوجد على مائدتهم الآن رغيف من حل لغرباء في هذا الزمان، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: كسب الحلال أشد على المؤمن من نقل جبل إلى جبل، وقد كان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: إن لم ير العبد الحلال في زمانه كالميتة للمضطر وإلا هلك.

وقد سمع الحسن بن علي رضي الله عنهما يقول: اللهم ارزقني حلالاً صافيًا، فقال له يا هذا سل ربك رزقًا لا يعذبك عليه، فإن الحلال الصافي إنما هو رزق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى كثيرًا ما يعمل إلى آخر النهار فإذا أعطوه اجرته نظر إليها وقال لأصحابه: إني أخاف أن أكون لم أبذل قوتي كلها التي طلبها مني صاحب الزرع ثم يتركها ويذهب طاويًا تلك الليلة، وكان يرى الحضور مع الله تعالى في عمل الحرفة شرطًا للحل، وكل شيء عمله بلا حضور لا يأخذ له أجرة.

وكان سعد بن كدام رحمه الله تعالى يقول: لا أعرف اليوم بقي من الحلال إلا ما يشربه الرجل من الدجلة أو النيل بكفه قال: وطلب رجل الحلال فما صفا له إلا الحشيش الذي على حافات الأنهار فصار يأكل منه حتى اخضر جلده ثلاثين سنة، فإذا هو بهاتف يقول له الآن قد صفا لك أكل الحشيش وخلصت من الحرام، قال: وامتنع بعضهم من الأكل مما يدخل أيدي بني آدم ثم ذهب إلى البرية يأكل من حشيشها فنودي في سره هب أنك تتورع من اليوم فما تفعل في القوة التي اكتسبتها حتى مشيت إلى هنا فانظر من أين حصلتها.

(وقد سئل مالك بن دينار) رحمه الله تعالى عن نبيذ الجرار، فقال للسائل: ويحك انظر إلى التمر من أين هو قبل أن ينبذ في الماء، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: رأيت عابدًا يقوم إلى الصلاة بثقل فنظرت فإذا هو من عدم صفاء مأكله ولو أنه أكل حلالاً لم يحصل له ثقل.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا ذهب إلى وليمة أخذ منها رغيفًا يأكل منه فإذا قال له صاحب الوليمة هلا تأكل من خبزي يا سيدي يقول له: إنك تدري خبزك من أين هو، وأنا أدري خبزي من أين هو فكل واحد يأكل مما يدري. (قلت) وممن أدركته من أصحاب هذا المقام سيدي الشيخ محمد بن عنان كان رحمه الله تعالى إذا دعي إلى وليمة يأخذ منها رغيفًا يأكل منه إذا نصب السماط.

وقد سئل سفيان الثوري عن فضل الصف الأول فقال: انظر رغيفك من أين هو فكله وصل في أي صف شئت ولا حرج عليك، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: لا يقبل الله صلاة العبد وفي جوفه شيء من الحرام، وكان السري السقطي رحمه الله تعالى يقول: النجاة في ثلاث سبيل الهدى وكمال التقى وطيب الغذاء.

وكان وهيب بن ورد رحمه الله تعالى يقول: لو صمت وصليت حتى صرت مثل هذه السارية ما ينفعك ذلك إلا بعد أن تنظر ما يدخل جوفك واعلم أن دليل القوم في هذا الخلق قوله تعالى: [كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا] [1]وهو خطاب للرسل، وقد صرح في الحديث بأن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين اهـ، ومن أدلتهم أيضًا ما ورد أن رسول الله ﷺ قال: [لا يكتسب عبد مالاً من حرام فيبارك له فيه ولا يتصدق منه فيؤجر عليه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو الخبيث بالطيب] اهـ.

فانظر يا أخي إلى طعامك في هذا الزمان وعليك بالجوع المفرط وإياك أن تأكل من طعام أمير أو مباشر أو قاض فضلاً عن أطعمة الظلمة والمكاسين من غير تفتيش فإنك تهلك في دينك ولو كان على رأسك عمامة صوف وجبة ولك عذبة، فافهم والحمد لله رب العالمين.

كثرة الوصايا

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الوصايا من بعضهم لبعض وقبولهم المواعظ وشكرهم الواعظ وعدم رؤية أحدهم في نفسه أنه قام بواجب حق من نصحه ولو أحسن إليه مدى الدهر. وذلك لأن الأمور الأخروية لا تقابل بالأعراض الدنيوية وقد قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: أوصني، فقال له: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك الله حيثما كنت، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: أوصني، فقال له: احذر أن تكون ممن يخالط الصالحين ولا ينتفع بهم أو يلوم المذنبين ولا يجتنب الذنوب أو ممن يلعن الشيطان في العلانية ويطيعه في السر.

وقال رجل للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: أوصني، فقال له: هل مات والدك؟ قال: نعم، فقال له: قم عني فإن من يحتاج إلى من يعظه بعد موت والده لا تنفعه موعظة. وقال رجل لمحمد بن واسع رحمه الله: أوصني، فقال له: كن ملكًا في الدنيا والآخرة، قال:

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

كيف ذلك؟ قال: ازهد في الدنيا، فقال له الرجل زدني، قال له: اجعل نفسك ذنبًا واجلس إلى الناس ولا تجعل نفسك رأسًا وتطلب منهم أن يجلسوا إليك.

وقد دخل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يومًا على عابد وقال له: جئتك لأجل أن تعظني، فقال له العابد: لو علمت أنك ممن يخاف الله تعالى لوعظتك فغشى على عمر من كلامه، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام بالمدينة المشرفة فقلت له: أوصني، فقال: إياك يا عمر أن تكون وليًا لله تعالى في العلانية وعدوًا له في السر، وقال رجل لعيسى عليه الصلاة والسلام: عظني يا روح الله، فقال له: إلى كم يوعظ أحدكم ولا يتعظ لقد كلفتم الواعظين شططًا وتعبًا.

(وقال رجل) للحسن البصري رحمه الله تعالى أوصني، فقال له: لا تذنب فتلقى نفسك في النار مع أنك لو رأيت أحدا يلقى برغوثا في النار لأنكرت عليه وأنت تلقي نفسك في النار كل يوم مرات كثيرة ولا تنكر عليها.

(وقال رجل) لعبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى أوصني، فقال له: اترك فضول النظر وتوفق للخشوع واترك فضول الكلام توفق للحكمة، واترك الخوض في ذات الله توق الشك والنفاق، وقال رجل لمحمد بن سيرين رحمه الله تعالى أوصني، فقال: لا تحسد أحد فإنه إن كان من أهل النار فكيف تحسده على دنيا فانية سيصير بعدها إلى النار، وإن كان من أهل الجنة فاتبعه في أعمالها واغبطه عليها فإن ذلك أولى من حسدك له على الدنيا.

(وقال رجل) لأبي الدرداء ﷺ أوصني، فقال له: اذكر يومًا تصير السريرة فيه علانية. (وقال رجل) لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أوصني، فقال له: إياك أن تتكبر أو تأكل شيئًا من أموال الناس بغير حق فإن من تكبر على الناس ذل ومن اغتنم أموال الناس افتقر.

(وقد سمع الحسن البصري) رحمه الله تعالى مرة رجلا يقول: المرء مع من أحب، فقال له: لا يغرنك يا أخي هذا القول فإنك لن تلحق بالأبرار إلا إن عملت بمثل أعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبيائهم وليسوا معهم في الجنة لتخلفهم عنهم في الأعمال ومخالفتهم لهم، ثم قال واعجبا من قوم أمروا بالزاد ونودوا بالرحيل وهم جلوس يضحكون، فإن من كان الليل والنهار مطيته فهو يسار به ولا يشعر.

وكان شقيق البلخي رحمه الله تعالى يأمر أصحابه بالتهيؤ كل وقت للموت ويقول

ربما يتهيأ الواحد منا خمسين سنة للموت ولا يصح له تهيؤ إنما التهيؤ لمن زهد في الدنيا كعمر بن الخطاب ﷺ فإنه كان يقول للموت كل يوم صباحًا ومساءً يا ملك الموت خذني أي وقت شئت اهـ. ومن أدلة القوم في هذا الخلق قوله ﷺ: [اغتنم خمسًا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك] اهـ فاعلم ذلك يا أخي وانتبه لنفسك، والحمد لله رب العالمين.

قبول النصح

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أنهم لا ينصحون ويوصون إلا من علموا منه بالقرائن قبول النصح والوصايا منهم، وأما من علموا منه أنه تتحرك نفسه إذا نصحوه نحو ذلك فالأولى الإعراض عنه وتأخير ذلك حتى يجد أحدهم طريقًا شرعيًا يدخل إليه منها، وكان حامد اللفاف رحمه الله تعالى يقول: لا تنصح أحدًا إلا إن علمت منه القبول وإلا فر بما أعقبك ذلك النصح ضررًا لا تطيقه، وإياك أن تطلب الرياسة على أحد في هذا الزمان فإن كل أحد قد عد نفسه أبا فلان، وإياك أن تقتدي بكل أحد فإن الأهواء قد انتشرت انتشارًا عظيمًا وإياك أن تفشي سرك إلى أحد فإن الأمانة قد ارتفعت.

(قلت) وقد صدق رحمه الله فإنه وقع لي أن نصحت شيخًا من مشايخ العصر بأنه لا يأكل من بيوت الظلمة وكان ذلك بيني وبينه فمكث سبع عشرة سنة لا يكلمني وما صالحته إلا بجهد عظيم، فكيف حالي معه لو كانت نصحته في الملأ لعله كان يسعى في قتلي، فاعلم ذلك يا أخي واعرف زمانك وانصح إخوانك بسياسة، والحمد لله رب العالمين.

تقليل الأعمال

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تقليل أعمالهم في عيونهم من حيث كسبهم لها ولو كانوا على عبادة الثقلين فكانوا لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من حقوق الله عز وجل، وقد قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه الشريفان وقطر منهما الدم، فقالوا له: تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: [أفلا أكون عبدًا شكورًا] وقد كانت امرأة مسروق رحمهما الله تقول: كان مسروق رحمه الله يصلي حتى تنتفخ ساقاه من طول القيام حتى كنت أجلس خلفه أبكي رحمة له، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركت أقوامًا كان أحدهمْ أشح على دينه وعمره من

أحدكم على ديناره ودرهمه، وكان عمر بن عتبة رحمه الله تعالى يخرج إلى المقابر كل ليلة فيصلي تجاهها من العشاء إلى الفجر ثم يرجع فيصلي الصبح في المسجد، وكان يقول لأهل المقابر إذا أقبل عليها يا أخواني قد طويت صحفكم.

وكان أويس القرني رحمه الله تعالى يحي الليل كله في سجدة واحدة فكان لا يرفع رأسه حتى يحس بعظمه قد ذاب من شدة البكاء بين يدي ربه عز وجل، قال: ولما تاب عتبة الغلام رحمه الله تعالى كان لا يهنأ بأكل ولا بشرب ولا نوم حتى مات، قال: ولما حج مسروق رحمه الله تعالى كان لا يضع جنبه إلى الأرض أبدًا وإنما كان يغفل وهو جالس في بعض أوقات، وكان مجاهد رحمه الله يقول لعباد أهل زمانه: أنتم لستم عبادًا ولكنكم متلذذون بالعبادة، ولقد أدركنا أقوامًا ما كانوا إذا بلغ أحدهم أربعين سنة طوى فراش النوم حتى يموت ﷺ.

وكان كهمس بن الحسن رحمه الله تعالى يصلي كل يوم ألف ركعة فما يفرغ منها حتى يصير يزحف من الضعف ثم يقول لنفسه بعد ذلك قومي لهذه العبادة الأخرى يا مأوى كل شر، فلما ضعف آخر عمره كان يصلي كل يوم خمسمائة ركعة ثم يبكي ويقول: يا ويلي من ربي عز وجل وقد نقضت نصف عبادتي.

وقد كان أويس القرني رحمه الله تعالى إذا غلبه النوم انتبه فزعًا مرعوبًا ثم يقول: اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة ونفس لوامة وبطن لا تشبع، وكان ابن الجويرية رحمه الله تعالى يقول: صحبت أقوامًا كابدوا الليل فما رأيت أحسن مكابدة من أبي حنيفة ﷺ أقمت عنده ستة أشهر فما رأيته وضع جنبه إلى الأرض في ليلة من الليالي.

وكان ابن مقاتل رحمه الله تعالى يقول: صلى أبو حنيفة ﷺ الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة، وفي رواية أربعين سنة وفي رواية سبعًا وأربعين سنة وفي رواية خمسين سنة، ولعل كل واحد أخبر عنه بما في زمنه، وكان يوسف بن خالد رحمه الله تعالى يقول: كان أبو حنيفة ﷺ يحيي نصف الليل فقط فمر يومًا على قوم فسمعهم يقولون هذا يحيي الليل كله وأشاروا إليه، فقال أراني أوصف بما لا أفعل ثم قام الليل كله من ذلك الوقت حتى مات.

وكان أبو مطيع رحمه الله تعالى يقول: لم يكن لأبي حنيفة ﷺ فراش في الليل إنما كان يغفل وهو جالس غفلة يسيرة، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: ما

رأيت أورع من أبي حنيفة ولا أعبد منه رضي الله تعالى عنه، وكان أبو مسهر رحمه الله تعالى لا يضع جنبه إلى الأرض لا ليلاً ولا نهاراً لدوام شهوده انه في حضرة ربه عز وجل، وكانت وسادته ركبته فكان ينام لحظة يسيرة بين الظهر والعصر.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: ما نمت قط إلا وخفت ان ينـزل علي العذاب وأنا نائم، ولو قدرت ان لا انام ما نمت ابدا، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: أدركت سبعين رجلاً من أهل بدر رضي الله عنهم لو رأوكم لقالوا هؤلاء مجانين ولو رأوا ما فعله الناس اليوم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب أو ليس لهم في الآخرة من نصيب.

وكان أحدهم لا يخرج من بيته إلا للوضوء وصلاة الجماعة في المسجد، وكان المغيرة رحمه الله تعالى يقول: رمقت مالك بن دينار رحمه الله تعالى ليلة فتوضأ بعد العشاء ثم قام يريد ان يصلي فقبض على لحيته وصار يبكي ويتضرع إلى الفجر ولم يقدر يركع شيئاً، وقد كان أحدهم يحن إلى الليل إذا اقبل ليخلو فيه بحضرة ربه عز وجل ويتكدر من النهار إذا اقبل خوفاً من الناس أن يشغلوه عن عبادة ربه.

وكانوا قد بلغوا من العبادة الغاية القصوى بحيث لو قيل لأحدهم ان القيامة تقوم غداً لا يجد زيادة على ما هو فيه، وكان ابراهيم بن ادهم رحمه الله تعالى كثيراً ما يصلي العشاء ثم يضطجع إلى الصباح ويقول: ان خوف النار لم يدعني هذه الليلة انام ولا أصلي ولا أتكلم ثم يقوم لصلاة الصبح بوضوء العشاء، وكان شداد بن أوس رحمه الله تعالى كأنه حبة قمح في مقلاة إلى الصباح ويقول: ان خوف النار منعني أن انام أو أصلي أو اتكلم هذه الليلة.

(قلت) إنما خاف الأكابر من النار لما فيها من الحجب عن الله تعالى لا لذاتها لأنهم لا يخافون إلا من الله تعالى وحده، كما ان من أحب الجنة من الأكابر لم يحبها لنعيم الأكل ونحوه وإنما أحبها لكونها دار المشاهدة لله تعالى والله أعلم.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركت أقواماً كان أحدهم يصلي حتى يأتي إلى فراشه زحفاً، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: لو كانت العبادة طائراً لكان جناحها الصوم والصلاة وكانوا لا ينامون في الشتاء إلا فوق الأسطحة، كما أنهم كانوا يلبسون رقاق الثياب حتى يبرد أحدهم فلا ينام.

وقد كانت فاطمة بنت عبد الملك تقول ما أعلم أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله اغتسل من جنابة منذ ولى الخلافة، وكان الأسود بن يزيد رحمه الله يصوم في شدة الحر حتى يصفر بدنه تارة ويخضر أخرى، فقيل إلى كم تعذب هذا الجسد؟ فقال: إنما أطلب راحته ونعيمه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى قد حفر في بيته قبرًا فكان ينزله كل ليلة فيصلي فيه إلى الصباح، قال: ولما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كان لا ينام ليلاً ولا نهارًا، أو يقول إن نمت في الليل ضيعت نفسي وإن نمت في النهار ضيعت رعيتي وأنا مسئول عنهم، فانظر يا أخي إلى حالك وتأمل قول بعض هؤلاء الجماعة الذين برزوا في هذا الزمان فأكلوا الحرام والشبهات ولبسوا الثياب المبخرات وصار أحدهم أكثر ما يجري على لسانه فضل الله تعالى واسع يعني إن أكلنا الحرام لا ينقص لنا مقامًا، فاعلم يا أخي ذلك وناقش نفسك إن قبلت النصح، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الخوف

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة خوفهم من دخول الآفات في علمهم وعملهم في إرشادهم الأمة إلى ما فيه صلاح الدنيا والأخرى، فلا تظن يا أخي أن أحدًا منهم كان يحب التقدم في أمر من أمور الدنيا بل كان أحدهم يكره الفتيا ويقول: إن رسول الله ﷺ قال: [إن المفتي يدخل فيما بين الله وبين عباده] وقد كان عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى يقول: أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ فما كان منهم رضي الله تعالى عنهم محدث إلا ويود أن أخاه كان كفاه الحديث، ولا مفت إلا ويود أن أخاه كفاه الفتيا.

وكان يزيد بن أبي حبيب رحمه الله تعالى يقول: إن من فتنة العالم في دينه أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت والاستماع، وقد قيل للإمام مالك ﷺ إن فلانًا كثير العبادة، فقال: نعم ولكنه يتكلم كلام شهر في جمعة، وفي رواية في يوم، وقد كان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: جهدنا كل الجهد في إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى أن يجلس للناس في المسجد ليحدثهم فأبى، وكان إذا دخل المسجد لا يستند إلى سارية ولا إلى جدار، وكان الزهري رحمه الله تعالى مع وفور علمه لا يفتي ويقول من أفتى بغير وفور كان للإمام معاقبته لأن المفتي على شفير جهنم.

(قلت) ولذلك لم يتصدر غالب القوم للفتيا احتياطًا لأنفسهم، وكان الفضيل بن

عياض رحمه الله تعالى يقول: بذل الدنانير للناس أحب إلي من بذل الحديث لهم وأهون على نفسي اهـ. وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: إن خفق النعال حول الرجال قلما تثبت مع قلوب الحمقى من أمثالنا، قال: والتفت عبد الله بن مسعود ﷺ يومًا فرأى الناس يمشون خلفه فقال: والله لو رأيتم ما أصنع إذا أغلقت بابي من الغفلة عن الله تعالى واشتغالي بالعيال ما تبعني منكم أحد.

وقد نظر عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي بن كعب ﷺ والناس حوله فعلاه بالدرة وقال: إنها فتنة للمتبوع وذلة للتابع، وكان سلمان الفارسي ﷺ إذا رأى الناس يمشون خلفه يقول: هذا خير لكم وشر لي فإن شئتم فارجعوا عني، وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى إذا مشى خلفه أحد يقول: والله لولا أتقي ألسنتكم ما حدثتكم، فقيل له: يا أبا محمد لعل الله ينفع بك وبعلمك الناس، فقال: هذا بعيد فإني لم أنتفع أنا بعلمي فكيف ينتفع به غيري، وكان يقول: من أحب أنكم تجلسون إليه فلا تجلسوا إليه كما أن من أحب إنكم تقومون له فلا تقوموا له، وكان يحيى بن سعيد رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: إذا استحلى أحدكم الحديث فلا يحدث.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: أدركنا أقوامًا كانت الكلمة من الحكمة تبدو لأحدهم فيكتمها خوف الشهرة ولو أنه كان نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، وكان الناس إذا اجتمعوا يكره أحدهم أن يخرج أحسن ما عنده من الكلام، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إن لله تعالى عباداً أسكتتهم خشية الله تعالى وإنهم لفصحاء، وقد كان الحاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: لا يجلس في الجامع إلا جَامع للدنيا، وقد قال إسماعيل بن خلف لسفيان الثوري رحمهما الله تعالى يومًا: إني أراك لنشطًا إذا حدثت الناس ويعلو صوتك، وإذا كنت لا تحدث أراك كالميت، فقال له: يا أخي أما علمت أن للكلام فتنة والله ما جلس إليّ أكثر من ثلاثة أنفس إلا وتنكرت على نفسي، وقد كان أنس بن مالك ﷺ يقول: همة السفهاء الرواية، وهمة العلماء الدراية.

وكان إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى يكره القصص يعني الوعظ ويقول: بلغنا أن أمير المؤمنين عليًا ﷺ دخل مسجد الكوفة فرأى قاصًا يقص على الناس فقال: ما هذا؟ قالوا: شخص يحدث، فقال: هذا رجل يقول اعرفوني أنا فلان، وقد مر إبراهيم بن أدهم على حلقة الأوزاعي رحمهما الله تعالى فرأى ازدحامًا كثيرًا فقال: لو كان هذا الازدحام على أبي هريرة ﷺ لعجز عنه، فبلغ ذلك الأوزاعي فترك الجلوس من ذلك اليوم، قال: ولما قدم عيسى

بن يونس رحمه الله تعالى إلى مكة فأحاط به الناس في المسجد الحرام وازدحموا عليه فمر به الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى فدنا منه وقال له يا أخي انظر إلى قلبك فلعله تغير من كثرة الازدحام عليك، فنظر عيسى إلى نفسه ساعة ثم قام فورًا وترك المجلس من ذلك اليوم.

وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إن استطعت أن تكون عالمًا لا يعرفك الناس فافعل، فإن الناس لو عرفوا ما في نفسك لأكلوا لحمك، وقد طلب الناس من سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أن يجلس يحدثهم فأبى وقال: ما أنا بأهل أن أحدث ولا أنتم بأهل أن تسمعوا وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل: افتضحوا فاصطلحوا.

وقد قيل لعلقمة رحمه الله تعالى ألا تجلس فتحدث الناس فتؤجر على ذلك فقال: أما يرضى المتكلم أن ينجو كفافًا يعني لا له ولا عليه، قال: ولم ترك بشر الحافي رحمه الله تعالى الجلوس للحديث قالوا له: ماذا تقول لربك يوم القيامة إذا قال لك لما تركت تحديث الناس بأحاديث نبيي محمد ﷺ؟ فقال: أقول يا رب أنك أمرتني فيه بالإخلاص ولم أجد عند نفسي، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يحدث فكان إذا وجد لذة في نفسه من حسن كلامه وكبر حلقته مثلاً قام فزعًا مرعوبًا وترك التحديث، وقال أخذنا والعياذ بالله تعالى ولم نشعر، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: لا يخلو القاص من إحدى ثلاث إما أن يسمن قوله بما يهزل دينه، وإما أن يعجب بقوله، وإما أن يقول ما لا يفعل.

(قلت) وما قاله رحمه الله تعالى محمول على الغالب وإلا فالعارف مطلوب منه أن يسمن قوله وأن يعجب به من حيث كونه شرعًا لغيره ويتهم نفسه بأنه يقول ما لا يفعل إذ لا يخرج أحد عن اللوم ولو بالغ في الإخلاص في عمله وذلك محمول على الخلق، وكان أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى يقول: كثير من الناس يعيش الناس بعلمهم ويهلكون في نفوسهم يعني بالعجب ورؤية النفس.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لا تكن ممن يجمع علم العلماء ويفعل أفعال السفهاء، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: كنت آتي أنس بن مالك ﷺ أنا وثابت البناني ويزيد الرقاشي نسمع منه الحديث فكان يقول لنا ما أشبهكم بأصحاب رسول الله ﷺ ثم يقول: رءوسكم ولحاكم.

وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: مثل الذي يحمل العلم ولا يعمل به

كمثل الأعمى يحمل سراجًا ليستضيء به غيره، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: لو أن العلماء إذا لم يعملوا بعلمهم قالوا للناس خذوا منا علمنا ولا تقتدوا بنا في ترك الأعمال الصالحة لتنجوا كان ذلك خيرًا ولكنهم لبسوا على الناس وادعوا العمل فجروا الناس إلى أعمالهم الخبيثة.

وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول إن كنتم علماء حكماء فلا تجعلوا أسماعكم غرابيل تمسك النخالة وترسل الطحين، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: إذا ناظرت عالمًا فغضب فلا تخف منه فإنه لم يبق له رأس مال من دين، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول لعلماء زمانه: لقد أزريتم العلم وأذهبتم قدره والله لو رأى عمر -يعني أباه- أحدًا مثلي وهو يحدثكم لأوجعني وإياكم ضربًا اهـ.

وكان الأعمش رحمه الله تعالى يقول: إن لي نحو عشرين سنة ما رأيت عالمًا مخلصًا في علمه، إنما صار العلم حرفة للمفاليس، وكان شعبة رحمه الله تعالى يقول: ما رأيت أحداً طلب الحديث خالصًا إلا هاشم الدستوائي رحمه الله تعالى، وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: قد رضي علماء زماننا بهذا الكلام وتركوا العمل.

وقد كان السلف ﷺ يفعلون ولا يقولون ثم صار الذين من بعدهم يفعلون ويقولون، ثم صار الذين من بعدهم يقولون ولا يفعلون وسيأتي زمان أهله لا يقولون ولا يفعلون، وقد كان عبد الرحمن السلمي رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتعلمون القرآن عشر آيات عشر آيات فلا ينتقلون من عشر حتى يعلموا بها، وقد قيل للشعبي رحمه الله تعالى مرة أفتنا أيها العالم، فقال: لا تقولوا لمثلي عالم فإن العالم هو الذي تقطعت مفاصله من خشية الله تعالى.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: العالم طبيب الدين ما لم يجلب الدنيا بعلمه، فإذا جلب الدنيا بعلمه فقد جلب الداء إلى نفسه، وإذا جلب الداء إلى نفسه فكيف يطب غيره، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لن تهلك أمة إلا من جهة علمائها السوء جلسوا على طريق الرحمن فقطعوا الطريق على عباد الله بأعمالهم الخبيثة اهـ.

وكان مالك بن مغول رحمه الله تعالى يقول: سئل رسول الله ﷺ أي الناس شر، فقال: [العلماء إذا فسدوا]، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول من علامة من يطلب العلم لله تعالى أن يتخلق بالزهد والورع والخشية من الله ويحتمل الأذى من الناس، وقد كان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى يقول: قد ذهب العلماء ولم يبق من علمهم إلا غبرات في أوعية سوء.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: إن العالم إذا لم يكن زاهدًا فهو عقوبة لأهل زمانه وفتنة، وكان يقول يا أهل العلم قد صارت بيوتكم كسروية وأخلاقكم شيطانية فأين المحمدية. وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: إني أخاف أن يقال لي يا عويمر ماذا صنعت فيما علمت؟ وقد سئل الإمام مالك ﷺ عن الراسخين في العلم من هم؟ فقال: هم العاملون به المتبعون لآثار من قبلهم، وقد سئل مرة الشعبي رحمه الله تعالى عن مسألة فقال لا أدري، فقالوا له: ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت عالم العراق، فقال إن الملائكة عليهم الصلاة والسلام أكثر أدبًا وعلمًا منا ولم تستحي من قولها [سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ][1].

وكان كعب الأحبار ﷺ يقول: يكون في آخر الزمان علماء يتغايرون على القرب من الأمراء كتغاير الرجال على النساء أولئك شرار خلق الله سبحانه وتعالى، وكان المعتمر بن سليمان رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تقولوا إن أصحاب رسول الله ﷺ لعبوا الشطرنج أو لبسوا المعصفر أو شربوا النبيذ المثلث فتكونوا فاسقين إنما فعل أحدهم ذلك قبل بلوغ النهي فأين أنتم منهم وأنتم تفعلون بما يخالف كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق، ومن جمع بينهما تخلص اهـ.

وقد كان الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى يتكلم بالكلام العاري من الإعراب ويقول إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع، ولقد أعربنا في الكلام ولحنا في العمل، وكان أبو حفص الحداد رحمه الله تعالى يقول لعلماء زمانه: إلى متى تكتبون الكراريس والدواوين، إنما العلم آلة فإذا حضر العدو وأنت تجمع الآلة فمتى تقاتل، وكان الإمام مالك ﷺ يقول: إذا أحب العالم أن يعرف بالعلم فهو شر من إبليس.

(قلت) ولعل مراده ﷺ أن يعرف لغير غرض شرعي، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول لعلماء زمانه كم من مذكر لله تعالى منكم وهو له ناس، وكم من مخوف من الله تعالى منكم وهو جريء على معاصيه، وكم من مقرب إلى الله تعالى وهو بعيد منه، وكم من داع إلى الله وهو فار منه.

وقد وقفت امرأة يومًا على إبراهيم بن يوسف رحمه الله تعالى تنظر إليه، فقال لها:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٢.

هل لك حاجة؟ فقالت: لا غير أنكم ترون أن النظر إلى وجه العالم عبادة، فأنا أنظر إليك لأجل ذلك، قال: فبكى إبراهيم حتى خنقته العبرة ثم قال: إن هذه المرأة قد غلطت في أن الذين كان النظر إلى وجوههم عبادة قد صاروا في المقابر بين أطباق الثرى منذ أربعين سنة مثل أحمد بن حنبل وخلف بن أيوب وشقيق البلخي وأضرابهم ﷺ فسيري إلى مقابرهم وتأملي فيها.

وكان بشر بن الحارث رحمه الله تعالى يقول: ما رأيت أحدًا في زماننا هذا أوتي العلم إلا أكل بدينه ما عدا أربعة: إبراهيم بن أدهم ووهيب بن الورد وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط ﷺ، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من أبكاه علمه فهو العالم، قال تعالى: [إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا] [1]، وقال تعالى: [إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا] [2].

فانظر يا أخي في نفسك هل وفيت بحق علمك وعملك كما وفى هؤلاء، أم أنت عنهم بمعزل وأكثر من الاستغفار ليلاً ونهار، والحمد لله رب العالمين.

عجز الإنسان

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الحط على أصحابهم إذا خالطوا الأمراء وكثرة شكرهم لمن نصحهم وكثرة اعتقادهم الفسق في نفوسهم كلما كثر علمهم وذلك لعلمهم بعجز الإنسان غالبًا عن العمل بكل ما علم، وإذا لم يعمل الإنسان بكل ما علم انسحب عليه اسم الفسق فيما لم يعمل به، فإن من العمل بالعلم البعد عن الأمراء وعدم اتخاذ العلم شبكة يصطاد أحدهم بها الدنيا والمناصب، وعدم الفرح بكبر حلقة درسه وعدم اللذات بقول الناس فلان عالم عامل أو فلان أعلم أهل هذا البلد ونحو ذلك كما أن من عدم العمل بالعلم أن يختم من أضداد هذه الصفات، وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامة عدم العمل بالعلم محبة الصيت بالصلاح والاشمئزاز من قول الناس فلان محب في الدنيا أو مراء بعلمه وعمله ونحو ذلك مما ذكرناه في كتابنا البحر المورود في المواثيق والعهود، فعلم بذلك أن من فرح بما ذكرناه أو انقبض خاطره من ضده فهو لم يعمل بعلمه فليبك على نفسه.

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٧.
(٢) سورة مريم : الآية ٥٨.

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: [أكثر منافقي أمتي قراؤها]، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: كان في بني إسرائيل قراء فسقة وسيكون في هذه الأمة أمثالهم، وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: استعيذوا بالله من أمور تحدث في القراء بعد مائتي سنة واعلموا أن من يدخل النار تفسقاً أخف ممن يدخلها تقربا وهو مراء بعلمه وعمله، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: من دخل النار بالمعاصي الظاهرة أخف ممن دخلها بالرياء والسمعة.

وقد كان حبيب العجمي رحمه الله تعالى يقول: ما كنا نظن أن نعيش إلى زمان صار الشيطان يلعب بالقراء فيه كما يلعب الصبيان بالأكرة، وكان عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى يقول: كان فسقة الجاهلية أكثر حياء من قراء زماننا، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: والله إني لأخشى إذا قيل يوم القيامة أين القراء الفسقةأن يقال وهذا منهم فخذه. وقد قال رجل لحماد بن زيد رحمة الله تعالى: أوصيني، فقال: إياك أن تجعل لك أسما مع القراءً في صحيفة.

وكان سفيان الثورى رحمة الله تعالى يقول: احذروا القراء واحذروني معهم فاني لو خالفت أكثرهم ود إلى في رمانة، فقلت هي حامضة، وقال هو: بل حلوة، لا آمن من يسعى في قتلي عند سلطان جائر، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: أشتهي أن تكون داري بعيدة عن القراء مالي ولقوم إذا رأوني في نعمة حسدوني وإن رأوني في زلة هتكوني، وقد كان ذو النون المصري رحمه الله تعالى يقول: إياك والقرب من القراء فإنهم ربما حسدوك فرموك بالزور والبهتان وقبل ذلك منهم.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ما أقبح قلة ورع العالم وما أقبح قول الناس أن العالم الفلاني قدم حاجا بمال الأمير الفلاني أو بمال المرأة الفلانية، وفي الحديث [سيأتي على أمتي زمان يكون سماعكم باسم الرجل خيرا من أن تلقوه ولو لقيتموه خيرا لكم من أن تجربوه فإنكم إن جربتموه أبغضتموه وابغضتم عمله]، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: كيف تحمدون القراء مع غلظ رقابهم ورقة ثيابهم وأكلهم مخ الحنطة والله إن سف الرماد كثير على من يخشى الله ويتقيه، وكان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول: لما مات سفيان الثوري رحمه الله قال الناس للقراء: معاشر القراء كلوا الآن الدنيا بالدين فقد مات الثوري، لكونه كان أشد الناس حطأ على القراء ولكثرة مناقشته لهم رحمه الله تعالى.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لن تزال العلماء في كنف الله تعالى ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم بالمحبة فإذا مالوا إليهم رفع الله تعالى يده عنهم وسلط عليهم الجبابرة فساموهم سوء العذاب وقذف في قلوبهم الرعب، وكان فرقد السنجي رحمه الله تعالى لم يزل يلبس الكساء فقال له الحسن البصري رحمه الله تعالى أتحب أن لك فضلاً على الناس بكسائك هذا، إنه قد ورد أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية، وقد قيل مرة لمالك بن دينار رحمه الله تعالى ما لنا نراك تعرض عن الشاب القارئ الناسك، فقال: إنما أعرض عنه لكثرة تجريبي للقراء.

وقد كان حذيفة بن اليمان ﷺ يقول: إني لأكره للعالم أن يقرب من أبواب الأمراء فإنها مواقف الفتن في دار الدنيا، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: كنا نتعلم اجتناب أبواب السلطان كما نتعلم السورة أو الآية من القرآن، وكان سعيد بن مسيب رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم العالم يغشى أبواب السلطان فهو لص، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: صحبة السلطان مخاطرة عظيمة فإنك إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك فالسلامة أن لا تعرفه ولا يعرفك.

قال: ولما خالط الزهري رحمه الله تعالى السلطان قام عليه الزهاد وقالوا: قد آنست وحشته، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من يأتي بالفرائض فقط ولا يدخل على السلطان خير ممن يصوم النهار ويقوم الليل ويجاهد ويحج ويدخل على السلطان، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم العالم يأتي القاضي لغير حاجة فلا تشهدوا فيه بالخير ولا تسلموا عليه واتهموه في دينه.

وكان الضحاك بن مزاحم رحمه الله تعالى يقول: مكثت ليلة كاملة أتفكر في كلمة ترضي السلطان ولم تسخط الله تعالى فلم أجدها، وكان الأصمعي رحمه الله تعالى يقول: شرار الأمراء أبعدهم عن العلماء وشرار العلماء أقربهم من الأمراء اهـ.

وقد ذكرنا جملة من الأحاديث المحذرة من قرب الأمراء في كتاب العهود المحمدية فراجعها، وتأمل في نفسك هل أنت متخلق بالأخلاق الحسنة كما كان سلفك. والحمد لله رب العالمين.

إعطاء الناس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إذا لم يكن لهم مال وكان إخوانهم يكسونهم وينفقون عليهم أن لا يكثروا من إعطاء الناس الثياب والطعام بل يحملون كلفتهم عن إخوانهم ما أمكن ذلك لأنهم لا يدعون أحدًا عريانًا ولا جيعانًا، وقد كنت سلكت هذا المسلك فتوبني عنه شيخي سيدي محمد بن عبد الله وشيخي سيدي نور الدين السنوني رحمه الله تعالى فقلت له يا سيدي فإن أقسم على السائل بالله أو برسوله ﷺ فقال: لا تعطه وقل بدل ذلك جل الله العظيم أوصل على رسول الله ﷺ فإن القسم إنما يستحب للعبد إبراره إذا كان له مال وأما من ينفق عليه الناس فلا يؤمر بإبرار القسم إلا بطريقه الشرعي كأن لا يكون في إعطائه مانع أشد ضررًا من إبرار القسم.

ولما علم إخواني أني أعطي السائل جوختي أو فروتي أو عمامتي ولا أتوقف صار أحدهم يوقف عليّ ما يعطيه لي من الثياب وبعضهم يجعله عارية عندي وبعضهم يعلق طلاق زوجته على إعطاء ذلك لأحد بغير إذنه، فلهذا العذر تجدني أشح في بعض الأوقات على السائل ولا أعطيه ولو أنه كان سألني ما هو لي لم أشح عليه بحمد الله تعالى، ولو كان جوختي الجديدة أو صوفي الجديد في أول يوم لبسته.

فإياك يا أخي والمبادرة إلى سوء الظن بأحد من أشياخ الطريق إذا دخل عليه عريان وسأله ثوبًا من ثيابه مثلاً فلم يعطه ويقول: هذا خروج من طريق الفقراء بل افحص قبل ذلك عن القضية فربما كان ذلك الشيخ له عذر مما قدمناه، ولم يمنع ذلك السائل لشح عنه، والحمد لله رب العالمين.

الكتمان

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كتمانهم عن أهل عصرهم كل ما ينكرونه من الكرامات فإن إظهارها لا فائدة فيه اللهم إلا أن يترتب على ذلك مصلحة شرعية، فلا حرج على الولي في إظهارها وفي حال كتابتي لهذا الموضع رأى شخص رسول الله ﷺ في المنام وأرسل إلي السلام معه بأمارة صحيحة، وسأله الرائي عن مسألة فأجابه ﷺ عنها فلم يفهم الرجل الجواب، فلما رآه ﷺ قد توقف في فهمها قال له: اذهب إلى مصر واسأل عن الشعراني فإنه يشرحها لك، وكان ذلك الرجل في ناحية جرجه فسافر على أثر الرؤية إلى

مصر وسأل عني فاجتمع بي وقال: لم يكن لي في مصر حاجة إلا الاجتماع بك امتثالاً لأمره ﷺ ثم قال لي على المسألة ففسرتها له بحمد الله تعالى.

وقد كنت ذكرت في هذا الكتاب أن من أخلاق القوم ﷺ أنهم يصلون الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ في قبره الشريف، وأنهم يسمعون رده عليهم السلام حين يقولون في تشهدهم السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فتوقف في ذلك بعض أصحابنا من طلبة العلم وقالوا: ما من كرامة إلا وهي موروثة من أحد ممن سبق ولم يصل إلينا أن أحدًا من الصحابة ﷺ ولا من التابعين أن رد عليه السلام من النبي ﷺ من القبر الشريف بعد موته، فلما وقع ذلك التوقف ولم أر أحدًا يطلب الوصول إلى هذا المقام بالمجاهدة والرياضة رفعت ذلك من الكتاب.

على أنه ما من عام إلا ويصح أن يخص منه أمر كما هو مقرر في علم الأصول إلا ما استثنى شرعًا، وقد نقل العلامة ابن زهرة في تفسيره أن من الكرامات التي لم تورث ولم يقع مثلها لأحد قبل صاحبها آتيان آصف بن برخيا بعرش بلقيس، وقال هذه كرامة لم تكن موروثة عن أحد قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا غيرهم. وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يحق لأحد قدم الولاية المحمدية حتى يجتمع برسول الله ﷺ وبالخضر والياس عليهما السلام، قد درج الصادقون كلهم على ذلك فلا يقدح فيهم إنكار بعض المحجوبين عنه، وقد كان سيدي الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: هل فيكم أحد إذا سلم على رسول الله ﷺ يسمع رده عليه بأذنه؟ فيقولون: لا ليس فينا أحد يقع له ذلك، فيقول: ابكوا على قلوب محجوبة عن الله ورسوله ﷺ، ثم يقول والله لو احتجبت عن رسول الله ﷺ لحظة من ليل أو نهار ما عددت نفسي من المسلمين.

(قلت) ولكن بين الفقير وبين مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ وسماع صوته بالرد على من سلم عليه مائة ألف مقام وسبعة وأربعون ألف مقام وتسعمائة وتسعة وتسعون مقامًا فمن ادعى ذلك طالبناه بهذه المقامات فإذا رأيناه لا يعرفها كذبناه في دعواه ذلك.

وقد ادعى هذا المقام جماعة من أهل العصر في حياة سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى فأمر بحضورهم إليّ عنده فلما رآهم قال لهم: مقصدي أسمع منكم الكلام على بعض مقامات مما ذكرتم أن الله تعالى خصكم بها فلم يدر أحدهم ما يقول، فزجرهم عند ذلك وأمر بإخراجهم من حضرته فماتوا على أسوأ حال والعياذ بالله، فإياك يا أخي أن تدعي شيئًا من المقامات التي لم تصل إليها فتعاقب بحرمانها.

(قلت) وقد أخذ جماعة من أهل عصرنا بجانب عن هذا المقام بالكلية وجعلوا علو مقامهم بالاجتماع على الباشا والدفتردار وقاضي العسكر ونحوهم، وصار أحدهم إذا كان في مجلس تراه يقول، (قلت) للباشا: قال لي الباشا: قال لي الدفتردار ونحو ذلك، ولكن على كل حال هم أخف ضررًا ممن يقول قال لي رسول الله ﷺ كذا وكذا وهو غير صادق، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

ولاية القضاء

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أن لا يمكنوا أحدًا ممن ينقاد لهم أن يلي القضاء أو شيئًا من الأمانات التي لا خلاص فيها غالبًا إلا أن تعين عليه ذلك بطريق شرعي لما ورد من التحذير من مثل ذلك، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لا تكن في هذا الزمان إمامًا ولا مؤذنًا ولا عريفًا ولا تأخذ من أحد مالاً لتفرقه على الفقراء، وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يقول: أول من يُدعى للحساب يوم القيامة القضاة فلا ينجو منهم إلا القليل، وكل من ساعدهم فهو شريكهم في الشدة.

وقد استقضى هرم بن حيان رحمه الله تعالى مرة فأوقد حوله نارًا فمنعت الناس أن يأتوه في ذلك اليوم حتى عزل نفسه، قال: ولما أكرهوا الإمام أبو حنيفة ﷺ على القضاء وحبسوه كانوا يخرجونه من السجن فيضربونه أيامًا ليدخل في أمرهم له بالقضاء فلم يفعل حتى أنه بكى في بعض الأيام كبكاء الأطفال ثم صار يقول: كم من حق يبطله القاضي وكم من باطل يحقه، وكان الحابس له ابن هبيرة الوزير، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: سمعت مناديًا ينادي على جبل أبي قبيس أمان الله تعالى على كل أسود وأبيض ما عدا اثنين سفيان وفلانًا الزنديق.

وكان مسروق رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ] (١) إنها الهدية للقاضي، ومن أراد أن تستبعده الولاة فليقنع بالخل والملح، وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: صارت الولايات في هذا الزمان غالبها جور وظلم، ولو أراد الشخص أن يعدل لا يقدر على العدل لعدم استحقاق الناس ذلك، وقد ولى القضاء رجل من معارف الشيخ رحمه الله فلامه الشيخ على ذلك فقال له سيدي: ما وليت ذلك إلا لأمر

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.

بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال له الشيخ: إن هذا من غرور إبليس لك فإن من كان قبلكم من القضاة لم يصح لهم ذلك مع أن زمانهم كان قابلاً للنصح، وأما في هذا الزمان فقد صار الولاة يدعي أحدهم الولاية والصلاح ويقول نحن الأولياء لأن الناس يحتاجون إلينا ونحن لا نحتاج إلى أحد منهم اهـ.

وقد سمعت أن بعض الولاة دخل إليه شيخ من مشايخ العصر فشفع عنده شفاعة فردها ولم يقبلها، ثم جعل يقول: إنما يشفع عندنا هؤلاء المدعون للصلاح طلبًا للشهرة لا مصلحة ومحبة للمشفوع فيه فتسول لأحدهم نفسه أنه إذا شفع وقبلت شفاعته يصير الناس يقولون ما في مصر الآن إلا فلان فإنه هو الذي يحمل هموم المسلمين ويشفق عليهم، فإذا اشتهر بذلك تسامع به الملوك والوزراء فرتبوا له الجوالي والأرزاق فهذا هو سبب رد شفاعته وفي ذلك مصلحة له خوفًا عليه من الإعجاب الذي فيه هلاك دينه اهـ، وقد رأيت بعض القضاة يبيع أمتعة داره في اليوم الذي لا يأتيه فيه محصول كثير ويقول إني أخاف أن يعزلني من أنا تحت حكمه حتى صار فقيرًا من أمتعة الدنيا.

وقد سمعت عن بعض قضاة الأرياف أنه إذا لم يأته محصول في بعض الأيام سلط على من يراه ذا مال الدعاوى الباطلة ليأتيه المحصول من ذلك، فمثل هذا كيف يصح له أن يحق الحق ويبطل الباطل فالسلامة في هذا الزمان أن لا يتولى الإنسان الولايات إلا إن تعين عليه ذلك شرعًا أو يكون مكرهًا في ذلك، والحمد لله رب العالمين.

أحوال الأصحاب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة سؤالهم عن أحوال أصحابهم وذلك لأجل أن يواسوهم بما يحتاجون إليه من الطعام والثياب والنقود ووفاء الديون وتحمل الهموم لا مجانًا، وهذا الخلق صار أهله غرباء في هذا الزمان فإن الناس اليوم على خلاف ذلك وربما يقول أحدهم لصاحبه إيش حالكم؟ فيقول: طيب ويكتم أمره لعلمه بفراغ قلب صاحبه منه، وإن قوله إيش حالكم؟ كلام بحكم العادة من غير ثمرة كما هو مشاهد بل وكثيرًا ما يقول المار على أخيه إيش حالكم؟ ولا ينتظر الجواب، فلا السائل يتربص حتى ينتظر الجواب، ولا المسئول يكلف نفسه النطق بالجواب.

ومن هنا كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن لم يكن أحدكم عازمًا

على مواساة أخيه أو تحمل همومه أو الدعاء له وإلا فلا يقولن له إيش حالكم؟ لأنه يصير نفاقًا، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إذا قلت لصاحبك كيف أصبحت؟ وقال لك إني محتاج إلى شيء فتلاهيت عنه ولم تعطه حاجته فقولك له: كيف أصبحت سخرية به، وهذا هو الغالب على إخوان هذا الزمان.

وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: إنما كانوا يسأل بعضهم بعضًا عن أحوالهم لينبهوا الغافل على شكر الله تعالى فيشكره فيحصل له ولهم الخير بذلك، وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي ﷺ كيف أصبحت يا رسول الله، فقال ﷺ: [أصبحت خيرًا من أناس لم يعودوا مريضًا ولم يشيعوا جنازة] وقد قيل لأبي بكر الصديق ﷺ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت عبدًا ذليلاً لرب جليل أصبحت مأمورًا بأمره.

وقيل للحسن البصري رحمه الله تعالى كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت حنيفًا مسلمًا لا أشرك بالله شيئًا، وقيل لمالك بن دينار رحمه الله تعالى كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت لا أدري أأنقلب إلى الجنة أو إلى النار، وقيل للإمام الشافعي ﷺ كيف أصبحت؟ فقال أصبحت آكل رزق ربي ولا أقوم بشكره، وقيل لعيسى عليه الصلاة والسلام كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت لا أملك نفع ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحذر وأنا مرتهن بعملي والأمر كله بيد غيري ولا فقير أفقر مني. وقيل للربيع بن خيثم رحمه الله تعالى كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت ضعيفًا مذنبًا آكل رزق ربي وأعصى أمره، وقيل لأبي الدرداء ﷺ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بخير إن نجوت من النار.

وقيل لمالك بن دينار رحمه الله تعالى كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد، وقيل لحامد اللفاف رحمه الله تعالى كيف أصبحت؟ قال: سالم معافى، فقال له حاتم الأصم: يا حامد السلام والعافية إنما يكونان بعد مجاوزة الصراط ودخول الجنة، فقال حامد: صدقت، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

عدم الغفلة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم الغفلة عن محاربة إبليس والتجسس على معرفة مكائده ومصايده، وهذا الخلق قد أغفله غالب الناس، فإن إبليس كما لم يغفل عنا فينبغي لنا أن لا نغفل عنه فإنه بالمرصاد حريص على وقوع العبد في سخط الله تعالى،

وفي الحديث [أن إبليس يضع عرشه في البحر ويرسل سراياه وجنوده فأعظمهم عنده منـزلة أعظمهم فتنة للناس] اهـ.

وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن إبليس لعنه الله قال: يا رب أما ترى حب عبادك لك ومع ذلك يعصونك وكثرة بغضهم لي مع كثرة طاعاتهم لي، فأوحى الله إلى الملائكة إني قد غفرت لهم كثرة عصيانهم لي بمحبتهم لي، وتجاوزت عن كثرة طاعتهم لإبليس بكثرة بغضهم له، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إن إبليس إذا ظفر بابن آدم بإحدى ثلاث قال لا أطلب منه غيرها، إعجابه بنفسه، واستكثاره عمله ونسيانه ذنوبه، وفي رواية بإحدى أربع وهي زيادة الشبع وهو أعظمها، فإن الثلاثة تنشأ عنه، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تعادوا الشيطان في العلانية وتطيعوه في السر فإن كل من بات عاصيًا بات الشيطان لأجله عروسًا.

وقد كان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يغلس إلى المسجد فتمثل له الشيطان يومًا في صورة إنسان يحمل له السراج بين يديه، وكانت ليلة باردة مظلمة فأشرفت عليها امرأة من شباك لها فقالت: ما أقسى قلب هذا الشاب يكلف هذا الشيخ أن يحمل له السراج في مثل هذه الليلة، فسمعها محمد بن واسع فقال لها دعيه يشقى أشقاه الله تعالى، فعرف إبليس أنه عرفه فأطفأ السراج وهرب.

وقد بلغنا أن إبليس لعنه الله دخل على الجنيد رحمه الله تعالى في صورة إنسان وعليه مرقعة وفي عنقه سبحة وفي وسطه منطقة على شكل خدام المشايخ، وقال له سيدي إني أحببت أن أخدمك لعل أن تنالني بركتك فمكث يخدمه ويوضيه نحو عشرين سنة فلم يجد له عليه طريقًا يدخل إليه منها في وقت من الأوقات فلما أراد الانصراف قال له أما تعرفني؟ فقال الجنيد: بلى قد عرفتك في أول دخولك عليّ وانك ابو مرة إبليس، فقال له إبليس: ما رأيت أحدًا على قدمك يا أبا القاسم، فقال له الجنيد اذهب عني يا ملعون أردت أن لا تفارقني إلا بشئ تتلف به ديني وهو الإعجاب بحالي.

وقد كان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يقول كل يوم بعد الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوًا لنا بصيرًا بعيوبنا مطلعًا على عوراتنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين مغفرتك وجنتك إنك على كل شيئ قدير، قال: فتمثل له

إبليس يومًا وقال له: يا محمد لا تعلم هذا الدعاء لأحد وأنا لا أعود أتعرض لك بسوء أبدًا، فقال له محمد: والله لا أمنعه من أحد واصنع أنت ما شئت، قال: وقد تراءى يومًا إبليس لعنه الله لعيسى عليه الصلاة والسلام وقال له: يا روح الله قل لا إله إلا الله، فقال عيسى كلمة حق أقولها ولكن لا لقولك لا إله إلا الله.

قال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى أراد إبليس بذلك أن يكون عيسى تلميذًا له في كلمة التوحيد فلم يفعل عيسى عليه الصلاة والسلام ومنعته العصمة، وكان كعب الأحبار رضي الله عنه يقول: ذكر الله تعالى في جنب الشيطان كالأكلة في جنب ابن آدم، وكان عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى يقول: لقد حججت ستين حجة وعملت أعمالاً كثيرة من القربات ومع ذلك فما حاسبت نفسي قط إلا وجدت نصيب الشيطان من ذلك أقوى من نصيب ربي عز وجل، فليتني خرجت من الدنيا كفافا لا عليّ ولا لي.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إياكم وخوف الفقر فإنه ليس للشيطان سلاح يقاتل به ابن آدم أشد من خوف الفقر، لأنه إذا خاف الفقر أخذ من الباطل ومنع من الحق، وتكلم بالهوى وظن بربه سوء الظن فلقي كل سوء، وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: من نعم الله عليّ أني ما فررت من الفقر قط، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ما قطع ظهر إبليس شيء مثل من أحسن عمله قال تعالى: [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] [1] ، ولم يقل أكثر عملا، وكان رحمه الله تعالى يقول: إذا بلغ العبد أربعين سنة ولم يتب من جميع المعاصي والذنوب مسح الشيطان بيده على جبهته وقال فديت وجهًا لا يفلح.

(قلت) ويؤيد ذلك ما رواه الطبراني مرفوعًا من بلغ الأربعين من عمره ولم يغلب خيره على شره فليتبوأ مقعده من النار اهـ، وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: ليس عندي شيء أقطع لظهر إبليس عند النكبة والعثرة مثل قول لا إله إلا الله لأنك إذا لعنته لم يتأثر لذلك إنما يقول:لعنت ملعوناً. وكان سفيان بن عيينة رحمة الله تعالى يقول: إن إبليس له ثلثمائة وستون صكاً فيها غرور ومكابرة ببنى آدم، فلابد كل يوم أن يعرضها على قلوبهم واحداً بعد واحد. وكان محمد بن سيرين رحمة الله تعالى يقول: ليس لإبليس كيد أعظم من رؤية العبد نفسه على إخوانه فإنه إذا مات على ذلك مات وربه ساخط

---

(١) سورة هود: الآية ٧.

عليه لم ينفعه شيء من أعماله، وقد كان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: من أعظم الأعداء عدو لا تراه حتى تكيده، وكان حبيب العجمي رحمه الله تعالى يقول: لو أقامني الله عز وجل بين يديه وقال ائتني بسجدة واحدة لا حظ للنفس أو للشيطان فيها لأدخلك بها الجنة لقلت له يا رب لا أجد ذلك اهـ.

فتنبيه يا أخي لنفسك وإياك أن تظن أن إبليس انقطع عنك حين ترى توالي عبادتك بل انظر فيها وابحث كل البحث، والحمد لله رب العالمين.

رائحة تكبر

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): مجانبتهم للأمور التي فيها رائحة تكبر على الإخوان كعدم حضور جنائز أطفالهم أو خدمهم وأرقائهم وعدم عياداتهم إذا مرضوا، وذلك لأن الفقراء ما سادوا على الناس في الدارين إلا بالذل وخفض الجناح ثم إن أحدهم إذا حضر الجنازة يكون حزينًا نادمًا على ما فرط في جنب الله تعالى، وفي الحديث [كفى بالموت واعظًا] ولم يكن أحد منهم يذكر شيئًا من حديث الدنيا في طريق الجنازة ولا يتكلم بالمباح فضلاً عن المذموم.

وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان في الناس فأكثرهم لا يعتبر بحضور الجنائز، وإن قدر أنه حضر صار حكويًا بل وربما حكى الحكايات المضحكة عند السرير كما شاهدت ذلك من شيخ بعمامة صوف فالله تعالى يغفر لنا وله، وقد كانوا يخرجون للجنائز في الثياب البذلة لأنها شفاعة في الميت وكلما كان إلى الذل أقرب كان إلى قبول الشفاعة أقرب، كما قالوا في الخروج للاستسقاء ورفع الوباء فينبغي اجتناب الثياب النفيسة لا سيما إن كانت معطرة، فعلم أن كل فقير خرج إلى الجنائز وهو لابس محاسن ثيابه بغير نية صالحة فهو بعيد عن أحوال القوم غافل عن تذكر الموت، لحديث [ومن أراد الآخرة ترك الدنيا] وفي الحديث أيضا [عودوا المريض واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة] يعني وإذا ذكرتم الآخرة زهدتم في ملاذ الدنيا اهـ.

وقد كانوا إذا حضروا جنازة يستغرقون في التفكر في ذكر الموت وأحوال الناس في القبور حتى يظل أحدهم محزونًا الأيام المتوالية يعرفون ذلك الحزن في وجهه، وقد كان يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى إذا شيع جنازة يرجعون به في النعش لا يستطيع المشي

ولا الركوب ويمكث الأيام لا يقدر أحد أن يكلمه من شدة خوفه، وقد كان أهل الزمن الأول يستحبون خفض الصوت عند الجنازة ويزجرون من يرفع صوته ويقولون له ما أنت إلا جبار أما في رؤيتك الموت موعظة.

(قلت) وإنما سكت العلماء عن رفع الصوت بالذكر والصلاة على النبي ﷺ حتى علموا كثرة لغط الناس في الجنائز فرأوا أن ذكر الله تعالى أولى من حديث الدنيا من باب ظلم دون ظلم والله تعالى أعلم، وقد رأى عبد الله بن مسعود ﷺ رجلاً يضحك في جنازة فزجره ثم هجره أياماً، قال: ورأى الحسن البصري رحمه الله تعالى رجلاً يأكل في المقبرة فزجره وقال له: إنك منافق، وكان الأعمش رحمه الله تعالى يقول: كنا نحضر الجنائز فلا ندري من نعزي من شدة عموم الحزن للقوم وبكائهم.

وقد كان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: مداواة القلب بحضور الجنائز فريضة وكان إبراهيم الزيات رحمه الله تعالى إذا رأى أحداً يبكي في الجنازة يقول له: ابك على نفسك يا أخي وترحم عليها فإن هذا الميت قد نجا من ثلاث رأى ملك الموت عليه السلام، وذاق حرارة الموت، وأمن من سوء الخاتمة، بخلافك أنت اهـ، وسيأتي زيادة على ذلك والحمد لله رب العالمين.

تنزيل الناس منازلهم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تنزيل الناس منازلهم في الإيمان والنفاق فللمنافق عندهم مقام دون مقام المؤمن السالم من النفاق فإن قيل فبم تعرف المنافق، فالجواب أنه معروف بالعلامات التي أخبر بها رسول الله ﷺ نحو قوله: [علامة المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان] وفي رواية أربع فزاد إذا خاصم فجر. ونحو قوله ﷺ: [إن للمنافقين علامات فادعوهم بها لا يأتون المساجد إلا هجراً ولا يشهدون الصلاة إلا دبراً ولا يألفون ولا يؤلفون مستكبرين جيفة بالليل بطالون بالنهار] ونحو ذلك من الأحاديث الواردة اهـ.

وكان الأوزاعي رحمه الله تعالى يقول: علامة المنافق أن يكون كثير الكلام قليل العمل، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه، ويكره الذم بما فيه، ويبغض من يبصره بعيوبه ويفرح إذا سمع بعيب أحد من

أقرانه، وكان يونس بن عبيد الله رحمه الله تعالى يقول من أراد أن ينظر إلى رجل منافق فلينظر إليّ، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأني كثير ما أعد المائة خصلة من خصال الخير فلا أجد واحدة منهن فيّ، وأعد خصال السوء فأجدها كلها فيّ، فياويحي يوم القيامة.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا ذكر الصالحون كنا عنهم بمعزل وإذا ذكر الطالحون كنا في جوف المنزل، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: من علامة المنافق أن يخبأ رزق غد، ويزاحم غيره على الدنيا ويحب أن ينفرد بالصيت، وفي رواية من علامة المنافق أن يحسد الناس ويكون في قلبه الحقد والضغائن لمن آذاه أو زاد عليه في الجاه اهـ. فانظر يا أخي في نفسك وفتشها ونقها من النفاق، والحمد لله رب العالمين.

اجتناب الشبع

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): اجتناب الشبع الموجب لقساوة القلب وذلك حتى يخشعوا في صلاتهم، فإن من شبع وطلب الخشوع في صلاته فقد أخطأ الطريق، وقد كان رسول الله ﷺ يطوي الأيام والليالي ويشد على بطنه الشريف حجر من الجوع، وكان ﷺ إذا صلى سمع لجوفه أزيز في الصلاة كأزيز المرجل على النار كما ورد، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: ركعتان مع تفكر وتدبر خير من قيام ليلة كاملة والقلب ساه عن ربه عز وجل.

(قلت) ومراده ﷺ بالتفكر هنا تفكر العبد في الآداب المتعلقة بالصلاة وبحضرة الله عز وجل وليس مراده التفكر في استنباط الأحكام كما يتوهم، فإن الصلاة ليست بمحل لذلك، ولذلك صرح بعض العلماء ﷺ بكراهيته، وكان ابن مسعود ﷺ إذا قام إلى الصلاة كأنه ثوب ملقى وكان إذا سمع أهله يقولون لا تتكلموا فإن عبد الله يصلي كان يقول لهم: تحدثوا ما شئتم فإني لست أسمع حديثكم وأنا في الصلاة.

وكان الحكم بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: من تلفت عن يمينه وعن شماله فلا صلاة له.

وقد كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه من ميلين، وقد كان سلمان الفارسي ﷺ يقول: من لم يحضر في صلاته فهو من المطففين، وقد علمتم ما قال الله فيهم فإن الصلاة بمكيال من وفى، وفى له وقد بلغنا عن يعقوب

القارئ رحمه الله تعالى سرق رداؤه من على كتفه وهو في الصلاة فأخذه الناس من اللص وزجروه وطردوه ثم وضعوا الرداء على عنق يعقوب كل ذلك وهو لا يشعر.

(قلت) وكذلك وقع في عصرنا لسيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالى وهو يصلي في جامع البحر أنهم سرقوا ردائه من على عنقه وأخذ من اللص وضرب وطرد ووقعت ضجة عظيمة كل ذلك وهو لا يشعر وهو آخر من أدركناهم من أهل الخشوع ﷺ، وكان سعيد التنوخي رحمه الله تعالى إذا وقف يصلي سالت دموعه كالمطر، وقد دخل عود في عين رابعة العدوية رحمة الله عليها وهي تصلي فما شعرت به حتى سلمت من الصلاة فقالت: انظروا هذه الخشونة التي في عيني فما نزعوا العود من عينيها إلا بمشقة من شدة ما ارتشق.

وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا العلماء وأحدهم كان إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن حتى لا يقدر يشد بصره إلى شيء أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا وقد انهدم الجامع مرة ومسلم بن يسار رحمه الله يصلي فيه فخرج كل من في المسجد إلى السوق ووقعت ضجة كبيرة ومسلم لم يشعر، وقد كان الذباب لم يزل يأكل في عين خلف بن أيوب رحمه الله تعالى وهو يصلي فلا يطرده عن نفسه، فقيل له يومًا في ذلك، فقال: بلغني أن الفساق يتصبرون تحت سياط الحاكم إذا ضربوا البقال فلان صبور ويفتخرون بذلك وأنا قائم بين يدي رب العزة سبحانه فكيف أتحرك لذباب.

وكان سميط بن عجلان رحمه الله تعالى يقول: كيف يدعي أحدكم الحضور مع الله تعالى في صلاته وهو يحس بقرصة البرغوث إذا قرصه والله لقد طعن أحدهم بالسنان وما درى حتى ساخت نفسه من خروج الدم ووقع على الأرض، وقد كان أمير المؤمنين علي ﷺ إذا حضر وقت الصلاة يصير يتغير ويتلون ويرتعد، فإذا قيل له في ذلك يقول: أما تعلمون أنه وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وقد حملتها أنا فلا أدري هل أحسنت ما حملت أم لا.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لا تصلوا خلف محب الدنيا، وقد كان السلف إذا بلغهم أن أحدا تلفت في صلاته يذهبون إليه ولو في داره ويسألونه عن سبب ذلك لما كان عندهم ﷺ من معرفة عظمة الله تعالى، وقد صلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى خلف إمام مرة فسمعه يلحن فقال له: لولا فضل الجماعة ما صليت خلفك لم تقرأ

العربية على العلماء، وكان الفضل بن عباس رحمه الله تعالى يقول: عجبت من هؤلاء الناس أراهم إذا مات لي ولد يعزيني فيه أكثر من ألف إنسان وتفوتني صلاة الجماعة فلا يعزيني في ذلك أحد، ووالله إن فوات صلاة الجماعة عندي أعظم من موت ولدي البالغ العاقل العالم الصالح.

وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: إني أشتهي من الدنيا شيئين الأول: أخًا صالحًا في الله تعالى يقومني إذا تعوجت، والثاني: ألا تفوتني صلاة الجماعة أبدًا ما عشت، وكان شقيق البلخي رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: اعلموا أن الشيطان لعنه الله تعالى لا يغيظه من ابن آدم إلا شيئان، الأول: عدم الاكتراث بوسوسته، والثاني: عدم التفكير في ذات الله سبحانه وتعالى اهـ، فانظر يا أخي في نفسك وتأمل حالك هل خشعت في صلاتك كما خشع هؤلاء القوم ﷺ في وقت من الأوقات أم أنت بالضد من ذلك وأكثر من الاستغفار ليلاً ونهارًا، والحمد لله رب العالمين.



الباب الثالث

في جملة أخرى من الأخلاق



الخوف من سوء الخاتمة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة خوفهم من سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى، ولو كان أحدهم على عبادة الثقلين، وذلك لأن الله تعالى يفعل ما يشاء وليس مع أحد من الخلق علم بخاتمته على وجه الجزم إنما غاية أمر أحدهم حسن الظن بربه عز وجل وفي الحالة الراهنة فقط وليس معه علم بدوام الشهادتين معه حتى تطلع روحه عليها، وقد ورد في الحديث [أن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها] وكان حبيب العجمي رحمه الله تعالى يقول: إن من ختم له بقول لا إله إلا الله دخل الجنة ثم يبكي ويقول من لي بأن يختم لي بقول لا إله إلا الله.

وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول: دخلنا على رجل بالأهواز وهو في النـزع فكنا نقول له قل لا إله إلا الله فيقول: ده يازده مشتري طيب قطعة مليحة، أي لأن ذلك كان الغالب عليه في حال الصحة، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن رجلاً يخرج من النار بعد ألف سنة ثم يقول ليتني كنت ذلك الرجل لأنه مقطوع له بالخروج من النار اهـ.

فإياك يا أخي من أن تسامح نفسك في الاشتغال بأمور الدنيا إلا بقدر الضرورة الشرعية فربما أتاك الموت على غفلة فتخسر الدارين والعياذ بالله تعالى، فاعلم ذلك يا أخي وتأمله والله يتولى هداك.

المبادرة بالدعاء

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم مبادرتهم بالدعاء بالشفاء إذا دخلوا على مريض، بل كان أحدهم يتربص حتى يعلم سبب مرض هذا المريض وانتهاءه ثم يدعو بعد ذلك فإن المرض ربما كان رفع درجات فلا ينبغي الدعاء برفعه، وكذلك القول فيه إذا كان عقوبة فالأولى أن يصبر العابد حتى تبلغ العقوبة حدها أدبًا مع الله تعالى، وإن كان أحدهم له حال مع الله تعالى فله أن يسأل الشفاء من باب الفضل والمنة، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

البيوت الملاصقة للمسجد

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): محبتهم في سكنى البيوت الملاصقة للمسجد ليسهل عليهم الجلوس في المسجد في أغلب أوقاتهم إذا عملوا بآداب المساجد، وذلك لما ورد مرفوعًا [المساجد بيوت المتقين ومن كانت المساجد بيته ضمن الله له الروح والراحة والجواز على الصراط]، وكان أبو صادق الأزدي رحمه الله تعالى يقول: ألزموا الجلوس في المساجد فإنه بلغني أنها كانت مجالس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان حكم بن عمير ﷺ يقول: اتخذوا المساجد بيوتا، وكان أبو إدريس الخولاني رحمه الله تعالى يقول: المساجد بيوت الكرام على الله تعالى من الناس ومحل جلوسهم فقد ورد المسجد بيت كل تقي.

وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام ينهى من لم يعرف أدب المساجد أن يكثر الجلوس فيها، وقد رأى عليه السلام مرة قومًا يلعبون في المسجد فلف رداءه وضربهم به وأخرجهم منه، وقال اتخذتم بيوت الله أسواقًا للدنيا، وإنما هي أسواق الآخرة، وقد كان المسجد بيت عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى مدة أربعين سنة، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لولا البول ما خرجت من المسجد في ليل ولا نهار، فقد بلغني أن الله عز وجل يقول: إني لأهم بعذاب عبادي فأنظر إلى عمار المساجد وقراء القرآن وولدان الإسلام فيسكن غضبي.

وكان خلف بن أيوب رحمه الله تعالى يومًا جالسًا في المسجد فأتاه غلامه فسأله عن شيء من حوائج الدنيا فقام حتى خرج من المسجد وأجابه ثم رجع، وقال كرهت أن أتكلم بكلام الدنيا في المسجد، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إذا سمع صوتا عاليًا في المسجد يضرب صاحبه بالدرة ويقول له: تدري أين أنت فإن من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه عز وجل.

وقد سئل سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أيما أحب إليك حضور الصلاة على الجنازة أم الجلوس في المسجد، فقال الجلوس في المسجد أحب إليّ لأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام تستغفر لي مادمت في المسجد وذلك أفضل من حصول القيراط أو القيراطين أو الثلاث من الأجر الذي ورد لمن صلى على جنازة، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم لا يكلم بعضهم بعضا ماداموا جالسين في المسجد في شيء من أمور الدنيا اهـ.

فتأمل يا أخي ما ذكرته لك ولا تتكلم مادمت في المسجد إلا بنية صالحة تسلم وتغنم، والحمد لله رب العالمين.

معاتبة من انقطع عن الزيارة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): معاتبة من انقطع عن زيارتهم من إخوانهم من حيث حرمانه من الثواب العائد عليه لا من حيث الخلل بحقوقهم كما قد يتوهم ذلك بقطع النظر عن عود فائدة ذلك عليهم، وذلك حتى يكون أحدهم ممن سعى في مصالح إخوانه لا في مصالح نفسه فقط، وهذا خلق ما رأيت له فاعلاً من أقراني إلا قليل جداً، والحمد لله رب العالمين.

اجتناب الجلوس في السوق

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): اجتناب الجلوس في السوق لبيع أو شراء إلا بعد معرفة أحكام الشرع في المعاملات وغلبة ظنهم أن أحدهم لا يشتغل بذلك من أعمال آخرته، لأن كل ما يشغل عن الله فهو مشئوم على صاحبه في الدنيا والآخرة، وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل السوق قال: [اللهم إني أسألك من خير هذه السوق، وأعوذ بك من الكفر والفسوق] وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: إياكم ومجالسة السوقة فإنها تلهي وتلغي، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لا تنظروا إلى ظاهر ثياب التجار والسوقة فإن تحتها ذئاباً كاسرة.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: السوق مكثرة للمال مفسدة للدين، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إياكم ومجالسة الأغنياء وقراء الأمراء والسوقة، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: يا أهل السوق سوقكم كاسد وخياركم حاسد وبيعكم فاسد، فاستيقظوا لأنفسكم، وكان حماد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: ما افتقر تاجر قط إلا بوقوعه في شيء من هذه الخصال وهي اللغو والكذب والحلف والغل والخيانة والحسد وتفويت صلاة الجماعة، ومجالس العلم واتباع الشهوات الدنيوية.

وقد كان الإمام مالك ﷺ يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة ويعرضونهم عليه، فإذا وجد أحداً منهم لا يفقه أحكام المعاملات ولا يعرف الحلال من الحرام أقامه من السوق، وقال له تعلم أحكام البيع والشراء ثم اجلس في السوق فإن من لم يكن فقيهاً أكل الربا شاء أم أبى.

وكان قتادة رحمه الله تعالى يقول: عجبا للتاجر كيف يسلم وهو بالنهار يحلف

وبالليل يحسب، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: نعم التاجر الذي تكون الدنيا عليه ساخطة والآخرة عنه راضية فقد بلغني أن إبليس لعنه الله، قال: يا رب أين أجعل بيتي؟ قال: الحمام، قال: فما مصائدي؟ قال: النساء، قال: فما مزاميري؟ قال: الشعر، قال: فأين أجعل مجلسي؟ قال: الأسواق اهـ.

فانظر يا أخي في ذلك ولا تمدح تاجرًا حتى تراه يسلم من الآفات والشبهات، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الحلم

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : كثرة الحلم على من جنى عليهم، وكظم الغيظ عملاً بأخلاق رسول الله ﷺ فإنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله عز وجل كما يأتي، وقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول: أول مجازاة من حلم على من جنى عليه أن يصير الناس كلهم أنصاره، وقد قال إبليس لعنه الله ليحيى عليه الصلاة والسلام: أعظم مصائدي الغضب فيه أسرت الناس وعوقتهم عن طريق الجنة، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى إذا قيل له أن فلانا يقع في عرضك يقول: والله لأغيظن من أمره -يعني إبليس- ثم يقول اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كان كاذبًا فاغفر له، وقد قال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه أنت أبو هريرة؟ قال: نعم، فقال: أنت سارق الهرة، فقال أبو هريرة: اللهم اغفر لي ولأخي هذا، ثم قال هكذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر لمن ظلمنا.

وقال رجل لأبي ذر رضي الله عنه أنت الذي نفاك معاوية إلى الشام كان فيك خير ما نفاك، فقال أبو ذر: يا أخي إن بين يدي عقبة سوداء فلو نجوت منها لم يضرني ما قلت، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت، وقد قالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله تعالى يا مرائي، فقال لها: يا هذه قد عرفت لقبي الذي أضله أهل البصرة ولم يعرفوه، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول من احتمل كلمة سفه كتب له عشر حسنات، وقد كان علي رضي الله عنه يقول: إذا سمعت كلمة سفه فأعرض ولا تجب عنها فإن لها عند قائلها أخوات يجيبك بها.

وكان محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى يقول: لا تغضبوا على كسر أوانيكم فإن له آجالاً كآجالكم، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار أو هرة، وكان يقول أشد ما على السفيه الإعراض عن

جوابه وإظهار عدم التأثير له، وكان الحسين بن علي رضي الله عنهما إذا شتمه أحد يقول له: يا أخي إن كان قولك صدقًا فسيجازيك الله بصدقك وإن كان كذبًا فالله أشد نقمة مني لك، وقد لطمه إنسان مرة على وجهه ﷺ فلم يتغير بل قال: من قدر هذا؟ فقيل له: الله تعالى قدره، فقال: أفترون أني أرد قضاء الله.

وكان ابن المقنع رحمه الله تعالى يقول: كظم الغيظ أولى من ذل الاعتذار، وقيل له مرة: ما الفرق بين الحزن والغضب؟ فقال الحزن يكون من مخالفة من هو فوقك لهواك والغضب يكون من مخالفة من هو دونك لهواك، وقد كان أبو معاوية الأسود رحمه الله يدعو لمن نال منه، قال: وشتم رجل بكر بن عبد الله المزني رحمه الله وبالغ في شتمه وهو ساكت، فقيل له: ألا تشتمه كما شتمك؟ فقال: أني لا أعرف له شيئا من المساوئ حتى أشتمه به ولا يحل لي أن أرميه بالكذب.

وكان الأعمش رحمه الله تعالى يقول: قالت الأذن لولا خوفي أن انصر وأتجمع بالجواب لطلت كما طال اللسان. وقال رجل لثور بن يزيد رحمه الله تعالى يا قدري يا رافضي، فقال له: إن كنت كما قلت فأنا رجل سوء وإن كنت على خلاف ذلك فأنت في حل مني، وقد كان مكحول الدمشقي رحمه الله تعالى يقول: لا يبين حلم الرجل إلا تسلط الجاهلين عليه، وقد قال رجل مرة لسالم بن عبد الله بن عمر ﷺ يا شيخ السوء، فقال له سالم: ما أراك أبعدت يا أخي، وروى أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يا بني إن أردت أن تؤاخي أحدًا فأغضبه فإن أنصفك وهو مغضب فواخه وإلا فاحذره.

وقد سئل السري السقطي رحمه الله تعالى مرة عن الحلم ما هو؟ فقال للسائل: أي حلم تريد فإن الحلم على خمسة أقسام، الأول: حلم غريزي وهو هبة من الله تعالى للعبد به يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل به رحمه وإن قطعه، والثاني. حلم تحالم وهو أن يكظم العبد غيظه رجاء الثواب وفي القلب كراهة، والثالث: حلم مذموم وهو حلم العبد على من جنى عليه رياء وسمعة يعني يرائي به جلساءه وهو حاقد ساكت، الرابع: حلم كبر وهو أن الشخص لا يراه أهلاً بأن يجاوبه، الخامس: حلم مهابة ومذلة اهـ، فاعلم ذلك فإنه نفيس والحمد لله رب العالمين.

الاتعاظ بما يرى

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): الاتعاظ بما يرونه لبعضهم في المنام أو يرى لهم وعدم قولهم هذا أضغاث أحلام كما عليه بعض المتصوفة من أهل هذا الزمان فلا يلتفتون لمثل ذلك وربما يقولون بعضهم أن المنام إنما هو للرائي لا للمرئي له وذلك من الجهل، فإن الرؤيا وحي المؤمن يأتيه بها ملك الإلهام في المنام ليعرفه بما جهل من حاله في اليقظة، وقد بينت في غير هذا الكتاب عملي بذلك من حيث التجربة فينبهني الله تعالى بذلك على صورة ما وقعت فيه من النقائص من حيث لا أشعر، أما ما أشعر به فلا أحتاج فيه إلى منام بل أكتفي فيه بنهي الشارع ﷺ وما توعدني على ذلك النقص من العقوبة.

وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: رأيت مسلم بن يسار رحمه الله تعالى في المنام بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: والله لقد رأيت أهوالاً وزلازل شداداً، وكان إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى يقول: رأيت موسى بن مهران في المنام بعد موته رحمه الله تعالى فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أني أحاسب منذ مت على أكلي من طعام الأمراء، وقال بعضهم رأيت الحسن بن ذكوان في المنام بعد موته بسنة رحمه الله تعالى فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس من جهة إبرة استعرتها ولم أردها، فقلت له يا أخي: أي القبور أكثر إضاءة؟ قال: قبور أهل المصائب في الدنيا.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: ربما يرى بعضهم في الرؤيا السوء للرجل الصالح ليزداد بها نشاطاً، وربما يرى بعضهم الرؤيا الصالحة للرجل السوء ليزداد بها استدراجاً كما قال بعضهم للربيع بن خيثم رحمه الله تعالى: إني رأيتك في المنام كأنك من أهل النار، قال: فكان الربيع بعدها لا ينام الليل مطلقاً ويقول خوف النار قد منعني النوم، وقال رجل للعلاء بن زياد رحمه الله تعالى: إني قد رأيتك البارحة وأنت تخطر في الجنة، فقال له: أما وجد إبليس أحد يسخر به غيري ولا أحداً أحقر في عينيه منك حتى يجعلك رسوله، وكان فرقد السنجي رحمه الله تعالى يقول: خطر في نفسي مرة أني قد صرت من الصابرين فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لي: لا تكن من الصابرين حتى تستقل أعمالك في عينك وتخاف عليها من الرد والفساد.

وقال حوشب لمالك بن دينار رحمه الله تعالى: رأيت كأن قائلاً من جهة السماء يقول يا أهل الأرض الرحيل.. الرحيل، فما رأيت أحداً رحل إلا محمد بن واسع، قال: فخر مالك

مغشيًا عليه، وقال فرقد السنجي رحمه الله تعالى: سمعت مناديًا ينادي من جهة السماء ويقول يا أشباه اليهود إن أعطيتم لم تشكروا وإن ابتليتم لم تصبروا ومع ذلك تزعمون أنكم من الصالحين فكونوا على حذر من سطوات ربكم.

وقد رأى بعض أصحاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أن القيامة قد قامت ونادى المنادي أين فلان؟ أين فلان؟ فصار الناس يحاسبون ثم يذهب بهم إلى النار، ثم نادى المنادي أين عمر بن عبد العزيز فأتى به فحوسب ثم نجا وأمر به إلى الجنة، قال: فلما قص الرائي هذه الرؤيا على عمر ووصل إلى قوله أين عمر؟ خر عمر مغشيًا عليه فصار الرجل يناديه في أذنه ويقول: رأيتك والله قد نجوت وعمر لا يعي ما يقول اهـ.

ففتش يا أخي نفسك فأنت أعرف بها من غيرك ولا تركن إلى قول بعضهم لك رأيتك البارحة في الجنة مثلاً إلا بعد عرض أفعالك وأقوالك وعقائدك على الكتاب والسنة، فاعلم ذلك يا أخي ولا تكن مغرورًا والحمد لله رب العالمين.

عرض الأعمال

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أن لا يبادروا بالدعاء لمن سألهم أن يدعوا له إلا إن علم أحدهم أن الله تعالى راض عنه، وذلك بعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن رأى فيها مخالفة فمن الأدب أن يسأل الله تعالى العفو عن نفسه ثم بعد ذلك يدعو لمن يشاء، وهذا الخلق قد أغفله غالب الفقراء اليوم، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: الدعاء حقيقة هو ترك الذنوب فمن تركها فعل الله تعالى به ما يختار من غير سؤال، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: رأيت في بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل: كيف تدعوني وقلوبكم معرضة عني.

وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن قل لبني إسرائيل لا يدخلوا بيتًا من بيوتي إلا بقلوب طاهرة ونفوس وجلة وأبصار خاشعة وجوارح مطهرة من الفواحش، فمن دخل بيتي وهو متلطخ بشيء من الذنوب لعنته، وأعلمهم أني لا أجيب لأحد منهم دعوة ولأحد من الخلق عليه مظلمة أو في بطنه لقمة من حرام، وكان إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى يقول: دعاء الرجل في خلوته أفضل من دعائه في مجالس القصاص.

وقال رجل لزياد بن ظبيان رحمه الله تعالى كثر الله في المسلمين من أمثالك، فقال له:

لقد سألت الله شططًا وسألت للناس أن يكونوا من أهل الشر، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز أطال الله بقاءك، فقال: هذا أمر قد فرغ منه ادع لي بصلاح الحال. (قلت) فينبغي للداعي لأخيه بطول البقاء أن ينوي في نفسه إن كان ذلك خيرًا له نظير ما روى فيمن خاف الفتنة، وإلا فقد يكون طول البقاء شرًا لما يقع فيه من المعاصي والمخالفات ونحو ذلك والله أعلم.

وقال رجل لعامر بن قيس رحمه الله تعالى: ادع الله لي، فقال: والله إني لأستحي منه عز وجل أن أسأله شيئًا يسرني فكيف أسأل لغيري ويحك إنها شفاعة ولا تكون إلا من المقربين. (قلت) وبالجملة فكل شيخ تصدر في هذا الزمان فينبغي له أن لا يبادر بالشفاعة في غيره إلا أن علم أن الله تعالى عفا عنه، وأن لا يكون في بطنه لقمة من شبهة فإن دعا لأحد وليس هو بسالم من ذلك فليسأل وهو في غاية الحياء والخجل من الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

زيادة الخوف من الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): زيادة الخوف من الله تعالى كلما أحسن إليهم وقربهم إلى حضرته كما عليه أهل مجالسة الملوك ولله المثل الأعلى، وقد كان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد نعمة من الله وقربًا كلما ازداد خوفًا، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: يكفي العامة من الخوف أن ينتهوا عما نهاهم الله تعالى عنه ثم يقول: يا ليتني كنت منهم، وكان حماد بن يزيد رحمه الله تعالى لا يجلس دائمًا إلا مستوفزًا على قدميه، فإذا قيل له ذلك، يقول: إنما يجلس مطمئنًا من أمن من عذاب الله عز وجل وأنا والله غير آمن في ليل أو نهار من أن تنـزل عليّ نار من السماء تحرقني. وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: لقد رحم الله تعالى الخلق بالغفلة في بعض الأوقات ولولا ذلك لماتوا من خشية الله تعالى، وكان عطاء السلمي رحمه الله تعالى إذا ثارت ريح يصير يقوم ويقعد ويخرج ويدخل ويأخذ بجلدة بطنه كأنه امرأة أخذها الطلق، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب كما عليه الحمقى من أمثالنا، وقد كان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: خف من الله تعالى حتى يأتيك الأمن فإنه أحب إليك من رجائك فيه حتى يأتيك الخوف.

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: والله إني لأخاف أن أكون أول من يسحب على وجهه يوم القيامة إلى النار، وقد غلب الخوف على سفيان الثوري رحمه الله تعالى

حتى صار يبول الدم فأتوه بطبيب يهودي فلما جس بطنه قال: ما أظن في الحنيفية مثل هذا وصار اليهودي يبكي ويقول: إن هذا الرجل قد قطع الخوف من الله تعالى كبده وليس فيه حيلة، وكان عطاء السلمي رحمه الله تعالى يقول: لو أوقدت ناراً وقيل كل من ألقى نفسه فيها صار لا شيء ولم يدخل النار الكبرى لألقيت نفسي فيها، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لو أوقفوني بين الجنة والنار وخيروني بين أن أصير رماداً وبين أن أصبر حتى أعرف أين مصيري لاخترت أن أكون رماداً.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: أشتهي أن يوقفني ربي عز وجل بين يديه ويقول: رضيت عنك يا مالك ثم أصير تراباً بعد ذلك، وكان علي بن بكار رحمه الله تعالى يقول: مكث عطاء السلمي رحمه الله تعالى على فراشه مزمناً من شدة الخوف اربعين سنة يعاد فبلغ ذلك بعض العباد فقال: وأي شيء الأربعون سنة والله لو عبد الله تعالى عدد شعر رأسه آلافاً من السنين لكان ذلك قليلاً في جنب سيئة واحدة يفعلها العبد.

وقد كانت فاطمة بنت عبد الملك رحمها الله تقول: ما رأيت أخوف لله تعالى من عمر بن عبد العزيز، كان رحمه الله تعالى إذا جلس مجلس الرجل من امرأته ارتعد من الهيبة وانتفض كالطير المذبوح، ثم لما ولي الخلافة جمعنا وجمع جواريه وقال: قد جاءني أمر شغلني عنكن فما أتفرغ لكن حتى أفرغ من الحساب يوم القيامة، فمن شاء أن يقيم عندي ولا يطالبني فليفعل ومن شاء الفراق فليفارق، ثم ترك القرب من عياله حتى مات، وقد كان عطاء السلمي رحمه الله تعالى عامة ليله يمس جلده بيده مخافة أن يكون قد مسخ وكذلك كان السري السقطيوبشر الحافي رحمهما الله تعالى. وكان اسحق بن خلف رحمة الله تعالى يقول: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه وهو مرتكب للمعاصى ، إنما الخائف الذى ترك الذنوب خوفاًمن ربه.

وكان السرى السقطى رحمه الله تعالى يقول: ليس الخائف الذي تأخذه رقة عند تلاوة القرآن مثلاً إنما الخائف الذي ترك طعامه وشرابه وطلق النوم حتى يعرف أين ينتهي حاله، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: لم يقدر عليّ بن الفضيل رحمه الله تعالى على سماع قراءة سورة القارعة حتى مات، وقد سمعها مرة على غفلة فمكث ثلاثة أيام بلياليها لم يع شيئاً، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى كثير ما ينشد قول الشاعر:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

اهـ فاعلم ذلك واتبع سلفك يا أخي تسلم، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الحزن

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الحزن على ما فرطوا في جنب الله ولو كانوا على عبادة الثقلين لا يرون أنهم قاموا بواجب حق الربوبية عليهم، ولا فرق في ذلك بين العارف والمبتدئ خلاف ما عليه بعض المتصوفة في هذا الزمان من قولهم: إنما يكون الخوف للمبتدئ وأما العارف فلا حزن عليه ولا خوف وهذا من زيادة الجهل، فإن الأكابر قد درجوا كلهم على توالي الحزن إلى أن ماتوا ولكن يحمل قول من قال من الأكابر أن العارف لا حزن عليه أي على فوات أمور الدنيا، وأما الآخرة فترك حزنهم على فواتها مذموم، فقد ورد في الحديث [إن الله تعالى يحب كل قلب حزين] يعني على فوات حظه من الله تعالى في الآخرة.

وكان موسى بن سعيد رحمه الله تعالى يقول: لقاح العمل الصالح الحزن، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يكن فيه ساكن خرب، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: والله ما يسع المؤمن في الدنيا إلا الحزن، وكان داود الطائي رحمه الله تعالى يقول: كيف لا يحزن في الدنيا من تتجدد عليه المصائب في كل ساعة -يعني الذنوب-.

ولما مات الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال وكيع رحمه الله قد ارتفع الحزن البالغ اليوم من الأرض، وكان عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: لو رأيتم الحسن البصري رحمه الله تعالى لقلتم إن الله تعالى قد بث عليه حزن الخلائق أجمعين من طول تلك الدمعة وتواصل النشيج. وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول: ليس أحد أشد همًا في الدنيا من المؤمن، لأنه شارك أهل الدنيا في المعايش وزاد عليهم باهتمامه بأمر الآخرة.

وقد كان الحسن البصري رحمه الله تعالى لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب عهد بمصيبة لما به من شدة الحزن وكذلك أصحابه، وقد كان هرم بن حيان رحمه الله تعالى لم يزل مهمومًا الشهر والدهر، فإذا قيل له في ذلك يقول: ومن أولى مني بذلك وأنا لا أعرف ماذا إليه مصيري اهـ.

فعليك يا أخي بالحزن حتى لا تجد لك وقتا تتفرغ فيه لشيء من شهوات نفسك في الدنيا وإلا فأنت مغرور فانتبه يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

عدم الاغترار بالله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم الاغترار بالله -تعالى بحيث يعتمد أحدهم على عفو الله ويترك الأعمال الصالحة، بل كانوا يبالغون في الاجتهاد في العبادة ثم يعتمدون على فضل الله تعالى لا على أعمالهم، وفي الحديث [الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني]، وقد سئل سعيد بن جبير رحمه الله عن الاغترار بالله تعالى ما هو؟ فقال: هو تمادي العبد في العصيان ثم يتمنى على الله المغفرة، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: أن أقوامًا خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنات من كثرة ما ألهتهم أماني المغفرة يقول أحدهم: إني لحسن الظن بربي عز وجل فلا أبالي أكثر العمل أم قل، وهو كاذب في ذلك إذ لو كان حسن الظن بربه حقيقة لأحسن العمل، قال تعالى: [وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ](١) وقد كان ميسرة العابد رحمه الله تعالى قد بدت أضلاعه من كثرة المجاهدة، وكان إذا قيل له أن رحمة الله واسعة يزجر القائل ويقول صحيح ذلك لولا سعة رحمته لأهلكنا بذنوبنا في طاعتنا فضلاً عن معاصينا.

وكان حذيفة بن قتادة رحمه الله تعالى يقول: لو قال لي شخص والله إن أعمالك أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له: صدقت لا تكفر عن يمينك، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: إن اليد تقطع في سرقة خمسة دراهم ولا شك أن أصغر الذنوب أقبح من سرقة خمسة دراهم فلك بكل ذنب قطع عضو في الدار الآخرة، وكان حذيفة المرعشي رحمه الله تعالى يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله تعالى على أحسن طاعاتك لما فيها من النقص وإلا فأنت هالك.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: ما أحد منا آمن أن الله تعالى يغفر له ذنبًا واحدًا فيصير أحدنا يعمل في غير معمل، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: أرجى الناس للنجاة أخوفهم على نفسه ألا ترى يونس عليه الصلاة والسلام لما ظن أن الله تعالى لا يعاقبه على دعائه على قومه عجل الله له المؤاخذة بحبسه في بطن الحوت، فعليك يا أخي بالخوف من الله عز وجل بطريقه الشرعي فإنه أولى بك، وهيهات أن تنجو مع كثرة أعمالك الصالحة وأكثر من الاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة فصلت، الآية ٢٣.

كثرة الصبر

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الصبر على البلايا والنوازل وعدم سخطهم على مقدور ربهم عز وجل وكانوا يقولون من لم يصبر فليتصبر لحديث [ومن يتصبر يصبره الله تعالى] فعلم أن من لم يصبر على فضول الدنيا من طعام ومنام وكلام وجماع وغير ذلك لا تقول له الملائكة يوم القيامة سلام عليكم بما صبرتم، بل هو يومئذ في هم وغم وعدم أمن بخلاف من سلمت عليه الملائكة عليهم الصلاة والسلام فإنه يأمن ويزول عنه الهم والغم ويصير في فرح وسرور وأمن، وقد كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول في قوله تعالى: [وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ][1] انه الفقر والمرض.

وكان كعب الأحبار ﷺ يقول: لا يوصف بالصبر إلا من صبر على أذى الناس له ولم يقابلهم بنظيره يعني لا سرًا ولا جهرًا حتى بالدعاء عليهم والتوجه فيهم إلى الله تعالى، وأعظم الصبر أيضًا صبر العبد عما نهى الله عنه وعلى ما أمره الله بفعله، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إن الله تعالى ليواصل البلاء بعبده المؤمن فينـزل عليه بلاء بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة، وقد عثرت امرأة فتح الموصلي رحمها الله تعالى مرة فطار ظفرها فضحكت، فقيل لها: ألم تجدي ألم الظفر؟ قالت: بلى ولكن ثواب ذلك ألهاني عن وجود الاشتغال بالألم، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لولا الفقر والمرض والموت ما طأطأ ابن آدم رأسه من شدة الكبر، ثم بعد ذلك هو وثاب على معاصي الله تعالى.

وقد شكا الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى وجع ضرسه لعمه فقال له: يا أحنف أراك تشكو وضع ضرسك من ليلة واحدة والله إن لي بذلك نحو ثلاثين سنة ما أظن أن أحدًا شعر بذلك غيرك، وكان أبو سليمان الداراني يقول: مر موسى عليه الصلاة والسلام يومًا برجل قد خرقت السباع بطنه ونهشت لحمه فعرفه موسى فوقف عليه وقال: يا رب إنه كان مطيعًا لك فما الذي أرى. فأوحى الله إليه يا موسى أنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فابتليته لأبلغه تلك الدرجة.

وقد كان كعب الأحبار رحمه الله تعالى يقول: من شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله تعالى لم يجد للعبادة بعد ذلك حلاوة حتى يتوب الله تعالى عليه، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: أوحى الله تعالى إلى العزير عليه السلام إذا نزلت بك بلية فاحذر أن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

تشكوني إلى خلق، وعاملني كما أعاملك فكما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعد إليّ عملك القبيح كذلك لا ينبغي أن تشكوني إلى خلقي إذا نزل بك بلاء، وقد بلغني أنه لما أهلك الله تعالى جميع مال أيوب عليه الصلاة والسلام دخل بيته ونزع ثيابه وقال: هكذا خرجت إلى الدنيا وكذا أخرج منها.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود اصبر على المئونة تأتك من الله المعونة، وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: لو كانت الدنيا نعيمًا بلا كدر لكانت هي الجنة ولم نحتج إلى الانتقال منها، وكان محمد بن الحنيفية ﷺ يقول: احذر من الشكوى فإنها تفرح عدوك وتحزن صديقك اهـ، فاعلم يا أخي ذلك وكن صابرًا تغنم والحمد لله رب العالمين.

كثرة التسليم لأمر الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة التسليم لأمر الله تعالى والرضا بقضائه عند فقد ولد أو أخ أو أحد من الأهلين والأقارب إيثارًا لمراد الله عز وجل على مرادهم، وقد مات مرة ولد لداود عليه الصلاة والسلام فحزن عليه حزنًا شديدًا فقيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبًا أنفقه في سبيل الله عز وجل، فأوحى الله إليه لك من الأجر مثل ذلك، وكان بكر المزني رحمه الله تعالى يقول: لا فائدة في الجزع بعد الموت لأنه لا يرد فائتًا، وقد كان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم صاحب المصيبة قد مزق ثيابه وأظهر الجزع فلا تعزوه فإنه صاحب إثم فمن عزاه فقد شاركه في الإثم، إنما الواجب نهيه عن ذلك وكان أبو سعيد البلخي رحمه الله تعالى يقول: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبًا أو ضرب خدًا فكأنما أخذ رمحًا يقاتل به ربه عز وجل، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: من أصيب بمصيبة فليفعل في اليوم الأول ما يفعله في اليوم الخامس من مصيبته -يعني من ضحك أو أكل وغير ذلك-، وفي الحديث قال ﷺ: [من سعادة العبد رضاه بقضاء الله تعالى].

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي من لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ له ربًا سواي، ومن استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر نعمائي كتبته صديقًا وبعثته مع الصديقين، وكان أبو هريرة ﷺ يقول: من ذروة الإيمان الاستسلام

للرب جل جلاله، وكان وهب بن منبه رحمه الله يقول: من حزن على ما في يد غيره -يعني حسد أخاه على رزقه- فقد سخط على قضاء ربه.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود إن أسلمت لي ما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي ما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ما الذي تريد؟ فقال: أريد ما يريد الحق تعالى وإن كانت نفسي تكره المعاصي، وكان ميمون بن مهران رحمه الله يقول: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء، وكان عبد العزيز بن روادر رحمه الله تعالى يقول: ليس الشأن في لبس العباءة وأكل الخل والشعير، ولكن الشأن في رضا العبد عن ربه، وقد كان عبد الله بن سلام ﷺ يقول: شكا نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما ناله من المكروه إلى ربه عز وجل، فأوحى الله إليه إلى كم تشكوني ولست بأهل ذم ولا شكوى هكذا كان بدء شأنك في عالم الغيب فلم تسخط على حسن قضائي عليك أفتريد أن أغير الدنيا من أجلك وأبدل اللوح المحفوظ بسببك وأقضي لك بما تريد دون ما أريد ويكون ما تحب دون ما أحب أنا، فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة ولأوردنك النار ولا أبالي.

(قلت) قد أجمع العلماء على أن المعصوم لا يصح سلبه فالظاهر أن ما ورد هنا على سبيل الفرض والتقدير. وما كل ما يوعد الله به عباده واقع فليتأمل والله تعالى أعلم، وكان محمد بن شقيق رحمه الله تعالى يقول: اشتريت مرة لأمي بطيخة فلم تعجبها فسخطت، فقلت لها يا أماه على من تسخطين على بائعها أم على مشتريها أم على خالقها، فوالله إن خالقها لأحسن الخالقين، وإن البائع والمشتري ما أعطياك إلا ما قسم لك في الأزل، قال: فاستغفرت أمي من ذلك وتابت، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: لأن الحس جمرة بلساني أحب إليّ من أن أقول لشيء وقع لم وقع هذا.

وكان محمد بن واسع رحمه الله يقول: ما ثم فعل الله تعالى إلا ويجب على العبد شكر ربه عليه من حيث أنه حكيم عليم، وأما من حيث كسب العبد فيجب عليه عدم الرضا به إن كان مذمومًا تعظيمًا لجنابه عز وجل، وقد طلعت مرة في رجل محمد بن واسع قرحة شديدة فقال له رجل من أصحابه: والله إني لأرحمك من أجل هذه، فقال له محمد: إن كنت تحبني يا أخي فاشكر الله تعالى معي الذي لم يطلعها في لساني أو في عيني أو في أذني أو في ثديي أو تحت إبطي أو في فرجي.

ولما سقطت مقادم أسنان معاوية ﷺ قال: الحمد لله الذي لم يذهب سمعي ولا بصري، وقد روى عن يونس عليه الصلاة والسلام أنه قال يومًا لجبريل عليه الصلاة والسلام دلني على أعبد أهل الأرض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وشعره، قال: فدنا يونس منه فسمعه يقول إلهي قد متحتني بقوتي كما تشاء ثم سلبتني قوتي كما تشاء وأبقيت لي فيك الأمل بالخير فلك الفضل عليّ، وكان بشر بن الحرث رحمه الله تعالى يقول: اجتمعت في ساحتي برجل مجذوم أبرص أعمى وقد صرع في الشمس، والقمل يأكل لحمه قال: فرفعت رأسه من الأرض ووضعتها في حجري فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي عز وجل، فوعزته وجلاله لو قطعني أربًا أربًا ما ازددت فيه إلا حبًا.

وقد روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر يومًا برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بالجذام والفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام فدنا منه عيسى فسمعه يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، فقال له عيسى: وأي شيء صرفه عنك من البلاء يا هذا؟ فقال له: صرف عني الجهل به وخلع عليّ معرفته، فقال له عيسى: صدقت هات يدك فناوله يده فذهب ما كان به وصار من أحسن الناس وجهًا وصحبة يعبد الله تعالى معه إلى أن رفع عيسى ﷺ، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: الرضا من الله تعالى والرحمة للخلق من أخلاق المرسلين، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: الرضا عن الله تعالى أفضل من الزهد في الدنيا لا إن الراضي عن ربه عز وجل لا يتمنى فوق منزلته.

وكان الداراني رحمه الله تعالى يقول: لو أن الله تعالى أدخلني النار لكنت راضيًا عنه، وكان سليمان الخواص رحمه الله تعالى يقول: من قال يا رب ارض عني فليس هو براض عن ربه، وكان أبو عبد الله الباجي رحمه الله تعالى يقول: عبيد الدنيا يريدون من ساداتهم أن يرضوا عنهم وعبيد الله تعالى يريد منهم أن يرضوا عنه، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: رضا الناس غاية لا تدرك اهـ، فانظر يا أخي في هذا الخلق الذي ذكرناه واشكر ربك إن رأيت نفسك من أهل الصبر وإلا فاستغفره وتب إليه، والحمد لله رب العالمين.

الشكر لله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شهودهم في نفوسهم أنهم لم يقوموا بذرة واحدة من شكر ربهم، وذلك لأنهم يرون أن جميع ما يشكرونه من جملة نعمه عليهم فلا تنفذ نعم الله تعالى ابدًا ولا يصح من أحد مقابلتها، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول: ما قال عبد الحمد لله إلا وجب عليه بذلك شكر آخر، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: إذا كان الذي تشكر الله تعالى به نعمة منه عليك من نعمه عز وجل فما ثم شكر حقيقة، وإنما الشكر اعترافك بكثرة نعمه عليك وأنك لا تحصي ثناء عليه عز وجل.

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى يقول: أداء الشكر لله تعالى أنك لا تعصيه بنعمه عليك فإن جوارحك كلها من نعمه عليك فلا تعصه بشيء منها، وقد كان مجاهد ومكحول رحمهما الله تعالى يقولان في قوله تعالى: [لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ][1] إنه الشراب البارد وظل المساكن وشبع البطن واعتدال الخلق ولذة المنام، وقد سئل الحسن البصري عن الفالوذج أهو من أكبر النعم؟ فقال: نعمة الله سبحانه وتعالى علينا في الماء البارد العذب أعظم منه.

وقد مر وهب بن منبه رحمه الله تعالى يومًا على رجل أصم أبكم مصاب فقال له شخص هل بقي على هذا نعمة، فقال وهب: نعم إساغة ما يأكل وما يشرب وتسهيله ونحو ذلك، يعني إذا خرج فذلك أعظم من النعم الظاهرة التي فاتته، وكان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: لو قاس الناس البلاء بما فوقه لوجدوا بعض البلايا عافية، وقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا قدم إليه طعام يقول الحمد لله الذي جعلني أشتهيه فكم من يقدر عليه ولا يشتهيه يعني من شدة المرض والوجع، وكان سفيان الثوري إذا مر عليه أحد من أهل الشرطة يخر ساجدًا لله تعالى ويقول: الحمد لله الذي لم يجعلني شرطيًا ولامكاسًا ثم يقول لأصحابه إنه يمر على أحدكم المبتلى الذي يؤجر على بلائه فتسألون ربكم العافية ويمر عليكم هؤلاء الظلمة الذين يأثمون ببلائهم فلا تسألون الله العافية، وكان زيد بن أسلم رحمه الله تعالى يقول: مكتوب في التوراة العافية هي الملك الخفي، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: من كان له زوجة ومسكن ومركب وخادم فهو من الملوك،

---

(١) سورة التكاثر: الآية ٨.

وكان جعفر بن سليمان رحمه الله تعالى يقول في قوله عز وجل [وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً] [١] إن الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك ورزقك، والباطنة ما ستر الله تعالى عن الناس من عيوبك وذنوبك ذكره ابن عباس رضي الله عنهما.

وكان عون بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول: إن الله تعالى أنعم على العباد على حسب كرمه وطلب منهم الشكر على قدر حالهم، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ] [٢] قال يعني يعد المصائب وينسى النعم، وكان عون بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا] [٣] يعني يرون النعم أنها من الله عز وجل ثم يضيفونها إلى الخلق غافلين عن الله تعالى ويقولون لولا فلان ما وصلت إلينا اهـ.

وكان بشر الحافي ﷺ يقول: من شكر الله بلسانه دون بقية أعضائه فقل شكره لأن شكر البصر إن رأى خيرا وعاه أو شرا ستره، وشكر السمع إن سمع خيرا حفظه أو شرا نسيه، وشكر اليدين أن لا يأخذ بهما ولا يعطي إلا حقا وشكر البطن أن يكون ملآنا من العلم والحلم وشكر الفرج أن لا يفعل به إلا ما أبيح له وشكر الرجلين أن لا يمشي بهما إلا في الصلاح، فمن فعل ذلك فهو من الشاكرين حقا اهـ. ففتش نفسك يا أخي وانظر هل شكرت ربك كما شكر هؤلاء أم قصرت فاستغفر الله، والحمد لله رب العالمين.

التقوى

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة تدقيقهم في التقوى وعدم دعوى أحد منهم أنه متق فإن الحق تبارك وتعالى ربما أحصى على العبد مثاقيل الذر وهذا خلق غريب في هذا الزمان، بل غالب الناس يدعي التقوى من غير مناقشة لنفسه ويقنع بذكره الله تعالى صباحا ومساء مثلا ولا يناقش نفسه في قول ولا فعل ولا مطعم ولا مشرب ولا ملبس بل هو كالتمساح الهائم على الحرام، فصورة عمامته وعذبته صورة شيخ وأقواله وأفعاله على صورة الفسقة والمنافقين، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: لا يبلغ أحد مقام التقوى حتى لا يكون له فعل ولا قول يفتضح به في الدنيا والآخرة، وقد قال له رجل

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

(٢) سورة العاديات، الآية ٦.

(٣) سورة النحل، الآية ٨٣.

مرة متى يبلغ العبد سنام التقوى، فقال: إذا وضع جميع ما في قلبه من الخواطر في طبق وطاف به في السوق لم يستح من شيء فيه، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: الإيمان عريان ولباسه التقوى، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: لا يقل عمل مع تقوى لأنه مقبول، قال تعالى: [إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ][1].

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: ليس التقوى في صيام النهار وقيام الليل مع التخليط فيما بين ذلك، وإنما التقوى ترك ما حرم الله تعالى وأداء ما افترض الله فمن زاد بعد ذلك فهو خير إلى خير، وكان رحمه الله تعالى كثيرًا ما يقول علامة المتقي أن يلجم عن الكلام كما يلجم المحرم حال إحرامه، ويحتاج المتقي أن يكون عالمًا بالشريعة كلها وإلا خرج عن التقوى من حيث لا يشعر، وكان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقول: من كمال التقوى أن يخاف العبد من ربه في مثقال ذرة.

وقد سئل أبو هريرة ﷺ عن التقوى فقال: هي طريق الشوك يحتاج الماشي فيها إلى صبر شديد، وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: أدركنا الناس وهم يحبون من قال لأحدهم اتق الله تعالى، وقد صاروا اليوم يتكدرون من ذلك وقد قال رجل لعمر بن عبد العزيز اتق الله يا عمر فخر مغشيًا عليه من هيبة الله تعالى، وقال رجل للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أي البلاد تحب لي أن أقيم فيه فقال له: ليس بينك وبين بلد نسب بل خير البلاد ما حملك على التقوى، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لو اتقى أحد منا ربه ما هنأه عيش ولا أخذه نوم اهـ.

ففتش يا أخي في نفسك هل اتقيت الله تعالى كتقوى هؤلاء السلف أم قصرت عنهم واستغفر ربك، والحمد لله رب العالمين.

ستر الإخوان

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة سترهم لإخوانهم المسلمين وشدة مناقشتهم لنفوسهم في مقام التورع، فكانوا لا يحبون أن تظهر لأحد عورة وكانوا يحاسبون أنفسهم في أقوالهم وأفعالهم وطعامهم وشرابهم وتفقد جميع جوارحهم في وقوعها فيما حرم الله عليها لا سيما اللسان والبطن والفرج والعين، وقد بسطنا هذا الخلق في كتابنا المنهج

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

المبين، وفي الحديث [انته عما نهاك الله عنه تكن أورع الناس] وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار وصليتم حتى تكونوا كالحنايا ما نفعكم ذلك إلا إذا كان معكم ورع صادق، وكان أبو هريرة ﷺ يقول: جلساء الله تعالى يوم القيامة هم أهل الورع والزهد، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لا خير في فقه لا ورع فيه كما لا خير في صلاة لا خشوع فيها ولا مال لا جود فيه، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: حقيقة الورع هو الخروج عن الشبه ومحاسبة النفس مع كل خطرة فمن لم يكن كذلك فليس هو بورع.

وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول: لا تستهن بالتورع في اليسير فإن الاستهانة فيه سلم لترك الورع في الكثير، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: من طلب العلم بلا عمل كان قدوته إبليس، ومن طلب الرياسة كان قدوته فرعون، ومن طلب الورع كان قدوته الأنبياء والأصفياء عليهم الصلاة والسلام، وكان الضحاك رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتعلمون الورع ويسافرون لتعلمه الثلاثة أشهر وأكثر وقد صاروا اليوم لا يطلبون ذلك ولا يعملون به ولو نبهوا عليه فلا حول ولا قوة إلا بالله، وقد كان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى إذا رأى بعض شبهة في شيء تركه كله ولو كان جميع بيت المال.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام. وكان السلف إذا وقع من أحدهم دينار في مكان ثم تذكره رجع فرآه لا يأخذه ويقول: يحتمل أن هذا وقع من غيري وأن ديناري أخذه أحد، وقد سئل محمد بن سيرين رحمه الله تعالى عمن يسد أنفه عند قسم للسك في الغنيمة هل به بأس فقال: لا أقول فيه شيئًا، وقد سئل عن ذلك أيضًا القاسم بن محمد فقال: هو كالتورع ولا أقول هو ورع أدبًا في اللفظ.

وقد قيل لرباح بن قيس رحمه الله تعالى حدثنا بما رأيت من ورع عمر بن عبد العزيز، فقال: دعانا رحمه الله تعالى ليلة إلى طعامه فبينما نحن نأكل إذ قال لنا أمسكوا فإن زيت هذا الصباح من زيت العامة الذي أنظر فيه ديوانهم، وكان طلحة بن مصرف رحمه الله تعالى إذا بنى جدار أو خصًا يجعل الجدار مائلاً إلى ناحيته ليكون الطين الذي يطين به البناء من غير جهة الطريق، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يتورع أن يقول سبحان الله تعالى عند التعجب من شيء إجلالاً لربه.

وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا تناول ولده تفاحة من الفيء ينـزعها من فيه بشدة ويقول انتزعها خوفاً من الله تعالى وكأنني انتزعها من قلبي، وقد بلغنا عن الإمام أبي حنيفة ﷺ انه ذهب إلى غريم له ليطالبه بدين وكان للرجل شجرة على باب داره فوقف الإمام في الشمس وطالبه، فقيل له ألا تقف في ظل الشجرة، فقال: لا إن لي على صاحبها ديناً وكل قرض جر نفعاً فهو ربا كما ورد ذلك عن النبي ﷺ، وكان المغيرة بن شعبة رحمه الله تعالى إذا اشترى شيئاً من طوافي الأسواق يعدل به عن الشارع ويشتري منه خوفاً أن يحجز المشي عن المارة.

وقد استعار القاضي بكار بن قتيبة رحمه الله تعالى من والدته رداء ليخبز فيه خبزه فكلمه شخص من أصحابه في الطريق فلم يقف له، فقال له ألا تكلمني؟ فقال: يا أخي إنما استعرت هذا الرداء لأخبز فيه لا لأقف مع أحد في الطريق، ولو علمت أنك تكلمني لكنت استأذنتها في ذلك، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يجعل ميزاب سطحه إلى جهة داره دون الشارع خوفاً أن يشوش على أحد، وقد ماتت عنده هرة فحفر لها ودفنها في داره ولم يرمها في المزابل خوفاً أن يشوش ريحها على الناس، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تسافروا إلى مكة بشيء من الشبهات فإن رد دانق من حرام أو شبهة أفضل عند الله تعالى من خمسمائة حجة فيها شبهة، وقد ترك يزيد بن دريج مال والده رحمهما الله لما مات وكان مالاً جزيلاً وقال: كنت أشك في حل كسبه لكونه كان يبيع على الولاة.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى لا يأكل من كسب غلامه إذا باع شيئاً وصلى على النبي ﷺ عند بيعه، فكان يقول إنك أطريت عليه بالصلاة على رسول الله ﷺ ومدحته بها حتى اشتراه الناس فإياك أن تفعل ذلك أو تقول للمشتري هذا رخيص أو مليح مثلاً بل بعه وأنت ساكت، وقد دخل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى السوق ليشتري لأولاده خبزاً فرأى الخباز يسبح الله ويهلله ويصلي على النبي ﷺ عند بيعه الخبز فأبى الفضيل ان يشتري منه وطوى هو وأولاده حتى لقي من الغد شخصاً يبيع الخبز وهو ساكت فاشترى منه فقيل له: إن هذا أمر سهل يا أبا علي فقال: إن سهلكم هذا أخاف أن يوردني النار.

وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يبيع البرد والأكسية فإذا كان يوم غيم لا يبيع ولا يخرج بها إلى السوق فسئل عن ذلك فقال: إن المشتري ربما يراه حسناً في الغيم وهو

معيب، وقد كان الأصمعي رحمه الله تعالى يقول: من طلب من الفقهاء الرخصة عند المشتبهات فعلمه زاده إلى النار، وقد اشترى أبو علي النجوراني رحمه الله تعالى قميصًا ولبسه فقال له شخص إني اشتريت هذا الثوب وفيه درهم من شبهة قال فدخل الماء وتعرى من القميص وقال من يتصدق عليّ بثوب حتى أخرج من الماء فألقوا عليه ثوبًا انتهى.

فانظر يا أخي في هذا الخلق وفتش نفسك واتبع سلفك في الورع واترك دعوى الصلاح إذا لم تفعل كذلك فإن من لا ورع عنده فهو من الفسقة عند المتورعين ليس له نصيب في مقامهم، والحمد لله رب العالمين.

التودد

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): التودد والسكينة والوقار وقلة الكلام وذلك لكمال عقولهم وكثرة تجاربهم لأهل عصورهم، ومن كلام أمير المؤمنين علي ﷺ قوله: ينتهي طول العبد في اثنتين وعشرين سنة وينتهي عقله في ثمان وعشرين سنة وما بعد ذلك إلى آخر عمره إنما هو تجارب انتهى، فعلم أن كل من كان قليل العقل لا يصلح أن يكون داعيًا إلى الله تعالى لأن الذي يفسده أكثر من الذي يصلحه وفي الحديث [كرم الرجل دينه ومروءته وعقله وحسن خلقه] وكان قتادة رحمه الله تعالى يقول: الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا شيء، فالرجل هو من كان له عقل ورأي ينتفع به، ونصف الرجل هو الذي يشاور العقلاء ويفعل برأيهم، والذي لا شيء هو الذي لا عقل ولا رأي له ولا يشاور أحدًا، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: أفره الدواب لا غنى له عن السوط وأعقل النساء لا غنى لها عن الزوج وأعقل الرجال لا غنى له عن مشورة ذوي الألباب انتهى.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: من صار يتدبر ما يقول قبل النطق فهو أعقل الناس، وكان مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول: عقول الناس على قدر عصورهم وقد سئل أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه عن العقل أين مسكنه؟ قال: في القلب، قيل له: فأين مسكن الرحمة؟ قال: في الكبد، قيل له: فأين مسكن الرأفة؟ قال: في الطحال، قيل له: فأين مسكن النفس؟ قال في الرئة.

وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من ادعى العقل ولم تكن همته الآخرة فهو كاذب، وكان محمد بن زياد رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل عقل الرجل حتى يحذر من صديقه، وكان هشام الدستوائي رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن ينظر إلى قوم بلا

عقول فلينظر إلينا، وكان زياد رحمه الله تعالى يقول: ليس بعاقل من يحتال للأمر بعد الوقوع فيه وإنما العاقل من يحتال للأمر قبل الوقوع فيه، فإن خمير الرأي من فطيره اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي واتبع سلفك الطاهر تسترح، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الصمت

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الصمت والنطق بالحكمة تسهيلاً على الطالب نظير قوله ﷺ: [أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً] وكان أبو الحسن الهروي رحمه الله تعالى يقول: تهيج الحكمة من أربع خصال: الندم على الذنب والاستعداد للموت وخلو البطن وصحبة الزهاد في الدنيا، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: اشتغل محمد بن يوسف رحمه الله بالعبادة فأورثته الحكمة واشتغلنا بكتابة العلم فأورثتنا الخصومات يعني بذلك الجدال، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: تهوى الحكمة من السماء فلا تنزل على قلب فيه هذه الأربع خصال: الركون إلى الدنيا وحمل هم غد وحسد لأخ وحب شرف على الناس، فمن كان فيه خصلة من هذه فلا تدخل قلبه الحكمة.

(فمن جملة حكمهم) قول حاتم الأصم رحمه الله تعالى لا تنظر من قال وانظر إلى ما قال وخذ الحكمة حيث وجدتها فإنها ضالة المؤمن فإذا وجدتها فقيدها ثم ابتغ ضالة أخرى.

(ومنها) قول الإمام أبي حنيفة ﷺ من رضي بدون قدره رفعه الله فوق غايته، وقوله: عليك بالحكمة فإنها تجلس المساكين مجالس الملوك، ومنها قول أكثم بن صيفي رحمه الله تعالى الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرين السوء فكن بين المنقبض والمنبسط.

(ومنها) قول الإمام الشافعي ﷺ أقل الناس في الدنيا راحة الحسود والحقود، وقال رجل للأحنف بن قيس رحمه الله تعالى إني أراك يا أحنف أعور فبم سودك قومك عليهم، فقال له: لكوني لم أشتغل إلا بما يعنيني فقط كما اشتغلت أنت بما لا يعنيك، فإن قيل ما ضابط الكلام الذي لا يعني الشخص، فالجواب إن ضابطه كل ما لا تدعو إليه حاجة دينية أو دنيوية والله أعلم.

وقد قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى متى يذهب من العبد العلم والحلم والحكمة، فقال: إذا طلب الدنيا بشيء من هؤلاء الثلاث، وكان رحمه الله تعالى يقول: إذا ذمك أبناء الدنيا أو مدحوك فاصرف ذلك إلى الخرافات لكونهم مطموسين البصائر، واعلم أن تكسب الرجل وهو يحن إلى الزهد خير له من الزهد وهو يحن إلى التكسب، وكان رحمه الله تعالى يقول: خلوة المريدين غم الشياطين ورؤية الناس نشاط المرائين، وكان رحمه الله تعالى يقول: من ستر عليك ذنوبك ولم يفضحك فهو أولى بك من سائر الخلق، فإنك تذنب ألف ذنب فيما بينك وبين الله تعالى فيسترها عليك، ولو أن الخلق اطلعوا على عيب واحد فيك لفضحوك بين العباد.

(ومنها) قول أبي محمد الرذاماري رحمه الله تعالى إذا جمعت المال فأنت وكيل، وإذا أعطيته فأنت رسول فالوكيل لا يخون والرسول لا يمن. (قلت) عدم خيانة الوكيل أن لا يمنع أحدًا من بخل بل ينفق كما أمره الله ويمنع لحكمة كما منع الله وعدم من الرسول أن يرى الفضل لمرسله ولا يرى له فضلاً بما أعطى إلا على وجه الشكر لله تعالى والله أعلم.

(ومنها) قول أبو معاوية الأسود رحمه الله من طلب من الله الخير الجزيل فلا ينم في الليل ولا يقيل، وقوله: من طلب الفضل من اللئام فلا يلومن إلا نفسه إذا أهين.

(ومنها) قول إمامنا الشافعي ﷺ أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة من لا ينفعه وقبل مدح من لا يعرفه، وقوله: من نم لك نم عليك، ومن نقل إليك نقل عنك ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك، وقوله إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر فإن ولد له ولد فقد كسرت به المركب، وقوله: طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان، وقوله: إذا ولي أخوك ولاية فارض منه بعشر الود الذي كان لك قبلها.

(ومنها) قول أبي أمامة رحمه الله تعالى من آذى الناس بلا سلطان فليصبر على الهوان، وقوله: من صبر على الإساءة فقد مهد للإحسان موضعًا، وقوله: من لم ينلك الخير في حياته فلا تبك عيناك على وفاته، وقوله: إذا رضى الراعي بفعل الذئب لم ينبح الكلب على الغريب، وقوله: الاعتراف يهدم الاقتراف ولم تزل الأشراف تبتلى بالأطراف.

(ومنها) قول عبد الله بن مسعود ﷺ اللهم وسع عليّ الدنيا وزهدني فيها ولا تقترها عليّ وترغبني فيها، وقوله: اللهم اجعلني اليوم مشغولاً بما أكون عنه غدًا مسئولاً، وقوله: التواضع يرفع الخسيس والكبر يضع النفيس ومن طلب الرياسة أعيته ومن فر منها تبعته،

وقوله: لا تفرح بكثرة العيال فإن ذلك سوس المال وفضيحة الرجال.

(ومنها) قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى من كثر عتابه قل أصحابه ومن أعطى الفاجر فقد أعانه على الفجور، ومن سأل اللئيم فقد أهان نفسه ومن طلب العلم ممن لا يعمل به زاده جهلاً، ومن علم الأبله فقد ضيع عمره بلا فائدة ومن صنع المعروف مع كفور فقد ضيع النعمة.

(ومنها) قول يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى في الكف عن المحارم يكون رضا الرب وعند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر وعند طول الغيبة تظهر مواساة الإخوان وبالأدب يفهم العلم وبترك الطمع تثبت المؤاخاة وبصلاح النية تدوم صحبة الأخيار، وقوله: من كان القرآن قيده كان إطلاقه من الموت ومن ذبحته العبادة أحياه الفوز، ومن ترك شهوة الدنيا عوضه الله تعالى شهوة ذكره، وقوله: من حلم ساد على أقرانه ومن نفذ غضبه غمس في بحر هوانه، وقوله: كدر الاجتماع خير من صفاء الافتراق وإذا كان القريب عدواً فهو البعيد وإذا كان البعيد ودوداً فهو القريب.

(ومنها) قول بشر الحافي رحمه الله تعالى إذا أخلت النوافل بالفرائض فاتركوا النوافل، وقوله: من لم يستحسن الحسن لم يستقبح القبيح، وقوله: ليس مع الاختلاف ائتلاف، وقوله: إن لم نؤت من قبل النعم وإنما أتينا من قلة الشكر عليها كما أنا لم نؤت من قلة العمل وإنما أتينا من قلة الصدق فيه، كما أنا لم نؤت من كثرة الذنوب وإنما أتينا من قلة الحياء، كما أنا لم نؤت من قلة الاستغفار وإنما أتينا من قلة الوفاء وسرعة الرجوع إلى الذنوب من غير عقوبة عليها، ولو أن العقوبة عجلت لنا لانتهينا عن المعاصي انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي ونظف باطنك من محبة الدنيا وشهواتها وأكثر من ذكر الله تعالى فإذا تم جلاء باطنك فهناك ينطقك الله تعالى بالحكمة وتصير حكيم زمانك، وأما مع محبتك للدنيا فهذا بعيد عنك، والحمد لله رب العالمين.

عدم الحسد

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم الحسد لأحد من المسلمين وبذل النصيحة لكل مسلم بطريقه الشرعي ولذلك سادوا الناس ولو كان عندهم حسد لأحد أو غش لما سادوا ولا قبلت الملوك أقدامهم، فإن طلبت يا أخي أن تكون كذلك فاسلك طريقهم خالصاً مخلصاً وإلا فالمتحل قد يطلع الله تعالى بعض الناس على تفعله فلا يروج له أمر.

وقد سمعت شيخنا سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أخلص عمله لله تعالى جعل الله عز وجل قلوب المؤمنين تخلص في محبته، وأما من لبس في دينه أطلع الله تعالى بعض أصفيائه على باطنه فلا يخلص له قلب أحد منهم في محبته انتهى.

وفي الحديث [إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب] اهـ، وإذا فنيت حسنات العبد ذهبت سيادته لأنه يصير إما صاحب سيئات أو أمره موقوف لا حسنات ولا سيئات، ومن المعلوم أن السيادة والتعظيم إنما يكونان لمن فاق الناس في الأعمال والأخلاق الصالحة، وكان الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى يقول: لا راحة لحسود ولا سيادة لسيئ الخلق، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: ما ثم صاحب نعمة إلا وله عليها حساد.

وكان فرقد السنجي رحمه الله تعالى يقول: دواء ترك الحسد هو الزهد في الدنيا وأما من رغب في الدنيا فالحسد من لازمه شاء أو أبى اهـ، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من شأن الحسود عدم الفهم فمن أراد جودة الفهم فلا يحسد أحدًا وإني لأترك في بعض الأوقات لبس الثوب الجديد مخافة أن يهيج الحسد عند جيراني أو غيرهم، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: المحسود على ما عنده من النعمة خير ممن ليس عنده نعمة يحسد عليها فيشكر الله تعالى على نعمته ويعذر الحسود، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: اتقوا الحسد فإنه أول ذنب عصى الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عصى الله تعالى به في الأرض.

وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: إن أردت أن تسلم من شر من يحسدك فعم عليه أمورك، وكان مسعر بن كدام رحمه الله تعالى يقول: ما آثر القوم النصيحة لإخوانهم إلا لوفور شفقتهم عليهم، وقد صارت النصيحة اليوم كالعداوة وما نصحت أحدًا إلا وصار يفتش في عيوبي وينسى العمل بنصحي، وكان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى يقول: ما حسد قط أحدًا على دين ولا دنيا وذلك من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى علي، وقد كان أيوب السختياني رحمه الله تعالى من أنصح الناس لإخوانه شفقة على دينهم أن ينقص، وكان يقول إني لأرحم هؤلاء العصاة الغافلين عن ربهم عز وجل، وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو بلاء يمرض لذلك ويصير يعاد كما تعاد المرضى فإذا ارتفع ذلك الهم يبرأ من وقته.

(قلت) ومن صح له هذا المقام فلا يتطبب بأحد من الأطباء لأنهم ليس لهم يد في ذلك والله أعلم، وقد قال عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى يومًا للحجاج بن يوسف: يا حجاج ما من أحد إلا ويعرف عيب نفسه لا يكاد يخفى عليه شيء منه فقل لي يا حجاج على عيبك، فقال له الحجاج: أعتقني من ذلك يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك لابد واقسم عليه، فقال الحجاج: من عيبي أنني لجوج حسود حقود، فقال له عبد الملك: قاتلك الله ليس في الشيطان أشر مما قلت.

وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: إني أجيز شهادة القراء على الناس ولا أجيزها على بعضهم مع بعض، لأنهم قوم حسدة، وكذلك كان الإمام مالك ﷺ يقول: سئل أوس بن خارجة من سيدكم، فقال حاتم الطائي، فقيل له: أين أنت منه، فقال: لا أصلح أن أكون خادمًا له. وسئل حاتم الطائي من يسودكم؟ فقال: أوس بن خارجة. فقيل له: أين أنت منه؟ قال: لا أصلح أن أكون مملوكًا له، فكان الإمام مالك ﷺ يقول: أين فقهاؤنا من هذا الأمر، وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يومًا لرجل من بعض القبائل من سيدكم يا هذا؟ فقال الرجل: أنا يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: كذبت لو كنت سيدهم ما قلت ذلك.

وقد كان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: من علامة الحاسد أن يدنيه منك الطمع ويبعده عنك سوء الطبع، وإن أعظم الناس حسدًا الأقربون والجيران لمشاهدتهم النعمة التي يحسدون عليها بخلاف البعيد، ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما أن مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى لسفيان الثوري رحمه الله اعلم أن لو بذلت النصيحة للناس حتى صاروا مثلك في الدين ما وفيت بالنصيحة لهم فكيف توفيهم النصيحة ولم يبلغوا حالك، وكان شقيق البلخي رحمه الله تعالى يقول: إذا كان فيك من الخصال ما يخافه عدوك فليس فيك خير فكيف إذا كان فيك ما يخافه صديقك، واعلم أن من تعرض لمساوئ الناس عرض نفسه للهلاك ومن سلم الناس منه سلم هو من الناس، ومن نم على الناس افتقر في دينه ودنياه وصار من خدام إبليس اهـ.

ففتش يا أخي نفسك وانظر هل سلمت من الحسد لإخوانك المسلمين على ما آتاهم الله تعالى من فضله، وهل بذلت لهم النصيحة كما أمرك الله أم أنت بالضد من ذلك واستغفر الله والحمد لله رب العالمين.

شدة الجوع

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة الجوع وعدم الشبع وذلك ليكثر صمتهم ويقل كلامهم وفضول لغوهم كما هو شأن العلماء العاملين، فإن من شبع كثر كلامه فيما لا يعنيه ضرورة، وكان محمد الراهبي رحمه الله تعالى يقول: من أدخل في بطنه فضول الطعام أخرج من لسانه فضول الكلام، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: رمي الناس بالسهام أخف من رميهم باللسان لأنه لا يخطئ، وكان إمامنا الشافعي ﷺ يقول: الكلمة كالسهم إن خرجت منك ملكتك ولم تملكها.

وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: [قلت للنبي ﷺ يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ، فقال: «هذا» وأشار إلى لسانه ﷺ]، وكان إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى يقول: من تأمل وجد أشرف أهل كل مجلس وأكثرهم هيبة من كان أكثرهم سكوتا، لأن السكوت زين للعالم وستر للجاهل، وكان وهيب بن الورد رحمه الله يقول: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وواحد في الهرب من الناس، قال: ومكث منصور بن المعتمر أربعين سنة لا يتكلم بعد العشاء بلغو، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: واعجبا لابن آدم ملكاه على نابيه ولسانه قلمهما وريقه مدادهما وهو يتكلم فيما بين ذلك فيما لا يعنيه.

وقد مكث الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى قبل موته بعشرين سنة لا يتكلم بكلام أهل الدنيا، وقد وقع لحسان بن سنان رحمه الله تعالى أنه تكلم بكلمة لغو فعاقب نفسه بصوم سنة، وكان حماد بن سلمة رحمه الله تعالى إذا تكلم بكلمة لغو يقول عقبها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم يقول: كانوا يكرهون كلام الدنيا في مجلس من غير أن يخالطه كلام خير، وقد مكث مورق العجلى رحمه الله عشرين سنة يتعلم الصمت حتى تم له.

وقد كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يقول: كلام الرجل فيما لا يعنيه من خذلان الله إياه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: كلام الرجل فيما لا يعنيه يقسي القلب ويوهن البدن ويعسر أسباب الرزق، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: باللسان يحفظ الرأس، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى قليل الكلام جدا وكان يقول لأصحابه انظروا ما تملونه في صحائفكم فإن يقرأ على ربكم فيا ويح من تكلم بقبيح، ولو أن

أحدكم أملى إلى أخيه كلامًا فيه قبح لكان ذلك قلة حياء معه فكيف بالرب سبحانه وتعالى.

وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى إذا أصبح وضع قرطاسًا وقلمًا فكان لا يتكلم يومه بلغو إلا حاسب نفسه عليه عند غروب الشمس، وكان يقول بلغنا أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يضع حجر في فمه فعل ذلك عدة سنين حتى تعود قلة الكلام، وكان لا يخرج الحجر إلا عند الأكل وعند الصلاة كل ذلك خشية أن يتكلم فيما لا يعنيه، ثم لما حضرته الوفاة ﷺ صار يخرج لسانه ويقول هذا هو الذي أوردني الموارد.

وقد كان الإمام مالك إذا رأى رجلاً يتكلم كثيرًا يقول له امسك عليك بعض كلامك، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: ترك كلمة لغو أشد على النفس من صيام يوم، لأن الرجل ربما يحتمل الصوم في الحر الشديد ولا يحتمل ترك كلمة لا تعنيه اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وفتش نفسك هل وفيت بهذا الحديث أم قصرت فيه وأكثر من الاستغفار آناء الليل والنهار، والحمد لله رب العالمين.

سد باب الغيبة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): سد باب الغيبة في الناس في مجالسهم لئلا يصير مجلسهم مجلس إثم، ولعل ما قرءوه من الحديث أو من كلام القوم أو الورد مثلاً لا يقاوم غيبة وقعوا فيها يوم القيامة، وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إنما أكثر الأعمال الصالحة في بعض الأوقات ليصير معي شيء من الأعمال يوم القيامة أعطي منه خصمائي الذين لهم علي تبعة من مال أو عرض.

وقد قلت مرة لشيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ألا تأخذ العهد يا سيدي على أصحابك أن لا أحد منهم يستغيب أحدًا في مجلسك، فقال لي: إن أخذ العهد بذلك سوء أدب مع الله تعالى ومع خلقه وذلك لأن خلق الأعمال والأقوال التي تحدث على يد المريد إنما هي لله عز وجل فكيف آخذ على أحد عهدًا بشيء ليس في يده بل خلقه الله تعالى فيه على رغم أنفه، فقلت له يا سيدي إن رسول الله ﷺ بايع أصحابه ﷺ على السمع والطاعة وعلى ترك أفعال كانوا يفعلونها، فقال: إنما كان ذلك له ﷺ بوحي من الله سبحانه وتعالى بخلافنا نحن اهـ.

فعليك أيها الشيخ بزجر أصحابك عن الغيبة والنميمة ولا تسامحهم بالسكوت على ذلك فإنك تصير شريكهم في هذا الأمر وتفسقوا كلكم، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: [نظرت ليلة أسري بي في النار فإذا قوم يأكلون الجيف فقلت من هؤلاء يا جبريل؟] قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، وكان جابر ﷺ يقول: هاجت ريح منتنة على عهد رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله ما أشد نتن هذه الريح، فقال ﷺ: [إن ناسًا من المنافقين اغتابوا ناسًا من المسلمين فلذلك هاجت هذه الريح الخبيثة] اهـ، وكان أبو قلابة يقول: إن الغيبة تخرب القلب من الهدى والخير.

وكان أبو عوف رحمه الله تعالى يقول: دخلت يومًا على محمد بن سيرين رحمه الله تعالى فنلت من عرض الحجاج بن يوسف عنده، فقال لي محمد يا أبا عوف إن الله تعالى حكم عدل فكما ينتقم من الحجاج كذلك ينتقم للحجاج وربما لقيت الله تعالى فكان أصغر ذنب عملته أشد عليك وأعظم من أعظم ذنب عمله الحجاج.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا بلغه أن أحدًا اغتابه يرسل إليه بهدية ويقول له على لسان الرسول بلغني يا أخي أنك أهديت إلى حسناتك وهي بيقين أعظم من هديتي هذه، وكان سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله تعالى إذا بلغه أن أحدًا اغتابه يذهب إليه في داره يقول له يا أخي مالك ولذنوب عبد العزيز تتحملها، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: إياك أن تقابل من ظلمك بسب أو شتم أو غير ذلك، وذلك أنه يظلمك مرة فتصير تلعنه وتشتمه كلما تذكرت فعله حتى تستوفي بذلك حقك ويصير عليك بعد ذلك التبعة.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: فاكهة القراء في هذا الزمان الغيبة وتنقيص بعضهم بعضًا خوفًا أن يعلو شأن أقرانهم ويشتهروا بالعلم والزهد والورع دونهم، وبعضهم يجعل الغيبة كالأدم في الطعام وهو أخفهم إثمًا، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى من أشد الناس زجراً للمغتابين، وقد دعاه رجل مرة إلى طعامه فلما ذهب إليه وجده يذكر رجلاً بسوء، فقال له إبراهيم عهدنا بالناس يأكلون الخبز قبل اللحم، وأنتم تأكلون اللحم قبل الخبز ثم خرج ولم يأكل له طعامًا.

وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: والله ترك الغيبة عندي أحب إليّ من التصدق بجبل من ذهب. وكان وكيع بن الجراح رحمه الله تعالى يقول: من عزة السلامة

من الغيبة أنه لم يسلم منها إلا القليل، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: اذكر أخاك إذا تواريت عنه بمثل ما تحب أن يذكرك به إذا توارى عنك، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: كفى بالمرء إثما أن لا يكون صالحًا ثم يجلس في المجالس ويقع في عرض الصالحين، وقد سئل الزهري رحمه الله تعالى عن حد الغيبة فقال: كلما كرهت أن تواجه به أخاك فهو غيبة، وقد نام شقيق البلخي رحمه الله تعالى ليلة عن ورده فعتبته امرأته، فقال: لا تعتبيني بأن نمت عن وردي هذه الليلة فإن غالب علماء بلخ وزهادها يصلون لي ويصومون ويفعلون، فقالت له: وكيف ذلك؟ قال: يبيت أحدهم يصلي طول الليل ويصبح صائمًا طول النهار ثم ينال من عرض شقيق ويأكل لحمه فتكون حسناتهم كلها في ميزانه.

وكان أبو أمامة رحمه الله تعالى يقول: إن العبد ليعطي كتابه -يعني يوم القيامة- فيرى فيه حسنات لم يعملها فيقول يا رب أنى لي بهذا؟ فيقال له: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والدي لأنهما أحق بحسناتي من غيرهما.

وكان محمد بن علي الترمذي رحمه الله تعالى يقول، من وقع في عرض أحد فكأنه قدمه بحسناته على نفسه وأحبه أكثر من نفسه، قلت: فلا ينبغي له التكدير بل يحبه لم حصل له من الثواب وإن لم يقصد هو ذلك فعلم أن من تكدر ممن أهدى إليه حسناته فهو أحمق إلا إن كان تكدره لغرض شرعي، وكان سعيد بن جبير رحمه الله تعالى يقول: إن العبد ليعمل الحسنات الكثيرة فلا يراها في صحائفه فيقول: يا رب أين حسناتي؟ فيقال له ذهبت باغتيابك الناس وهم لا يعلمون.

وكان المنصور بن المعتمر رحمه الله تعالى يقول: لا تنالوا السلطان إذا ظلم بل أكثروا له الاستغفار فإنه ما ظلمكم إلا بذنوبكم، وقد سئل الزهري أي قيل له أنقع في عرض من يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، قال: نعم، وكان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى يقول: من الغيبة المحرمة التي لا يشعر بها أكثر الناس قولهم إن فلانا أعلم من فلان فإن المفضول يتكدر من ذلك. ومن المعلوم أن حد الغيبة أن يذكر الشخص أخاه بما يكره، وقيل أن طبيبين يهوديين دخلا على سفيان الثوري مرة فلما خرجا قال لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت إن أحدهما أطب من الآخر.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى إذا سئل عن مقام أحد من العلماء يقول سلوا غيري عن ذلك فإني ألحظ الناس بعين الكمال والصلاح وليس عندي كشف أعلم به مقامهم عند الله تعالى والظن أكذب الحديث، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ إذا مر على قوم يغتابون أحداً يقول: قوموا فتوضئوا فإن بعض ما تتكلمون به ربما كان أشد من الحدث، وقد كان أبو تراب النخشبي رحمه الله تعالى يقول: الغيبة فاكهة القراء ومزابل الأتقياء، وكان ميمون بن يسار رحمه الله يقول: اغتيب برجل مرة في مجلسي وأنا ساكت فقدم إلي في تلك الليلة جيفة منتنة وقيل لي: كل هذا، فقلت: معاذ الله كيف ذلك؟ فقيل: هذا بما اغتيب عندك وأنت ساكت.

وقد كان خالد الربعي رحمه الله تعالى يقول: تناول الناس رجلاً يوماً في المسجد فأعنتهم عليه، فلما نمت تلك الليلة قدم إلي قطعة لحم خنزير وقيل لي كل، فقلت: معاذ الله أن آكله فأدخلوها في فمي كرهاً عليّ فاستيقظت وأنا أجد طعم ذلك في فمي ومكثت رائحته في فمي أربعين صباحاً والناس تشمه مني، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: مثال من يغتاب الناس مثال من ينصب منجنيقاً لحسناته ويصير يرميها شرقاً وغرباً في كل جهة اهـ.

وكان عطاء الخراساني رحمه الله تعالى يقول: لا تنكروا ممن اغتابكم فإنه أحسن إليكم من حيث لا يشعر. وقد بلغنا أن من اغتيب غيبة واحدة غفر له نصف ذنوبه، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل صلاح الرجل عند الله تعالى حتى يكون علكاً في أفواه الناس، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: من قال إن في القوم جفاء فليس ذلك غيبة إنما الغيبة أن يقول هم جفاة أي لأنه عين من اغتابه، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: عرض على نفسي مرة الصوم في يوم حر شديد أو ترك ذكر الناس، فكان الصوم أهون عليها من ذلك، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: لا تذكروا أهل الأهواء والبدع بسوء إلا لمن يبلغ لهم ذلك لعلهم ينزجرون وإلا لا فائدة لذكرهم عند من لم يبلغهم.

(قلت) قد يقصد القائل بذلك تقبيح تلك الصفات في عيون الحاضرين وتلك فائدة بلا شك، وكان يقول في حديث لا غيبة في فاسق أي لا تغتابوا الفسقة وكفوا عن غيبتهم، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: ثلاث خصال إذا كن في مجلس فإن الرحمة مصروفة عن أهله، ذكر الدنيا وكثرة الضحك والوقيعة في الناس.

وقد بلغنا أن الكاذب يتطور كلبًا في النار وأن الحاسد يتطور في النار خنزيرًا والمغتاب يتطور في النار قردًا وكذا النمام، وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول: إن من الغيبة المحرمة أن تثبت عيب أخيك في قلبك وتترك أن تتكلم به خوفًا من عداوته لك، وكان يقول من تجرأ على التصريح بغيبة أحد جره ذلك إلى أن يصير يقول في الناس الزور والبهتان اهـ.

فاعرض يا أخي على نفسك هذه الأمور وانظر هل سلمتَ من الوقوع فيها فتشكر الله تعالى أم وقعت فيها فتستغفره، وأكثر يا أخي من الأعمال الصالحة لتعطي منها أصحاب الحقوق يوم القيامة واعتقد في نفسك الفسق فضلاً عن اعتقادك فيها الصلاح من كثرة ما تسمع من المحجوبين عن الله تعالى في حقك بأنك من الصالحين، وقد قالوا أجهل الجاهلين من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس، وقبيح على شيخ الزاوية مثلاً أن يجلس في مجالس الغيبة والنميمة أو يقر أحدًا على ذلك فإنه يصير فاسقًا وهذا أمر قد استهان به الناس الآن مع أنه أقبح من بيع الحشيش، ومع ذلك فلا يكاد أحد يستقبحه كل القبح، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فاعلم ذلك يا أخي واجتنب تلك الصفات والحمد لله رب العالمين.

عدم الوسوسة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم وسوستهم في الوضوء والصلاة وفي القراءة فيها وغير ذلك من العبادات مع مبالغة أحدهم في الورع إلى الغاية، وذلك لأن حصول أصل الوسوسة إنما هو من ظلمة القلب، وظلمة القلب من ظلمة الأعمال وظلمة الأعمال من أكل الحرام والشبهات. فمن أحكم أكل الحلال فليس لإبليس عليه سبيل مطلقًا، وقد أكل قوم من أطعمة الظلمة والمكاسين والقضاة والمباشرين ومن يبيع عليهم من التجار وغيرهم وطلبوا الحضور مع الله تعالى والخشوع في عباداتهم ومعرفة ما فعلوه منها مما تركوه فلم يصح لهم ذلك.

وكان غاية ما حصله أحدهم العناء والتعب والقفز في الهواء حال النية في الصلاة كأنه يصطاد شيئًا تفلت من يده وتراه إذا كبر يقول اك اك اك بار بار بار وإذا أراد أن يقرأ يقول بس بس بس ال ال هي وإذا أراد أن يتشهد يقول ات ات ات حيات وإذا سلم يقول اس اس اس ونحو ذلك كما هو مشاهد من أحوالهم، وقد أفتى بعض العلماء ببطلان الصلاة بذلك وقال إنه ليس بقرآن ولا ذكر وإنما هو كلام أجنبي من كلام الآدميين قاله صاحبه على وجه العمد لا السهو.

وقد كان شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن أحق ما يتسم هؤلاء الموسوسون أن يقال لهم مبتدعة لا فقهاء، وذلك لأن أحدهم ربما يتوهم بطلان عبادة الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأنت لو قلت لأحد منهم توضأ كما بلغك من وضوء رسول الله ﷺ أو وضوء أصحابه ﷺ ربما أنه لا يرضى بذلك ولا يعتقد صحته، نسأل الله العافية وهذا هو الضلال المبين، وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب الخامس عشر من كتابنا المنن الكبرى فراجعه إن أردت ذلك، والحمد لله رب العالمين.

كتمان الأسرار

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كتمانهم الأسرار وعدم تبليغهم أحدًا ما يسمعونه في حقه، وقد قالوا قلوب الأحرار قبول الأسرار وإن لم يكن أهل الله تعالى يكتمون الأسرار فمن بقي يكتمها وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان، فربما يسمع الشيخ الكلمة الآن فيحكيها لغالب من يدخل عليه وربما كان فيها خراب الديار وتراه يقول قد أخبرنا بذلك شخص من أولياء الله تعالى لا يصح في حقه تهمة ويسميه وليًا من أولياء الله والحال أنه معدود من الفاسقين بنقل النميمة وإفساده بين الناس، وإن لم يقصد هو ذلك وفي الحديث [لا يدخل الجنة قتات] يعني نمامًا، وقد كان مجاهد رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ] [(١)]، قال: كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وكان أكثم الصيفي رحمه الله تعالى يقول: من علامة النمام الذل بين الناس فلا تكاد تراه عزيزًا أبدًا، وكان يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى يقول: النمام شر من الساحر ولا يشر به أحد فإنه قد يعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر فإن النميمة سفكت الدماء ونهبت الأموال وهاجت الفتن العظام وأخرجت الناس من أوطانهم وغير ذلك من المفاسد.

وكان أبو موسى الأشعري ﷺ يقول: لا يسعى بين الناس بالفساد إلا ولد بغي لأنه يهلك نفسه ويهلك أخاه ويهلك الذي أنهى إليه الكلام، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من نقل إليك نقل عنك ومن مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك بما ليس فيك، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: احذر ممن يكتم أكثر ممن يحدث بما يسمع فإن من يكتم يصدق الناس قوله أكثر لاستبعادهم الكذب عليه وربما تكلم الشخص بكلمة لمن يأتمنه فتكلم بها فأخرب الديار.

---

(١) سورة المسد، الآية ٤.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله يقول: لا يقدر على كتمان ما يسمع إلا من صح نسبه وأما ولد الزنا فإنه لا يستطيع الكتمان، وقد ترك بعض إخوان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى زيارته زمانا ثم جاءه زائرا فوقع في عرض بعض الناس عنده، فقال له إبراهيم والله إن ترك زيارتك لنا غنيمة بغضت إلى أخي وأشغلت قلبي فيا ليتك لم تزرنا في هذا اليوم اهـ.

وكان منصور بن زاذان رحمه الله تعالى يقول: والله أني لفي جهاد مع كل من جالسني حتى يفارقني فإنه لا يكاد يسلم من تبغيض صديقي إلي أو من تبليغ غيبة من اغتابني فيدخل علي الكرب من ذلك، وكان شداد بن حكيم رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم حسنات أخيكم أكثر من سيئاته فاذكروه بالمحاسن وتجاوزوا عن مساوئه، وكان يقول من أبغض بقول الناس وأحب بقول الناس أصبح نادما على ما فعل فإنه قل أن يقع التعديل أو التجريح بحق وإنما يقع ذلك بالعصبية وهوى النفس، وقد كان خالد بن صفوان رحمه الله تعالى يقول: امقتوا النمام وإن كان صادقًا لأن النميمة رواية وقبولها إجازة فيصير قبولها شرا منها اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي واحذر من إفشاء سر إخوانك أو غيرهم في هذا الزمان ولا تقل إني لم أقصد تلك فإنك في النصف الثاني من القرن العاشر صاحب الفتن والغرائب، والحمد لله رب العالمين.

عيوب الأنفس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): الاشتغال بعيوب أنفسهم من عيوب الناس عملاً بقوله: [وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ] [1]، وعملاً بحديث [طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس]، وأيضًا [فإن المطلع على عيوب الناس معدود من جملة الشياطين] أي البعداء من رحمة الله تعالى، وأهل الله لا يرضون لنفوسهم أن يكونوا كذلك، وقد كان زيد القمي رحمه الله تعالى يقول: قرأت في بعض الكتب الإلهية يا ابن آدم جعلت لك مخلاتين مخلاة أمامك ومخلاة خلفك، فالمخلاة التي خلفك فيها عيوبك والمخلاة التي أمامك فيها عيوب الناس فلو نظرت إلى التي خلفك لشغلتك عن التي أمامك اهـ، وكان رحمه الله يقول: يتيقن أحدكم عيوب نفسه ومع ذلك يحبها ويبغض أخاه المسلم على الظن فأين العقل، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس فاعلموا أنه عدو لله وإن الله قد مكر به.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢١.

وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: عجبًا للناس يقع أحدهم في عرض أخيه وهو غائب فإذا حضر أظهر محبته وسارع إلى مدحه فمن زعم أن الله تعالى يحبه وهو يقرض في أعراض الناس فهو كاذب، لأنه شيطان والشيطان عدو الله، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: من عقل العاقل أن لا يعير أحدًا بذنب فإني ربما عيرت أحدًا بذنبه فابتليت بذلك الذنب بعد عشرين سنة.

وقد بلغنا أن عيسى ﷺ كان يقول لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب وانظروا في عيوبكم لأنكم عبيد فإن الناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله على العافية، وقد كانت رابعة العدوية رحمها الله تقول: إن العبد إذا ذاق محبة الله تعالى أطلعه على مساوئ عمله فشغله بها عن مساوئ الناس، وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: لو بغى جبل على جبل لهد الباغي منهما.

(قلت) ومما ينبغي التفطن له احتساب العبد بالله تعالى على من ظلمه فإنه يهلكه بذلك وإن هذا أعظم في هلاكه من مقابلته بالبغي عليه في الظاهر، فما تركه هذا ظاهرًا قابله بأشد منه في الباطن فينبغي لمن بغى عليه أن لا يحتسب بالله على عدوه بل يسأل الله تعالى أن لا يؤاخذه بسببه والله أعلم، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: رحم الله من أهدى إلي عيوبي. وكان عبد الله التيمي رحمه الله تعالى يقول: لا يعيب الرجل الناس إلا بفضل ما عنده من العيب، وكان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: من استقصى عيوب إخوانه بقي بلا صديق فقد بلغنا أن الناس أتوا أمير المؤمنين عليًا ﷺ برجل عليه حد والناس حوله كالجراد، فقال علي ﷺ أنشد بالله أن كل شخص أتى منكم هذا الحد فلينصرف فانصرفوا كلهم اهـ.

فاحفظ لسانك يا أخي فإن من شق جيب الناس شقوا جيبه، وإياك أن تنسى نفسك إذا اطلعت على عيب أخيك المسلم بل الواجب عليك أن تجعل ذلك مذكرا لعيبك فإن الطينة واحدة وما جاز وقوعه من غيرك جاز وقوعه منك، وفي الحديث [من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمل ذلك الذنب] اهـ. (قلت) وإذا أطلعك الله تعالى على عيب أحد من طريق كشفك فاستغفر الله تعالى فإنه كشف شيطاني فاعلم ذلك يا أخي واحذره كل الحذر، والحمد لله رب العالمين.

حسن الخلق

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): حسن خلقهم مع جفاة الطباع تخلقًا بأخلاق رسول الله ﷺ وعملا بقوله: [وخالق الناس بخلق حسن]، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إن الرجل ليكون فيه تسعة أخلاق حسنة وواحد سيئ فغلب ذلك الواحد التسعة فاتقوا عثرات اللسان، وكان بشر بن عمر رحمه الله تعالى يقول: ليس لسيئ الخلق إلا الهجران، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: مثل السيئ الخلق مثل الفخارة المكسورة لا ينتفع بها ولا تعاد طينًا.

وقد كان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: أول من يجني على سيئ الخلق سوء خلقه فإنه يعذب نفس صاحبه كما هو مشاهد، وقد سئل مرة عن حسن الخلق المشار إليه بقوله ﷺ: [وخالق الناس بخلق حسن] فقال: هو السخاء والعفو والاحتمال، وقد سئل أمير المؤمنين علي ﷺ عن ذلك أيضًا فقال: هو موافقة الناس في كل شيء ما عدا المعاصي، وكان يقول من كثر همه سقم بدنه ومن قل ورعه مات قلبه، وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: إن من سوء خلق الرجل أن يدخل على أهله وهم في سرور يضحكون فيتفرقون خوفًا منه ومن سوء خلقه أيضًا هروب الهرة منه وصعود كلبه الحائط خوفًا منه.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من خطب امرأة وهو يعلم من نفسه سوء الخلق فليعلمها بذلك وإلا غشها انتهى، وسيأتي بسط ذلك مفرقًا في هذا الكتاب، فإنه كله محاسن أخلاق فلا يصح لأحد التقليد بحسن الخلق إلا إن تخلق بها جميعًا وذلك عزيز جدًا ولا يخرج من الغش إلا إن اتهم نفسه بسوء الخلق ثم إنه يقبح على من زعم أنه من الدعاة إلى الله أن يكون خلقه شيئًا يخاف الناس من شره، كما أنه يقبح على جماعته فقد قالوا من علامة المنافق أن يتركه الناس اتقاء فحشه، وفي الحديث مرفوعًا [شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه] فاعلم ذلك وإياك وسوء الخلق، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الفتوة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الفتوة والمروءة تخلقًا بأخلاق رسول الله ﷺ وأخلاق الصحابة والتابعين والعلماء العاملين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فإنه لا خير فيمن لا فتوة عنده ولا مروءة ولو كان على عبادة الثقلين، وقد سئل الحسن البصري

رحمه الله تعالى عن المروءة فقال: هي ترك ما يعاب به عند الله وعند خلقه، وقد اجمع السلف على وجوب المروءة والفتوة في طريق القوم وأن تركهما من أخلاق المنافقين، وفي الحديث: [وسيأتي على الناس زمان تقصر فيه المروءة وتدق فيه الأخلاق ويستغني فيه الرجال بالرجال والنساء بالنساء فإذا وجد ذلك فلينتظروا العذاب صباحًا ومساءً]، وقد سئل عمر وبن العاص ﷺ عن المروءة ما هي؟ فقال: هي عرفان الحق وتعاهد الإخوان بالبر.

وكان السري السقطي رحمه الله تعالى يقول: المروءة هي صيانة النفس عن الأدناس وعن كل شيء يشين العبد بين الناس وانصاف الناس في جميع المعاملات فمن زاد على ذلك فهو متفضل، وكان ربيعة ﷺ يقول: المروءة في السفر هي بذل الرجل الزاد وقلة خلافه على الإخوان وعدم المزاح معهم، وكان بعضهم يقول ليس من المروءة أن يربح التاجر على صديقه.

(قلت) بل المروءة في التاجر رضاه بالربح اليسير لا ترك الربح بالكلية لأن موضع التجار إنما هو للربح دنيا وأخرى فيأخذ من صديقه الربح اليسير الذي لا يرضى به غيره من التجار الأجانب أي لا يقنع به، فإن من باع بغير ربح افتقر وركبه الدين والله تعالى أعلم، وقد سئل أبو عبد الله محمد بن عراق رحمه الله تعالى عن المروءة ما هي؟ فقال: هي أن لا تفعل فعلاً تستحي من ظهوره في الدنيا والآخرة.

وكان أبو هريرة ﷺ إذا سئل عن المروءة يقول: هي الغداء والعشاء في أفنية الدور لا في داخلها، وقد كتب الحسن بن كيسان رحمه الله تعالى على باب داره رحم الله من دخل فأكل، وكان السلف إذا استعار أحدهم قدرًا يطبخ فيه ردها ملآنة طعامًا وربما ملأها صاحبها طعامًا ثم أعارها لمن طلبها ويقول كرهت أن أعيرها لأخي فارغة، وقد سئل الأصمعي رحمه الله تعالى عن المروءة فقال: هي طعام موضوع ولسان حلو ومال مبذول وعفاف معروف وأذى مكفوف اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي فقد سمعت مقال سلفك عن المروءة فاعمل عليها وكن يا أخي متشبهًا بأهل المروءات وإن لم تكن منهم حقيقة، والحمد لله رب العالمين.

كثرة السخاء

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة السخاء والجود وبذل المال ومواساة الإخوان في حال سفرهم وفي حال إقامتهم، فإنه بذلك يقع التعاضد في نصرة الدين الذي هو مقصودهم، وفي الحديث [إذا كان أغنياؤكم سمحاءكم وأمراؤكم خياركم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها]، وروى أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فسأله شيئا فأمر له بأربعين شاة، فرجع الرجل إلى قومه وقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وقد زوج الحسين بن علي رضي الله عنهما امرأة فبعث معها بمائة جارية مع كل جارية ألف درهم، قال: ودخل عبد الله بن أبي بكرة الصحابي ﷺ يومًا مجلسا ففسح له رجل في المجلس فلما أراد القيام قال لذلك الرجل الحقني إلى منـزلي فلحقه فأمر له بعشرة آلاف درهم رحمه الله.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يشترط على من يريد أن يصحبه في السفر أن يكون عبد الله هو الذي ينفق عليه، وأن يكون خادمًا ومؤذنا، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: الجنة دار الأسخياء والنار دار البخلاء.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: علامة الكريم أن يكون شيبه في مقدم رأسه ولحيته، وعلامة اللئيم أن يكون شيبه في قفاه وأن لا ينفع غيره بشيء إلا لرغبة أو رهبة وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: عجبًا للرجل اللئيم يبخل بالدنيا على أصدقائه ويسخى بالجنة لأعدائه، كان إمامنا الشافعي ﷺ يقول: من علامة اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه وتكبر على أهل الفضل والشرف.

وكان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتهادون بالفضة في الأطباق كالفاكهة اهـ، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: عجبت لمن يبقى معه مال وهو يسمع قوله سبحانه وتعالى: [إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ][1].

(قلت) ومتى كان سبب توقف العبد في الإنفاق في وجوه الخير التي أمر الله تعالى بها

(١) سورة التغابن: الآية ١٧.

عدم تصديقه بما وعده الله به من الأجر، وتضعيف الثواب فلا ينفعه عمل ولو صار أمثال الجبال لأنه بناء على غير أساس، إذ من كمال المؤمن الكامل أن لا يتخلف عن مأمور وتأمل يا أخي لو جلس إنسان وبين يديه زنبيل ملآن ذهبًا وقال كل من أعطى فقيرًا درهمًا أعطيته دينارًا كيف يبادر الناس ويسارعون إلى بذل الدراهم للفقراء بخلاف ما لو وعدهم بالدينار بعد سنة مثلاً فإنه لا يجيبه إلا القليل منهم، وذلك لضعف تصديقهم له، ولو أن إيمانهم كان كاملاً لأجابوه كلهم، إذ من شرط كامل الإيمان أن يكون ما وعد به الشارع غيبًا كالحاضر عنده على حد سواء، ومن هنا تقدم من تقدم وتأخر من تأخر اهـ. والله أعلم.

وقد سئل عبد الله بن مسعود ﷺ عن العاقل من هو؟ فقال: من يكنز ماله في مكان لا يأكله السوس ولا تصل إليه اللصوص -يعني في السماء-، وقد كان كسرى يقول أنت للمال ما أمسكته فإذا أنفقته كان لك.

وقال: دخل شخص البصرة فقال من سيد هذا المصر، فقيل له الحسن بن أبي الحسن البصري، وقال: وبم سادهم؟ قالوا: لأنه استغنى عما بأيديهم من الدنيا واحتاجوا لما عنده من العلم والدين، فقال الرجل: بخ بخ هذا سيدهم بلا شك، وقد أوحى الله إلى موسى عليه الصلاة والسلام إني لأشكو إليك من عبادي من أربعة أشياء استقرضتهم مما أعطيتهم فبخلوا وحذرتهم من إبليس فلم يحذروا ودعوتهم إلى الجنة فلم يجيبوا وخوفتهم من النار فلم يخافوا واجتهدوا في أعمالهم.

وقد جاءت امرأة يومًا إلى الإمام الليث بن سعد ﷺ بإناء صغير تطلب منه فيه عسلاً وقالت: إن زوجي مريض. قال: فأمر لها الإمام براوية ملآنة عسلاً فقيل له: إنها طلبت قدحًا صغيرًا، فقال: إنما طلبت على قدرها ونحن أعطيناها على قدرنا، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: عجبًا لك يا ابن آدم تنفق في شهواتك إسرافًا وبدارًا وتبخل في مرضاة ربك بدرهم ستعلم يا لكع مقامك عنده غدًا، وكان يقول أعطوا الشعراء وذوي اللسان فإن من لم يبال بالشكاية فيه فقد نادى على نفسه بالدناءة وقلة المروءة، وكان يقول: إياك أن تطلب حاجة من بخيل فإن من طلب منه حاجة فهو كمن يطلب صيد السمك من البراري والقفار، وكان أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى لا يمنع قط أحدًا سأله شيئًا ويقول أتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ.

(قلت) ومن أسماء الله تعالى المانع، فيمنع سبحانه وتعالى من سأله حاجة لحكمة لا لبخل تعالى الله عن ذلك. فما نقل عن بعض الأكابر أنه منع السائل فهو لحكمة لا لبخل تخلقًا بأخلاق الله عز وجل، وقد بعث معاوية إلى عائشة رضي الله عنها مائة ألف درهم ففرقتها في وقتها ولم تبق لها عشاء ليلة، وقد فرق طلحة بن عبيد الله ﷺ مائة ألف درهم وهو جالس يخيط في طرف ردائه ويرقعه.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: ما رأيت بعد النبي ﷺ أجود من معاوية ﷺ لقى الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: مرحبًا بابن بنت رسول الله ﷺ ثم أمر له بثلاثمائة ألف درهم. ثم لقي عبد الله بن الزبير ﷺ فأمر له بمائة ألف درهم، وكان حماد بن سلمة رحمه الله تعالى يدعو على سماطه في كل ليلة من شهر رمضان خمسين رجلاً يفطرون معه، فإذا كان يوم العيد كسا كل واحد منهم ثوبًا وأعطاه مائة درهم، وكان يعطي معلم ولده القرآن كل شهر ثلاثين دينارًا، وقد انقطع زر ثوبه مرة فأصلحه له الخياط فأعطاه ثلاثين درهمًا واعتذر إليه، وكان رحمه الله يقول: لولا سؤال المحتاجين لي ما أتجرت في شيء أبدًا، وكان رحمه الله تعالى إذا رأى امرأة جميلة تسأل الناس يكرمها ويعطيها الدراهم والثياب ويقول: إنما أفعل ذلك ليرغب الناس في تزويجها خوفًا عليها من الفتنة.

وكان عبد الله بن أبي بكرة رضي الله عنهما ينفق على جيرانه أربعين دارًا من كل جانب ويفطر على الكسرة وكان يبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد وكان يعتق كل سنة في عيد الفطر مائة مملوك، وكان عبد الله بن أبي ربيعة رحمه الله تعالى إذا حجمه عبد من عبيده أعتقه وإذا كان لغيره اشتراه من مولاه وأعتقه، ولما مرض الإمام عبد الله بن لهيعة زاره الإمام الليث رحمهما الله تعالى فرآه يبكي، فقال له: ما يبكيك يا عبد الله؟ قال: عليّ ألف دينار، قال: فأرسل الإمام خادمه فأتاه بها وأوفى عنه الدين.

وقد دعى عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما إلى وليمة فلم يحضر لعائق حصل له فأرسل إليه وسأله أن يسامحه في عدم الحضور، وجاء رجل إلى سعيد بن العاص ﷺ يسأله شيئًا فأمر له بخمسمائة وأطلق، فقال الغلام مستفهمًا من سيده دنانير أو دراهم، فقال سعيد: أنا ما أردت إلا الدراهم ولكن حينما ترددت أنت في ذلك فصيرها له دنانير، قال: فجلس الرجل يبكي، فقال له سعيد: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على مثلك ينزل تحت الأرض ويأكل التراب، وكان سعد بن عبادة ﷺ يقول: اللهم ارزقني مالاً أجود به فإنه لا يصلح الفعال إلا

المال ثم ينشد قوله:

أرى نفسي تتوق إلى فعال فيقصر دون مبلغهن مالي
فلا نفسي تطاوعني ببخل ولا مالي يبلغني فعالي

فاعلم ذلك يا أخي وإياك أن تتظاهر بالمشيخة وأنت على خلاف أخلاق القوم في الكرم والسخاء والجود والمواساة. فقد كانوا يعطون المال الجزيل ولا يرون لهم فضلاً على أحد، وكان أحدهم يشق إزاره نصفين ويعطي أخاه نصفه.

وقد سئل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ما حق المسلم على المسلم، قال: أن لا يشبع ويترك أخاه جائعًا ولا يلبس ويترك أخاه عاريًا ولا يبخل عليه بالبيضاء والصفراء، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: كيف يبخل أحدكم بديناره ودرهمه على أخيه، وإذا مات بكى عليه أشد البكاء وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهدي بعضهم الهدية إلى أخيه فيهديها الآخر إلى أخيه فلا تزال تلك الهدية تدور بينهم حتى ترجع إلى مهديها الأول اهـ، مع أن كلاً منهم محتاج إليه ولكن كانوا يؤثرون على أنفسهم.

وكان أحدهم إذا تزوج وهو فقير يعطون عنه المهر ويعطونه قوت سنة إدخالاً للسرور عليه ودفعا لما لعله يقع فيه من الاهتمام بأمر المعيشة كما هو الغالب على من يتزوج، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما لا يرد سائلاً قط، وسأله مرة شخص فأمر له بعشرة آلاف دينار، فقال له الرجل: إني لا أجد ما أحملها فيه فأعطاه طيلسانه.

وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول: أحب أموالي إلي ما وصلت به إخواني وأبغضها إلي ما خلفته ورائي، وقد كانوا إذا أقبل عليهم السائل يفرحون به ويقولون مرحبًا بمن جاء يحمل أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة ويقل عنا ما يشغلنا عن عبادة ربنا سبحانه، وكان يرسل أحدهم إلى أخيه الألف دينار ويقول له فرقها على المحتاجين ولا تنسبها إليّ، وقد كان الضحاك رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى:[إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ] [1] قال كان إحسان يوسف عليه الصلاة والسلام أن كل من مرض في السجن قام عليه وكل من احتاج وسع عليه، وكان عليه الصلاة والسلام إذا لم يجد عنده شيئا للفقير يدور على الأبواب يسأل له الناس.

وقد كان السلف إذا مات لأحدهم خادم يرسلون له خادمًا خلافه، وكان يقبل ذلك

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٦.

وهو ساكت ولا يرى له فضلاً على أخيه، وكانوا إذا بلغهم أن على أحد من إخوانهم دينًا يوفونه عنه من غير أن يشاوروه عليه، وكان المديون إذا علم ذلك يسكت وكأنه أوفاه هو من ماله لما يعلم من طيبة نفس أخيه بذلك، وقد كانت معيشة الربيع بن خيثم وإبراهيم النخعي وعطاء السلمي ﷺ من صلة الإخوان ولم يكن لأحدهم زرع ولا ضرع ولا غير ذلك.

(قلت) وما جاء عن السلف من ذمهم ترك الحرفة والأكل من طعام الناس محمول على من يمن بذلك عليهم أو يطعمهم لأجل دينهم ونحوه، وكانوا إذا سألهم أحد من إخوانهم وفاء دين يوفونه عنه، ويقولون يا ويلنا قصرنا عن البحث عن حال أخينا حتى أحوجناه إلى سؤالنا، وقد بلغ ابن المقنع رحمه الله تعالى أن جاره عزم على بيع داره لديون عليه فارسل له ثمن الدار وقال: لا تبعها فإن نفعنا بها أكثر من نفعك أنت بها طالما جلسنا في ظلها، وكان إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى يجمع كل قليل جماعة من الفقراء ويجلسهم في المسجد ويقول لهم تعبدوا وأنا أقوم بخدمتكم ومؤنتكم، وقد كان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: من طلب مرضاة الإخوان بلا إحسان فقد أخطأ الطريق، وفي رواية فليصل أهل القبور، وقد كان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: خير المسلمين من أعانهم ونفعهم، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول استكثروا من شيء لا تأكله النار ولا التراب فيقولون ما هو فيقول المعروف، فإن من لم تنفعك أيام صداقته فلا عليك منه إن قرب أو بعد اهـ. فتأمل يا أخي في نفسك واتبع أقوال سلفك الذين تزعم أنك خلفهم، والحمد لله رب العالمين.

شدة المحبة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة محبتهم لاصطناع المعروف إلى الإخوان ومحبة الانبساط إليهم وإدخال السرور على بعضهم بعضًا وتقديم إخوانهم في ذلك على أنفسهم وكانوا لا يتوقفون على استحقاق إخوانهم لذلك ويقولون إن لم يكن أخونا أهلاً للمعروف فنحن من أهله، وكان علي ﷺ يقول: اصنع المعروف ولو إلى من يكفره فإنه من الميزان أثقل مما يشكره.

وكان محمد بن الحنفية ﷺ يقول: صانع المعروف لا يقع ولو وقع لا ينكسر، وكان جعفر بن محمد ﷺ يقول: إنما حرم الله الربا لئلا يتمانع الناس المعروف، وكان معمر رحمه الله يقول: قد صار المعروف والإحسان اليوم سلمًا للسوء حتى قال الناس اتق شر من

تحسن إليه كل ذلك لخروج الأمور عن موضوعاتها لقرب الساعة، وكان يقول: من أقبح المعروف أن تحوج السائل إلى أن يسأل وهو خجل منك فلا يجيء معروفك قدر ما قاسى من الحياء، وكان الأولى أن تتفقد حال أخيك وترسل إليه ما يحتاج ولا تحوجه إلى السؤال.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: نحن لا نعد القرض من المعروف لأن صاحبه يطلب المقابلة وإنما المعروف المسامحة للناس في كل ما يطلبونه منك في الدنيا وفي الآخرة.

وكان السري السقطي رحمه الله تعالى يقول: ذهب المعروف وبقيت التجارة يعطي أحدهم لأخيه الشيء لأجل أن يعطيه نظيره، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من يكافئ صاحب الهدية فهو من المطففين، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره في عين معطيه وإخفاؤه عن الناس، وكان المهلب بن أبي صفرة رحمه الله تعالى يقول لأولاده: كل فقير رأيتموه يغدو ويروح عل بابكم فاعلموا أنه محتاج فأعطوه ولا تحوجوه إلى السؤال وكفى بالرواح والغد مسألة، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم يدخل دار أخيه وهو غائب فيرى السلة مملوءة فاكهة فيأخذها يأكل منها ويفرق منها بغير إذن، فإذا جاء أخوه وأخبر فرح بذلك، وقد كان لمحمد بن سيرين رحمه الله تعالى بغل مربوط في دهليزه فكان كل من احتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذان لما يعلمون من طيب نفسه بذلك.

وكان عبد الله بن المبارك مع شدة ورعه يكتب من محبرة إخوانه بغير إذن، وقد دعي مسلم بن زياد رحمه الله تعالى إلى وليمة فأبطأ ثم ذهب فلما رآه صاحب الوليمة قال له: إنك قد أبطأت وقد أكل الناس الطعام وذهبوا وما بقي شيء، فقال له مسلم: لعل القصاع قد بقي فيها شيء نلحسه. فقال له: إنا قد غسلناها، فقال له: لعل القدور قد بقي فيها شيء، فقال له: وقد غسلناها أيضاً، فقال له: لعل كسرة من خبز، فقال له: لم يبق عندنا ولا لقمة واحدة، قال: فتبسم عند ذلك مسلم ورجع فقالوا له: إنك لم تتكدر منه ونحن نراك تبسمت، فقال: إن الرجل قد دعا بنية صالحة وردنا كذلك بنية صالحة فعلام نتكدر، وقد دخل جماعة دار سفيان الثوري رحمه الله تعالى وهو غائب فأخذوا ما يأكلون وجلسوا يأكلون ويتحدثون في صلاح سفيان فبينما هم كذلك إذ أقبل سفيان فوجدهم على تلك الحال فبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟ قال: كيف لا أبكي وقد ذكرتموني بأحوال السلف الصالح وعاملتموني بأخلاق الصالحين ولست منهم.

وكان بقية بن الوليد رحمه الله تعالى يدخل دار صديقه في غيبته ويأخذ القدر من على النار ويضعه على باب الدار فيأكل منه ويفرق على الفقراء والمساكين، فإذا جاء أخوه فرح بذلك وقال: جزاك الله من أخ صالح خيرًا قدمت لنا اليوم معادنا، وقد كان جعفر بن محمد رضي الله عنهما يقول: بئس الأخ من لا يتجرأ أخوه أن يفتح كيسه في غيبته ويأخذ منه ما يحتاج إليه بغير إذنه.

(قلت) قد يترك أحدهم ذلك لا لما يعلمه من أخيه من البخل بل قياسًا على نفسه والله أعلم، وكان حامد اللفاف رحمه الله تعالى يقول: والله ما كنا نظن أننا نعيش إلى زمان صار الأخ إذا أعطى أخاه شيئًا يرى له قدرًا في قلبه، فإذا أظهر أخوك محبتك فلا تبادر إلى تصديقه فإن الإخوان الآن قد صاروا سريعي الانقلاب، وإذا قربك إنسان فكن منه على حذر.

وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: من أدخل على إخوانه السرور فهو من الآمنين من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم لا يرى أنه أحق بمتاعه من أخيه إلا إن كان أحوج إلى ذلك من أخيه، وكان معن بن زائدة رحمه الله تعالى يقول: ما رددت سائلاً قط إلا وتبين لي أني مخطئ في ذلك، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: إني لأستحي من صاحبي أن يزورني ثلاث مرات ولم أعطه شيئًا، وكان الزهري رحمه الله تعالى يقول: إن كان لك إلى أخيك حاجة فائته في بيته فإن ذلك أقضى للحاجة، وقد قال رجل مرة لأوس بن خارجة رحمه الله تعالى إني جئتك في حاجة صغيرة، فقال له: اطلب لها رجلاً صغيرًا، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما إذا سئل في حاجة يبادر إليها ويقول: إني أخاف أن أبطئ بها فيستغني أخي عنها فيفوتني الأجر.

وكان مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول: من كان له عندي حاجة فليكتبها في قرطاس ويرسلها إليّ فإني أكره أن أرى ذل المسألة في وجه مسلم فإن السؤال أرجح من النوال وإن جل، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئًا لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضًا فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك.

وكان محمد بن واسع رحمه الله إذا سأل أحدًا حاجة يقول قد رفعنا أمرها إلى الله فإن قضاها على يديك حمدنا الله وشكرناك وإن لم يقضها على يديك حمدنا الله تعالى

وعذرناك، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: إذا كان لك عند أحد حاجة فاجعل رسولك الهدية فقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: مفتاح قضاء الحاجة الهدية.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: لا تطلبوا من أحد حاجة بالليل فإن الحياء في العينين، وكان ﷺ يقول: من بات يتقلب على فراشه إذا نزل بي بلاء أو هم أو غم فلا أقدر على مكافأته لأنه جعلني حاجته عند ربه عز وجل.

وكان عطاء رحمه الله تعالى يقول: إني لأسمع الحديث من الرجل وأكون أعرفه قبل ذلك وسمعته مرارًا فأصغي إليه إصغاء من لم يسمعه قط إلا منه، وذلك خوفًا أن يخجل إذا سابقته إليه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لكل داخل دهشة فتلقوه بالرحب وابدءوه بالتحية، وفي الحديث [لا تنزلوا حوائجكم بمن لا يشتهي قضاءها] وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى لا يعطي السائل كسرة ولا شيئًا مكسورًا ولا ثوبًا خلقًا ويقول أستحي أن تقرأ صحيفتي على الله تعالى وفيها الأشياء التافهة التي أعطيتها لأجله انتهى، فاعلم ذلك يا أخي وفتش نفسك هل أنت على قدم سلفك فيما سمعته أم خالفت، وإياك أن تدعي أنك من الصالحين والحمد لله رب العالمين.



المؤاخاة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم مبادرتهم إلى المؤاخاة في الله تعالى بل يتربص أحدهم في ذلك السنة وأكثر أدبًا مع الله تعالى أن يؤاخي أو يصادق أحدًا من غير معرفته بالوفاء بحقوقه وتنزيله منزلة نفسه في أمور الدنيا والآخرة وهذا الخلق يخل به كثير من الناس فيبادرون إلى مؤاخاة من طلب منهم ذلك ومصادقته ثم بعد مدة يتصارمان، وقد قالوا فساد الانتهاء من فساد الابتداء، وفي الحديث [لا يتواد أحدكم اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما] [١]، وفي الحديث أيضًا [سيكون في آخر الزمان قوم إخوان العلانية أعداء السريرة، قالوا: يا رسول الله كيف ذلك؟ قال: يتواخون رغبة ورهبة]، وقد كان أنس بن مالك ﵁ يقول: كان رسول الله ﷺ يؤاخي بين أصحابه ﵃ فتطول على أحدهم الليلة حتى يلقى صاحبه.

وقد كانت العامة إذا غاب أحدهم عن أخيه ثلاثة أيام يوبخ كل واحد منهم

---

(١) رواه الإمام أحمد ﵁.

نفسه، وكان حبيب بن أبي ثابت رحمه الله تعالى يقول: لا تؤاخي أحدًا إلا إن كنت لا تكتم عنه سرًا وإلا فهو أجنبي منك، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يواسون بعضهم بعضًا ولا يسألون عن كون أخيهم محتاجًا إلى ما يواسونه به أم لا، وتراهم اليوم يسألون عن أحوال بعضهم ثم لا يسمح أحدهم أن يعطي أخاه درهمًا.

وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في الدنيا وأكثر من مواساته من غير طلب عوض منه على ذلك لتدوم لك صحبته، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لأحد أن يقول لأخيه إني أحبك لله إلا بعد أن يعرض على نفسه أنه لا يمنعه شيئًا طلبه منه ولو طلاق زوجته ليتزوج بها، وقد سئل عن الأخوة في الله فقال: تلك طريق نبت فيها الشوك فلا أحد يسلكها.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: من لم يشق عليه الذباب إذا نزل على بدن أخيه فليس بأخ، وقد كان عمرو بن العاص ﷺ يقول: كلما كثر الأخلاء كثر الغرماء يوم القيامة ومن لم يواس إخوانه بكل ما يقدر عليه نقصوا من محبته بقدر ما نقص من مواساتهم، والمراد بالغرماء الحقوق، وكان علي بن بكار رحمه الله تعالى يقول: ما رأيت في زماني أحدًا قام بحق الأخوة مثل إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى كان يقسم الدرهم والتمرة والزبيبة بينه وبين أخيه وإن غاب حفظها له حتى يحضر.

وقد قيل لميمون بن مهران رحمه الله ما لنا نراك لا يفارقك الأصدقاء، فقال: لأني كلما رأيت أخي يحب شيئًا أعطيته إياه ولا أميز نفسي عليه، وكان إمامنا الشافعي ﷺ يقول ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته والاعتذار إليه، وقد مات ولد ليونس بن عبيد رحمه الله تعالى فلم يعزه ابن عوف فقيل له: إن فلانًا لم يعزك في ولدك، فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أحد لا يضرنا أن لا يأتينا.

وكان حامد اللفاف رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يحسنون إلى أعدائهم ونراهم اليوم لا يحسنون ولا لأصدقائهم، وكان الأعمش رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم يمكث الأيام المتوالية لا يلقى أخاه ثم إذا تلاقيا لا يزيد أحدهم الآخر على قوله كيف أنت؟ كيف حالك؟ ولو أنه سأله شطر ماله لأعطاه إياه ثم صار الناس اليوم لو لقي أحدهم أخاه كل يوم أو كل ساعة يقول له: كيف حالك؟ كيف أنت؟ ويسأله عن كل شيء حتى عن الدجاجة في البيت، ولو أنه سأله درهمًا لم يعطه إياه.

وقد قال شخص مرة لبشر الحافي رحمه الله تعالى إني أحبك في الله، فقال له: ليس ما تقوله حقًا وربما كان حمارك أهم عندك مني في تذكره عند العشاء فكيف تدعي محبتي، وقال شخص لبشر بن صالح إني أحبك في الله فقال له: ما حملك على الكذب، قال: كيف؟ قال: تدعي أنك تحبني وبرذعة حمارك أكثر قيمة من عمامتي وثيابي.

وقد سئل سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى عن الأخوة في الله تعالى فقال: هي أن تخرج عن جميع مالك كما خرج الصديق ﷺ عن ماله كله لرسول الله ﷺ، وقد سئل بشر الحافي رحمه الله تعالى عن الرجل يحب الرجل ولكنه ربما يمنعه بعضَ منافع الدنيا أهو صادق في محبته، قال: نعم ولكنه مقصر عن درجة الكمال.

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: من علامة صدق المتحابين في الله عز وجل أن يبادر كل أحد منهم إلى مصالحة صاحبه إذا أغضبه فإنا لم نجد قط أحدًا محبوبًا إلى إخوانه ولا يواسيهم كما إنه لم نجد قط غضوبًا مسرورًا ولا حريصًا غنيًا، وقد قيل لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ما بال أحدنا ينظر إلى ما خرج منه في الخلاء فلا يكاد يغض طرفه عنه، فقال: لأن الملك يقول له انظر إلى ما بخلت به على إخوانك إلى ماذا صار.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: قد صارت أخوة الناس في هذا الزمان كمرقة الطباخ طيبة الريح ولا طعم لها، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من شرط الصدق في الأخوة أن يكرم الشخص أخاه إذا افتقر أكثر مما كان يكرمه حال الغنى، وذلك لأن الفقر أشرف من الغنى وصاحبه أحق بالإكرام من حيث المقام لا من حيث حاجة الفقر.

وكان أبو مطيع رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتهادون المماليك والبراذين والدور والأطباق من المال فصاروا اليوم يتهادون بالخبز والطعام، وعن قريب يترك الناس ذلك ويميتون سنة السلف بالكلية، وقد كان أحدهم يتعهد أولاد أخيه من حين يرجع من جنازته إلى حين بلوغهم رشدهم فصار الناس ينسى أحدهم أولاد أخيه وأهله أصلاً، وكان إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى يقول: الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال، وقد كان أبو معاوية الأسود رحمه الله تعالى ينحتّ الحجارة ويتقوت منها فلما كبر قالوا له إنك قد كبرت وعجزت عن ذلك، فقال: والله إن نحت الحجارة عندي أهون وألذ من سؤال الناس، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يكوم الذهب والفضة بين يديه ويقول: لولا هذا

لتمندل الناس بنا، ولأن أخلف بعدي ثلاثين ألف دينار أسأل عنها يوم القيامة أحب إلي من أن أقف على باب أحد أسأله حاجة.

وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: من كان الناس عنده سواء فليس له صديق، ومن لم يسأل عنك بالغدوات ويصلك بالعشيات فاعدده من الأموات وكل من لم يعدك إذا مرضت ولم يتحفك إذا احتجت ولم يزرك إذا قصرت عن زيارته فمن أخوان الطريق ثم ينشد قوله:

ألا ذهب التذمم والوفاء	وباد رجاله وبقى غثاء
وأسلمني الزمان إلى أناس	كأنهم الذئاب لهم عواء
إذا ما جئتهم يتواقعوني	كأني أجرب الأعضاء داء
أخلاء إذا استغنيت عنهم	وأعداء إذا نزل البلاء
أقول ولا ألام على مقالي	على الأخوان كلهم العفاء

انتهى، فاعلم يا أخي وفتش نفسك وانظر هل عاملت قط إخوانك بهذه المعاملات أم فرطت في ذلك جهلاً وبخلاً، ولا تدعي أنك من الصالحين قط ولو عملت بأعمالهم فافهم يا أخي ذلك، والحمد لله رب العالمين.

إكرام الضيف

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إكرام الضيف وخدمته بأنفسهم إلا بعذر شرعي ثم لا يرون أنهم كافئوه بإطعامه وخدمته على تخصيصه إياهم بالإقامة عندهم وإحسانه الظن بهم وعدم اعتقاده فيهم البخل، وقد كان رسول الله ﷺ يخدم الضيف بنفسه، وكذلك أصحابه وأتباعهم ﵃ ولما وفد النجاشي عليه ﷺ لم يمكن أحدًا يخدمهم غيره ﷺ وقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أريد أن أكافئهم على ذلك. وكان السلف يعدون ليلة الضيف كأنها ليلة عيد لما يحصل لهم من السرور، وكان أمير المؤمنين علي ﵁ يقول: لأن أجمع نفرًا من أصحابي على طعامي أحب إلي من عتق رقبة، وكان أنس بن مالك ﵁ يقول: زكاة الدار أن يجعل فيها بيت للضيافة، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يطعم الضيف ثم يكسوه إذا أراد الانصراف ويقول: إن فضل إجابته إلى طعامي أعظم مما صنعت أنا معه، وقد كانت كنية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

أبا الضيفان لكونه كان يذهب الميلين إلى الضيف ليأتي به إلى منـزله، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول ليس من السرف التبسط للضيف في الطعام، وقد كان مجاهد رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ] [١] ، إنما كانوا مكرمين لأن الخليل عليه الصلاة والسلام خدمهم بنفسه، وكان عبد الواحد بن أبي ليلى رحمه الله تعالى لا يدخل عليه أحد إلا أطعمه وسقاه ثم اعتذر إليه أي اعترافًا بأنه مقصر في حقه.

(قلت) وممن أدركناه على هذا القدم سيدي الشيخ محمد بن عنان والشيخ أبو الحسن الغمري، والشيخ عبد الحليم بن مصلح والشيخ محمد الشناوي والشيخ أبو بكر الحديدي وجماعة ﷺ أجمعين وكانوا لا يتكلفون للضيف خوفًا أن يضجروا منه إذا أتاهم مرة أخرى ويقولون: من كان يطعم ضيفه ما يجد فلا يبالي به أي وقت جاء.

وقد سئل عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى عن مناولة الضيوف الطعام لغيرهم فقال: إن كان لبعضهم فلا بأس وأما للأجنبي فلا، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول: من دعي إلى طعام فذهب معه بآخر استحق لطمة، فإن قيل له اجلس ههنا، فقال: بل ههنا استحق لطمتين، فإن قال لصاحب الدار ألا تأكل معنا استحق ثلاث لطمات، أي لأن ما فعله في الثلاث خصال فضول منه اهـ.

وكان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى يجتهد أن يطعم الضيف من شيء لم يكن عند ذلك الضيف ولا في بلده، قال خالد بن دينار رحمه الله دخلت على محمد بن سيرين رحمه الله تعالى ومعي رفقة فأخرج إلينا شهدًا وقال أظن أن مثل هذا ليس عندكم، قلنا نعم، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: من أطعم ولم يتمر -أي لم يطعم الضيف تمرًا أو شيئًا حلوًا- كان كمن صلى العشاء ولم يوتر، واعلم أن الواجب على المضيف أن يطعم الضيف من الحلال وأن يعمله بمواقيت الصلاة ولا يقصر عما قدر عليه من الدسم وحسن المطعم، وأن الواجب على الضيف أن يجلس حيث أجلسوه وأن يرضى بما إليه قدموه وأن لا يخرج حتى يستأذن. وكان أوس بن خارجة يقول: ما دعوت قط نفرًا إلى طعامي وأكلوه إلا ورأيت الفضل والمنة لهم على أكثر من منتي عليهم، وكان حامد اللفاف رحمه الله تعالى يقول: من علامة المتفعل في الزهد أنه إذا استضافه أحد يذكر له سخاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا أضاف هو أحدًا يذكر له زهد عيسى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٤.

وقد كان الأصمعي رحمه الله تعالى يقول: إذا استضافك بخيل فبادر إليه وعلمه الكرم ولا تأكل له طعاما وإياك أن تنسى دابتك من العلف فإنه ربما فرط في عشائها، وكان يقول ما استضفت عند بخيل إلا وصاحت دابتي جوعًا واستغنيت عن الخلاء وأمنت من التخمة اهـ، قلت وقد أنشدني شيخ الإسلام كمال الدين الطويل رحمه الله تعالى أبياتا في البخيل وهي قوله:

وإذا أردت أخـــــاءه	فـارفع يمينـك عـن طعامـه
فـــالموت أهـــون عنـــده	مـن مضـغ ضـيف والتقامـه
ســـيان كســـر رغيفـــه	أو كسـر شـيء مـن عظامـه
وإذا مـــــررت ببابـــــه	فـاحفظ رغيفـك مـن غلامـه

انتهى، فاعلم ذلك يا أخي وفتش نفسك هل تخلقت بتلك الأخلاق أم فرطت فيها وقلت إن إطعام الطعام ليس هو من طريقتنا ولا طريقة شيخنا كما يقع في ذلك بعض، من ادعى الطريق بغير صدق، ويقول إن كل فقير جعل له سماطًا فكأنه جعل مكانه مناخًا للبطالين، فاحذر يا أخي من ذلك فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: [ما جبل ولي الله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق].

(قلت) ولا أعلم الآن أحدًا من إخواننا في مصر أكرم من الشيخ سليمان الخضيري والشيخ جمال الدين خليفة الشيخ شاهين كثر الله في المسلمين من أمثالهما ونفعنا ببركتهما وزادهما من فضله، والحمد لله رب العالمين.

الطعام

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم الإجابة إلى طعام من في ماله شبهة من أمير ومباشر وقاض وكاشف وشيخ عرب وشيخ بلد وتاجر يبيع على الظلمة وأضرابهم وكثرة تعففهم عما في أيدي الناس من الحلال، واعلم أن من علامة الشبهة في الطعام أن ينوع الإنسان الأطعمة، لأنه لو تبع الحل لما وجد شيئًا من الحلال ينوع به الطعام، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن أكل طعام المتبادرين -يعني المتفاخرين- وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: لا تأكل إلا من طعام التقي النقي، ولا تطعم طعامك إلا للتقي النقي، وكان ﷺ لا يجيب إلى وليمة إلا إن وثق بدين صاحبها وثوقًا شديدًا.

وكان أبو مسعود البدري ﷺ لا يجيب إلى وليمة إلا إن علم أن لا يكون هناك شيء نهى الله عنه، وقد كان أبو أيوب الأنصاري ﷺ إذا ذهب إلى وليمة ورأى في البيت سترًا يرجع ويقول لا يستر البيوت إلا الأكاسرة والجبابرة، ونحن لا نأكل لهؤلاء طعامًا، وقد دعي حذيفة ﷺ إلى وليمة فرأى هناك شيئًا من زي العجم فرجع مسرعًا وقال من تشبه بقوم فهو منهم ومن رضى بفعل قوم فهو شريكهم.

وكان محمد بن سلام السكندري رحمه الله تعالى يقول: قد ذهبت السنة في الولائم أن الجفان كانت تملأ طعامًا ويغدى بها إلى المسجد فيأكل منها كل من كان حاضرًا من غني وفقير وشريف ووضيع، وكان صاحب الوليمة إذا خص الأغنياء بالدعوة لا يأكل الناس له طعامًا ويقولون إنه شر الطعام.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إن الرجل ليكون له موقع من قلبي، فإذا رأيته وسع في الطعام سقط من عيني لقلة ورعه، وقد قال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني إياك وحضور الولائم فإنها تذكرك بالدنيا وشهواتها اهـ، وكان أيوب السختياني رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل الرجل حتى يكون فيه خصلتان التعفف عما في أيدي الناس وتحمل الأذى منهم، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى إذا دعي إلى وليمة ورأى هناك أحدًا من ولاة الجور رجع مسرعًا وقال: إنا لا نجالس الجبابرة، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: مؤاكلة المحب تهضم الطعام ومؤاكلة العدو تتخمه.

وكان شقيق بن ابراهيم رحمه الله تعالى يقول: لم يبق في هذا الزمان وليمة على وفق السنة ولقد ندمت على إجابتي الولائم، وكان الثوري رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: عليكم بعدم حضور الولائم ما أمكن إلا إن كانت سالمة من البدعة فإنه ما أكل رجل قط من قصعة رجل إلا ذل له، وقد كان أمير المؤمنين عمر وعثمان رضي الله تعالى عنهما لا يجيبان إلى حضور الولائم ويقولان: نخاف أن يكون الطعام مباهاة وتفاخرًا.

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: نهينا أن نجيب إلى طعام من أظهر لنا أمارات الرياء والسمعة في طعامه أو كان في بيته ستور كستور الكعبة، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: إن مذمة الناس للشخص في هذا الزمان مدحة له، لأنهم لا يذمونه إلا بما لا تهواه نفوسهم، وكان موسى بن طلحة رضي الله عنهما يقول: أرسل إلى عبد الملك بن مروان بثلاث بدر فضة وأرسل يقول فرقها على الفقراء فأجبته إلى ذلك ثم أرسلت منها شيئًا إلى أبي رزين العقيلي وكان مجهودًا رحمه الله تعالى فكأني ألقيت عليه العقارب فردها وبات طاويًا.

وقد أرسل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ بمال إلى أبي ذر ﷺ مع عبد له وقال له: إن قبله منك فأنت حر فلما ذهب إليه العبد بالمال لم يقبله، فقال له العبد: يا سيدي إن قبولك له فيه عتقي، فقال له ابو ذر ﷺ: إن كان فيه عتقك فإن في رقي اهـ.

فاعلم ذلك وفتش نفسك هل تعففت قط كما تعفف هؤلاء أم أكلت كلما دعيت إليه، وقلت الأصل الحل وأتلفت نفسك ومن تبعك وممن يقول لولا أن ذلك حلال ما أكل منه سيدي الشيخ، وإياك ودعوى الصلاح وأنت لم تتعفف والحمد لله رب العالمين.

الصدقة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : كثرة الصدقة بكل ما فضل عن حاجتهم ليلاً ونهارًا سرا وجهارًا ومن لم يجد منهم شيئًا من المال والطعام مثلاً تصدق بكف أذاه عن الناس وتحمل هو أذاهم. وقد كانت صدقات الفقراء في الزمن الماضي أكثر من صدقات الأغنياء لعدم ادخارهم المال والطعام بخلاف الأغنياء، ولا شك أن الفقراء أطيب نفسًا بالصدقة من الأغنياء لكمال إيمانهم ويقينهم وعدم بخلهم بالمال على المحتاجين.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لأجل أن يعودوا به على أولي الحاجة منا، وقد كان بعضهم يرسل إلى أخيه الرغيف أو التمرة أو النعل مثلاً ويقول له: إنا نعلم غناك عن مثل ذلك وإنما أردنا أن نعلمك إنك على بال منا، وكان عبد العزيز بن عمير رحمه الله تعالى يقول: الصلاة توصلك إلى نصف الطريق والصوم يوصلك إلى باب الملك، والصدقة تدخلك إلى الملك، وكان رحمه الله تعالى يقول: الأموال عندنا ودائع للمكارم.

وكان إبراهيم بن يوسف رحمه الله تعالى يجمع الأموال ويقول: إنما أجمع ذلك لبطون جائعة وظهور عارية ولم أجمعه للماء والطين، وقد طلبوا منه شيئًا لعمارة مسجد فأبى ولم يعطهم شيئا وقال: الجائع أحق، وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني إذا أخطأت فتصدق ولو برغيف، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: من لم يتكرم بماله فتركه جمع المال أولى، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لا يتصدق أحدكم إلا من كسبه الطيب فمن تصدق على فقير من كسب خبيث ليرحم ذلك الفقير فهو مغرور ورحمته من ظلمه أولى بإعطائه ما أخذه منه.

وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: لا يقبل الله تعالى صدقة من تعدى بصدقته

رحمه المحتاج، وقد كان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى لا يخرج صدقة فطره إلا مغربلة مطيبة، وكان إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى يقول: إذا كان مشهد العبد أن جميع ما يتصدق به إنما هو ملك لله تعالى فلا عليه ولا يضره إذا كان فيه عيب، وكان عروة بن الزبير رحمه الله تعالى يقول: تخيروا للصدقة فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

(قلت) فلكل رجال مشهد وكان أبو هريرة ﷺ يقول: يتزوج أحدكم فلانة بنت فلان بالمال الكثيرة ولا يتزوج الحور العين بلقمة أو تمرة أو خلقه هذا من العجب، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يتصدق كثيرًا بالسكر ويقول: إني أحبه وقد قال الله تعالى [لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ] [1]، وكان الإمام الليث بن سعد ﷺ يقول: من أخذ مني صدقة أو هدية فحقه علي أعظم من حقي عليه لأنه قبل مني قرباني إلى الله عز وجل، وكان معاذ النسفي رحمه الله تعالى يقول: من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته من الفقير إلى صدقته هو فهو ممن أبطل صدقته بالمن، لأنه رأى نفسه على الفقير وعند ذلك يضرب بها وجهه.

وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: من أعطى درهمًا من مائة درهم ولم يكن هذا الدرهم أعظم وأحب إليه من بقية المائة المدخرة ردت صدقته عليه وضرب بها وجهه، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: لا تحقروا من الصدقة شيئًا فإن الحبة منها يوم القيامة توزن بجبال الأجر، وقد أعطت رضي الله عنها حبة عنب لفقير فردها وكان استقلها في عينه فقالت له: أما تقرأ قوله تعالى: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ] [2] فكم من هذه العنبة من مثقال ذرة، قال: فاستغفر الرجل اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وفتش نفسك في ترك تصدقها بما فضل عن حاجتها ولا تعد نفسك من القوم إلا إن تبعتهم في أخلاقهم، وكان آخر من أدركته من أصحاب هذا المقام سيدي الشيخ محمد الشناوي والشيخ محمد المنير والشيخ عبد الحليم بن مصلح والشيخ محمد بن داود والشيخ محمد العدل وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وكل هؤلاء كان ألف دينار عندهم كفلس فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٢.

(٢) سورة الزلزلة: الآية ٧.

البشاشة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): بشاشتهم للسائل وعدم نهرهم له وحملهم له على أنه ما سأل إلا لحاجة، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: من رد سائلاً خائبًا لم تغش الملائكة بيته سبعة أيام، وفي الحديث [لولا أن بعض المساكين يكذب ما أفلح من رده]، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: إن الله ليخول العبد في نعمته وينظر ماذا يصنع فيها مع عباده فإن وفاهم ما طلبوا وإلا حولها عنه، فلذلك كان السلف يعزمون على أصحابهم ويشددون عليهم في أنهم لا يردون ما أعطوه لهم.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: أول من انتبه من رقة الغفلة حبيب العجمي رحمه الله تعالى وذلك أنه اشتهى يومًا سمكًا فلما أتى به إلى منـزله ووضعه في القدر جاءه سائل فرده فحول الله تعالى السمك دمًا فاتعظ بذلك وخرج عن جميع ماله، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى ينشرح إذا رأى سائلاً على بابه ويقول مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: نعم السائلون يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى.

وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى قبل زهده في الدنيا إذا جاءه السائل يدخل إلى عياله ويقول لهم: قد جاءكم رسول المقابر فهل توجهون إلى موتاكم شيئًا من الصدقة، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: جاء سائل في مسجد في زمان بني إسرائيل يسأل فلم يكترث به القوم فمات فجهزوه وصلوا عليه ودفنوه، فلما رجعوا إلى المسجد وجدوا الكفن موضوعًا في المحراب وإذا مكتوب عليه هذا الكفن مردود عليكم والرب ساخط عليكم، وكان معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه يقول بغضاء الله في أرضه سؤال المساجد، أي لكونهم يسألون الناس في بيته غيره سبحانه وتعالى ويتسببون في مقتهم بعدم إعطائهم ما سألوا منهم.

وقد قيل للحسن البصري رحمه الله تعالى إن الفقراء والمساكين قد كثروا وهم يسألون فمن نعطي منهم، قال: أعطوا ما وجدتم في قلوبكم رأفة له، وقد كان أبو الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى يقول: لو أطعنا السؤال في أموالنا لكنا أسوأ حالاً منهم.

(قلت) فينبغي للمتصدق أن يبقي لنفسه ولعياله شيئًا ولا يتصدق إلا بما فضل عن حاجاتهم، وقد دخل سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ الحرم يومًا فرأى هشام بن عبد الملك

فقال له: سلني حاجتك يا سالم، فقال: يا أمير المؤمنين إني أستحي أن أسأل في بيت الله أحدًا غيره تعالى، وكان الحسن البصري إذا جاءه سائل يعطيه ثم يقول اللهم إن هذا يسألنا القوت ونحن نسألك المغفرة وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية.

وقد دخل سائل يومًا على معروف الكرخي رحمه الله تعالى فلم ير عنده ما يعطيه غير نعله فأعطاه إياه، ثم بلغ معروفًا بعد ذلك أنه باع النعل واشترى بثمنها فاكهة فقال معروف: الحمد لله لعله كان يشتهي الفاكهة فواسيناه بثمنها، قال: ورأى سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ رجلاً يسأل يوم عرفة فزجره وقال: أما تستحي من الله تعالى تسأل غيره في مثل هذا الوطن ومثل هذا اليوم اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وفتش نفسك فيما أعطيته للفقراء في الزمن المتقدم فربما مننت به ولو في نفسك فحبط أجرك وربما نهرت المسكين فكان ما نهرته أرجح مما أعطيته إياه من حيث الأذى فاحذر ذلك، والحمد لله رب العالمين.

الوفاء بحقه

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): إنهم لا يتخذون من الإخوان إلا من علموا من نفوسهم الوفاء بحقه، فإن أخاك إذا لم توف بحقه كان فارغ القلب منك، وقد كان المغيرة بن شعبة رحمه الله تعالى يقول: أعطوا أولادكم ما سألوا بالمعروف ولا تكونوا أقفالا عليهم فيتمنوا موتكم ويملوا من حياتكم، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدة للدنيا والآخرة، ألا تسمعون إلى قول أهل النار: [فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ] [١]، وفي الحديث [ما أحدث عبد إخاء في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة]، وكان المهلب بن أبي صفرة رحمه الله تعالى يقول: الصديق أعز من السيف الصارم في يد، وفي لفظ في كف الرجل فإن المودة لا تحتاج إلى قرابة، والقرابة لا تحتاج إلى المودة ومن حق الأخ الصادق أن لا تفرط في كثرة سؤاله من حوائجه وتقول: ما بيني وبينه شيء ماله مالي ومالي ماله كما يقع فيه كثير من الجهلة، إذ من شأن البشر الشح وخوف الفقر إلا من شاء الله وتأمل في العجل ولد البقرة إذا أكثر من مص بز أمه حتى أجهدها كيف تنطحه وترفسه.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٠١،١٠٠.

وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: لولا محادثة الأخوان في هذه الدار والتهجد في الأسحار ما أحببت البقاء بها، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لا تصاحب في السفر من هو أوسع منك في الدنيا فإنك إن ساويته أضر بحالك وإن نقصت عنه استذلك بين الناس، وكان سلمان الفارسي ﷺ يقول: إذا صادقت غنيا فاحذر من سؤاله إن طلبت حفظ مقامك عنده فإن المسألة كدوح في وجه السائل ومن رد ما أعطى له كبر في قلب المعطي قهرًا عليه.

وقد كان المهلب بن أبي صفرة رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للعاقل أن يجتنب مؤاخاة ثلاثة الأحمق والكذاب والفاجر، فأما الأحمق فإنه لا يشير عليك بخير ولا يرجى لصرف سوء وسكوته خير من نطقه وبعده خير من قربه، وأما الكذاب فلا يهنأ لك معه عيش وينقل خبرك إلى غيرك ويغري بينك وبين الناس العدواة والبغضاء، وأما الفاجر فيزين لك فعاله ولا يعينك على شيء من أمور دينك، وكان إبراهيم بن زيد العدوي رحمه الله تعالى يقول: أربعة تفرح القلب: التهجد في السحر والزوجة الجميلة الصالحة والكفاف من الرزق والأخ المؤمن.

فاعلم ذلك يا أخي وفتش نفسك وانظر هل وفيت حقوق إخوانك وهل تعففت عن سؤالهم بالحال أو بالقال أو بالتحريض وهل صحبتهم لله تعالى أو لغرض نفساني فإن كل ما لم يكن لله فهو وبال على العبد في الدنيا والآخرة، فطالب نفسك يا أخي بحقوق الإخوان ولا تطالبهم بحقك لا ظاهرا ولا باطنا وقد أنشد إمامنا الشافعي ﷺ قوله:

صـديق ليـس ينفـع يـوم بـأس ... قـريب مـن الـعدو في الـقياس

ولا يبغـي الـصديق بكـل عصـر ... ولا الإخـوان إلا للتآسـي

غمـرت النـاس ملتمسـا بجهـدي ... أخائفـة فأكـداه التماسـي

تنكـرت الـبلاد علـي حتـى ... كـأن أناسـها ليسـوا بنـاس

وكان ﷺ كثيرا ما ينشد قوله:

ولـيس كـثيرًا ألـف خـل لواحـد ... وإن عـدوًا واحـدًا لكـثير

وأنشدني شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله قوله:

صاد الصديق وكـاف الكيميـاء معًـا ... لا يوجدان فـدع عـن نفسـك الطمعـا

اهـ، فاعلم ذلك يا أخي وانتبه لنفسك، والحمد لله رب العالمين.

ترك المعادة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): ترك معاداتهم للناس وكثرة مداراتهم لهم وعدم مقابلتهم أحدا بسوء، فالناس يعادونهم وهم لا يعادون أحدا وقد بلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام قال لابنه: يا بني لا تستقل بالعدو الواحد ولا تستكثر أن يكون لك ألف صديق، وقد نظم ذلك الإمام الشافعي ﷺ وهو قوله المتقدم: وليس كثيرا إلخ، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: إياك أن تشمت بمصيبة أخيك فإن ذلك عنوان للعداوة، وقد قال ﷺ: [لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك]، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: من لم يدار الناس لم يجد حلاوة الإيمان.

وقد كان محمد بن الفضل رحمه الله تعالى يجالس أعداءه ويلاطفهم بالكلام الحلو ويعزم عليهم أن يأكلوا عنده فقيل له في ذلك، فقال: لتخمد نار عداوتهم، وكتب صفوان رحمه الله تعالى على باب داره رحم الله من لا يعرفنا ولا نعرفه فإن لم يأت لنا أذى إلا من إخواننا الذين يعرفوننا ونعرفهم، وقد قيل لأيوب عليه السلام أي شيء كان أضر عليك أيام بلائك، فقال: شماتة أعدائي وقد أنشد بعضهم في ذلك يقول:

جميع فوائد الدنيا غرور ... فلا يبقى لمسرور سرور
فقل للشامتين بنا استعدوا ... فإن نوائب الدنيا تدور

قال: ولما بلغ يزيد بن عبد الملك وهو مريض أن هشاما سر بمرضه وتمنى موته أنشأ يقول:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

وكذلك بلغنا إن الأمام الشافعي ﷺ قال ذلك لما تمنى الأقران موته، وكان محمد بن كدام رحمه الله تعالى يقول لابنه: يا بني عش مع أهل زمانك ولا تقتد بهم، ثم يقول: ما أشر هذا العيش مع الأحياء والاقتداء بالأموات، وكان يقول: لا تعادوا أحدا حتى تنظروا إلى عمله فإن كان عمله حسنا فإن الله لا يسلمه إليكم، وإن كان عمله سيئا فخطاياه تكفيه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لا تشتر مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إياك ومعاداة الناس فإني ما خالفت

صديقًا في هواه إلا وخفت على نفسي منه أن يسعى في قتلي، فإن لم يسع في قتلي يتمنى ظهور عيوبي للناس، وكان محمد بن مقاتل رحمه الله تعالى يقول: احذر شر من تحسن إليه واعذر أخالك بما تعذر به نفسك ثم يقول:

وتعـــذر نفســك لمـا أســاءت	وغـــيرك بالعـــذر لا تعــذر
وتبصــر في العــين منــه القـذى	وفي عينـــك الجـذع لا تبصــر

اهـ، فاعلم يا أخي ذلك وإياك ومعاداة الناس لا سيما الزوالق ومن يحب الانفراد بالصيت في بلدك فإنهم يكدرون عليك العيش ولو كنت من أكابر الأولياء فإن الجزء البشري فيك يرق ولا ينقطع، فقد قالوا من تهاون بمعاداة الناس فهو دليل على نقص عقله، وقالوا لو ابتلى أكمل الناس بالعوام ورموه بالزور والبهتان لكدروا عليه قلبه، وصار لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية وقد رأيت بعض إخواننا تهاون بمعاداة شيخ من مشايخ العصر وكان بعض الأمراء يعتقده فكلم الشيخ ذلك الأمير فكاتب فيه إلى أبواب السلطان فجاء الأمر بنفيه من مصر فنفوه، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.



النصح

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة مكاتباتهم إلى بعضهم بالنصح إذا بعدت الديار وقبول المنصوح النصح وشكره وفضل من نصحه خلاف ما عليه الناس اليوم، فلا تكاد تنصح أحد إلا ويصير ينظر في عيوبك ليهجوك بذلك، وكان آخر من أدركت من أصحاب هذا المقام سيدي علي الكازواني نزيل مكة المشرفة، وكان سيدي محمد بن عراق رحمهما الله تعالى يرسل له المكاتبات التي لا تحتملها الجبال فيفرح لها ويقول: صدق فينا سيدي محمد فجزاه الله تعالى عنا من أخ خيرا، وكتب الأنطاكي رحمه الله تعالى إلى بعض أصحابه يقول إلى متى أنت يا أخي تفرح بما يفتنك ويضرك وتحزن على ما ينفعك من نقض الدنيا وحظوظها.

وكتب حذيفة المرعشي رحمه الله تعالى إلى يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول له: بعد السلام اعلم يا أخي أن من كانت الفضائل أهم عنده من ترك الذنوب فهو مخدوع ومن حمل القرآن وخالف شيئا مما فيه فقد استهزأ بالقرآن، وكتب طاوس إلى محكول رحمهما الله تعالى يقول له: بعد السلام احذر يا أخي أن تظن بنفسك أن لك مقاما عظيما

عند الله تعالى مما ظهر لك من أعمالك، فإن من ظن بنفسه ذلك انقلب إلى الآخرة صفر اليدين من الخير وربما عظمك الناس بسبب أعمالك الصالحة فاستعجلت ثوابها بذلك، وكتب الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى إلى بعض إخوانه يقول له: بعد السلام كن يا أخي وصي نفسك ولا تنتظر أحدا من إخوانك ينهاك على نقصك فإن ذلك أمر قد تودع منه والسلام.

وكتب عبد الله بن زيادة إلى بكر بن عبد الله المزني رحمهما الله تعالى يطلب منه أن يدعو له، فكتب إليه بكر يقول له: بعد السلام أما بعد يا أخي فاعلم أن الدعاء لا يكون إلا ممن لا يفارق الذنوب وأنا قد اقترفت من الذنوب ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، ووالله إني لأستحي من الله عز وجل أن أدعو لنفسي فكيف لا أستحي أن أدعو لغيري، وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما يقول له: بعد السلام إياك يا أخي أن تكون مثل البهيمة كلما نظرت إلى أرض خضرة رتعت فيها تبتغي السمن بذلك، وفي ذلك السمن هلاكها وذبحها والسلام اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وانصح نفسك أولاً ثم انصح إخوانك مشافهة ومكاتبة وإياك أن تتكدر ممن نصحك فإن ذلك -أي تكدرك منه- من علامة أهل النار والعياذ بالله، والحمد لله رب العالمين.

الباب الرابع

في جملة أخرى من الأخلاق

العزلة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة عزلتهم عن الناس وعدم كثرة مخالطتهم إلا لمصلحة شرعية، وعلى ذلك درج السلف الصالح فكانوا كل يوم لا يجتمع بهم أحد فيه يعدونه يوم عيد فمن أكثر مخالطة الناس فقد خرج عن طريق سلفه وفاته النفع وذلك لأن من كثرة رؤية الناس له هان في عيونهم وسقط عندهم ورأوه كأحدهم في دناءة الأخلاق والغفلة عن الله تعالى.

(قلت) وما أتذكر أنني زرت أحدًا من مشايخ هذا العصر وسلم مجلسي معه من الغيبة إلا قليل فلذلك أقللت من زيارتهم خوفًا على ديني ودينهم لا تساهلاً في حقهم، فإذا كان هذا حكم مجالس الأشياخ فكيف بغيرهم فاحفظ نفسك يا أخي كل الحفظ إذا زرت أحدًا في هذا الزمان ولا تتهاون بذلك، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: خذوا حظكم من العزلة، وكان طلحة بن عبيد الله ﷺ يقول: من أراد أن يقل من معرفة الناس لعيوبه فليجلس في بيته. فمن خالط الناس سلب دينه ولا يشعر.

وكان حذيفة بن اليمان ﷺ يقول: وددت أن أغلق باب داري فلا أخرج لأحد حتى أموت، وكان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: لم يجلس الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى في مجلس قومه طول عمره إلا مرة واحدة جلس على باب داره فسقط عليه حجر فشج رأسه لا يدري من رماه فقام وقال: لقد وعظت يا ربيع ثم لم يخرج من بيته بعد ذلك إلا لضرورة حتى مات رحمه الله، وكان يقول من جلس على الطريق فليؤده حقه وذلك برد السلام ونصرة المظلوم والشهادة على الظالم ومعاونة كل من كان في ضرورة.

وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: قل من يطيل مجالسة أخيه إلا ويقع من أحدهما ما يكره الآخر. فينبغي لكل من الأخوين أن لا يلقي أخاه إلا غبًا، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر لا يستقيم لهم الغنى إلا بالبطر والبخل ولا يستقيم له صحبة إلا باتباع الهوى فمن أدرك ذلك الزمان وصبر وحفظ نفسه أعطاه الله تعالى ثواب خمسين صديقًا اهـ، وكان ﷺ يقول: بلغنا أنه لا تكون الراحة لمؤمن في آخر الزمان إلا إن كان خامل الذكر بين الناس.

وقد بلغ الفضيل بن عياض أن ولده عليًا رحمهما الله تعالى يقول: وددت إني بمكان أرى الناس منه ولا يروني. فقال أبوه: هلا أتمها، فقال: لا أراهم ولا يروني، وكان وهيب بن

الورد رحمه الله تعالى يقول: خالطت الناس خمسين سنة إلى يومي هذا فما وجدت أحدًا منهم غفر لي زلة ولا أقال لي عثرة ولا أمنته على نفسي إذا غضب مني.

وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: اجعل الناس كالنار فلا تدنو منهم إلا عند الحاجة، وإذا دنوت منهم فكن على حذر كما تحذر من النار إذا دنوت منها، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: من خالط الناس فلابد أن يخربوا عليه قلبه، وكان جعفر بن حميد رحمه الله تعالى يقول: الحق إنه لابد لك من الناس ولابد للناس منك فليكن كل منكما على حذر من الآخر.

وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى في سفر فلما قدم منه قالوا لسليمان الخواص رحمه الله ألا تلقى إبراهيم، فقال: أخاف إذا لقيته أن أتزين له بكلام فأهلك، وقد كان الحسن بن صالح رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لأحد أن يعتزل للعبادة إلا بعد التفقه في دينه، فقد كان الإمام مالك ﷺ يقول: تفقه ثم اعتزل -يعني عن الناس-، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: خيرُ جلوس الرجل في قعر بيته لا يُرى ولا يرى، وكان سفيان رحمه الله تعالى يقول: والله لقد حلت العزلة عن الناس.

(قلت) يعني وجبت كما في حديث [فقد حلت له شفاعتي] أي وجبت، وكان أبو سفيان يقول: اعتزلوا عن الناس جهدكم فإنهم سراق العقول، وكان أبو بكر الوراق رحمه الله تعالى يقول: لا تطمع في الأنس بالله أبدًا وأنت تخالط الخلق ولا تطمع في رضا الله تعالى وأنت تخالط الظلمة، ولا تطمع في حب الله لك وأنت تحب الدنيا، ولا تطمع في لين قلبك وأنت تجفو على اليتيم.

وكان داود الطائي رحمه الله تعالى يقول: لا تصلح العزلة عن الناس إلا لمن زهد في الدنيا أما الراغبون فيها فلا فائدة في عزلتهم فمن اعتزل الناس ولم يجعل الحق تعالى مؤنسًا والقرآن محدثًا فقد أخطأ الطريق ولم تصح عزلته.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: اجعل جلوسك في مكان يكون أخفى لشخصك وأخفض لصوتك، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: من لم يجالس الحق تعالى والنبي ﷺ وأصحابه ﷺ فقد خابت عزلته، فقيل له كيف ذلك، قال: يدرس القرآن بتدبر وينظر في أفعال رسول الله ﷺ وأقواله وأفعال أصحابه ﷺ وأقوالهم، فمن فعل ذلك فقد حادث الله تعالى وحادث النبي ﷺ وحادث أصحابه رضي الله تعالى عنهم.

ولما اعتزل عن الناس داود الطائي رحمه الله تعالى لامه أصحابه في ذلك، فقال: إنما فعلت ذلك حين رأيت الصغير لا يوقر الكبير ورأيت أخي يحصي علي عيوبي ليهجوني بها حال سخطه علي، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: أقل ما في العزلة عن الناس أن الإنسان لا يرى منكرًا فينكره، وكان بشر بن منصور رحمه الله تعالى يقول: أقلل من معرفة الناس جهدك فإنك لا تدري ماذا يقع لك من الفضيحة والعياذ بالله تعالى فيكون من يعرفك من الناس قليلاً، وكان أيوب السختياني رحمه الله تعالى يقول: إن من العزلة عن الناس إذا خرجت لحاجة أن تقصد المشي في المواضع القليلة الناس، وقد كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ولد اسمه عبد الله كان له سرداب يجلس فيه لا يخرج منه إلا أوقات الصلاة.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والقنع بالقوت إلى أن تموت، وكان مكحول رحمه الله يقول إن كان في مجالسة الناس خير فالعزلة عنهم أسلم للدين، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: اجتمعت بأبي حبيب البدري ﷺ فقال لي يا سفيان ما رأينا خيرًا قط إلا من الله تعالى فما لنا لا نقبل على من لا نرى الخير إلا منه.

وقد رأيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى بالشام فقلت له يا أبا إسحاق إنك قد تركت خراسان وجلست ههنا، فقال: نعم ما هنأ لي العيش إلا هنا أفر بديني من جبل إلى جبل فمن رآني ظن أني ملاح أو جمال أو موسوس، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم دواء يستشفى به فصاروا اليوم داء لا دواء له.

وكان حماد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: زرت مالك بن دينار رحمه الله تعالى فرأيت عنده كلبًا بحذائه فأردت أن أطرده فقال لي: دعه يا حماد فإنه خير من جليس السوء الذي يغتاب الناس عندي، ولما قدم عبد الله بن المبارك من البصرة إلى بغداد سأل عن محمد بن واسع رحمهما الله تعالى فلم يعرفه أحد، فقال عبد الله: إنه من فضله لم يعرف وازداد فيه محبة وتعظيمًا.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: رأيت مرة رجلاً معتزلا عن الناس فقلت له: لم لا تخالط الناس، فقال لي إني مشغول عنهم بما هو أهم، فقلت له: وما هو؟ فقال: إني أصبح كل يوم بين نعمة وبين ذنب فأنا مشغول بالشكر لأجل النعمة وبالاستغفار لأجل الذنب. فقلت له: أنت أفقه من الحسن اجلس وحدك يا أخي.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه، وقد قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: ألا تخالط الناس فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، فقال لي: عدم لقائهم يسقط عني ذلك، وقيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله ألا تجالس الناس؟ فقال: إني لم أتفرغ لهم.

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إنما طلبوا العزلة والوحدة لأنها تورث الانتباه من رقدة الغفلة وتورث كثرة مراقبة الله تعالى بالغيب وما أحد عبد ربه إلا أحب أن لا يعشر به أحد، فإن استطعت أن تمشي بين الناس ولا يمشوا لك، وتسألهم ولا يسألونك فافعل ووالله إني لألقى الرجل فلا يسلم علي فأرى الفضل له، وكذلك إذا مرضت ولم يعدني، وقد دخل عليه رجل مرة مهاجمة فقام وترك له البيت فقال له الرجل: ما بالك يا أبا علي قمت رحمة لي لماذا؟ فقال له الفضيل وهل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك وأنا والله لا أجد لذة ولا راحة إلا إذا كنت وحدي.

وكان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقول: لقد أدركنا الناس وهم ورق لا شوك فيه وقد صاروا الآن شوكًا لا ورق فيه، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: قال لي سفيان الثوري رحمه الله في حياته وبعد مماته حين رأيته في منامي أقلل من معرفة الناس جهدك فإن التخلص منهم شديد ولا يرى الشخص ما يكره إلا ممن يعرفه، وقيل مرة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى ألا تجالس الناس، فقال: إن الناس قد ذهبوا تحت أطباق الثرى اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي واعتزل عنهم جهدك فقد سمعت مقالاتهم في المائة الثانية فكيف بك وأنت في المائة العاشرة. وإياك أن يلعب بك إبليس ويقول لك أنت بحمد الله قد وصلت في المقام إلى حد لا يشغلك شيء عن ربك فإن ذلك من دسائس إبليس، فإنك يا أخي بيقين أدون من هؤلاء السلف في المقام فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

التواضع

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): زيادتهم في التواضع كلما ترقى أحدهم في المقام عكس حال من قرب إلى السراج، فإن الشخص كلما قرب منه رأى نفسه كبيرًا وهؤلاء القوم كلما قربوا من حضرة الله تعالى رأوا أنفسهم أصغر من البعوضة من شهودهم عظمة

الله تعالى، ولذلك طرد إبليس من الحضرة لما تكبر، وقال أنا خير منه، فافهم فكل فقير رأيته يا أخي متكبراً فابعد عنه فإنه عدو الله كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى أبغض خلقي إلي من تكبر قلبه وغلظ لسانه وبخلت يده وساء خلقه، وكان أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى يقول: ما تكبر إلا وضيع ولا افتخر إلا سقيط ولا تعصب بالباطل إلا دنيء الأصل، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: لو اجتمع جميع الخلق عليّ على أن ينزلوني عن شهود حقارة نفسي لما استطاعوا ذلك، وكان أبو أيوب السختياني رحمه الله تعالى يقول: قد طلب قوم الارتفاع فوضعهم الله وأراد قوم الاتضاع فرفعهم الله، قال: ولما قدم سفيان الثوري رحمه الله تعالى إلى الرملة أرسل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أن ائت إلينا فحدثنا، فقيل لإبراهيم ترسل إلى مثل سفيان ليأتيك، قال: نعم أردت أن أريكم شدة تواضعه، ثم جاء سفيان فحدثهم.

وكان سليمان الخواص رحمه الله تعالى يشبه بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في الكرم وفي حسن الخلق، وكان عروة بن الزبير رضي الله عنهما يقول: عليكم بالتواضع فإنه نعمة عظيمة ولا يحسدكم أحد عليها، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: من تكبر بغير حق حرم الفهم في القرآن، ومن اكتسب عزاً بغير حق أورثه ذلك ذلا بحق، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر ومن لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن مائدته أجذم ولا أبرص ولا مبتلى بل يأكل معهم، وكان يقول رأس التواضع أن ترضى بأدون المجالس لا لحظ نفس فقد يجلس أحدهم عند النعال ومعه مع الكبر ما الله به عليم وما حمله على مجلسه ذلك إلا ليقال إنه متواضع، وكان يقول من علامة تواضعك أن تكره ذكرك بالبر والتقوى بين الناس، وكان ابن السماك رحمه الله تعالى يقول: أفضل التواضع أن لا ترى لك فضلاً على أحد وترى فضل الناس عليك فتفضل كل من رأيته من أقرانك على نفسك بقلبك وترجو رحمته وتطلب دعوته وتظن أن الله تعالى يدفع عنك البلاء بتوسلك به، فهذا هو التواضع الأكبر، وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول أحق الناس بخدمته للناس العالم.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لو أن مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلاً ما سبقني أحد إلى الباب إلا أن يكون له فضل قوة عليّ اهـ، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: لا يخرج الله تعالى المتكبر من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل خدمه وجيرانه ويتمرغ في بوله وقذره قبل الموت.

وكان أبو تراب النخشبي رحمه الله تعالى يقول: تحقير الفقير هو عين الكبر وكذلك الوقوع في حق الفقراء من أخلاق الكلاب، وقد دخل أبو سلمان يومًا على عبد الملك رحمهما الله تعالى فوقف بعيدًا، فقال له: لما وقفت بعيدًا يا أبا سلمان، فقال: لأن أدعى من بعيد أحب إليّ من أدفع من قريب. وكان عمر بن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة رحمه الله تعالى يلبس الحلة بألف دينار ويقول ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استخلف كان يلبس الحلة بخمسة دراهم ويقول: ما ألينها وأجودها، فقيل له في ذلك فقال: أن نفسي كانت تطلب الرفعة فلما وليت الخلافة وهي أرفع مقام عند أهل الدنيا طلبت نفسي ما عند الله تعالى زهدت في الدنيا اهـ.

قالوا: وكان ﷺ لا يسجد على فرش بل على التراب، وكان عبد الله الرسمي رحمه الله تعالى يقول: لم يفرض الله تعالى الركوع والسجود بالأصالة إلا على المتكبرين مثلي ومثل فرعون ونمروذ وأنوشروان، وكان يحيى بن خالد رحمه الله يقول: الشريف إذا تعبد تواضع بخلاف الدنيء، وقد كان أبو هريرة ﷺ وهو أمير المدينة في أيام مروان يحمل حزمة الحطب من السوق على رأسه ويمشي ويقول أوسعوا لأميركم.

وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ يسرع في المشي وهو يقول: هو أبعد من الزهو والعجب وأسرع إلى قضاء الحاجة، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يخدم الضيف بنفسه ويصلح له السراج في الليل ولا ينبه أحدًا من الخدم، وفي الحديث أن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام لم يرفع طرفه إلى السماء تخشعًا مع ما أعطي من الملك حتى قبضه الله تعالى، وفي الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يأكل مع الخادم ويطحن معها إذا أعيت، وكان ﷺ لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان ﷺ يصافح الغني والفقير، ولما حج ﷺ ورمى جمرة العقبة لم يكن بين يديه ضرب ولا طرد ولا اليك اليك.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: التكبر على من تكبر عليك بماله تواضع لله عز وجل، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: حج عيسى عليه الصلاة والسلام من

الشام على ثور، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: لا تنظروا إلى صورة تواضع فقراء زماننا هذا وعلمائه وقرائه، فإنهم عندهم من الكبر ما ليس عند الأمراء والملوك اهـ.

وسيأتي زيادة على ذلك في مبحث غير هذا إن شاء الله تعالى مفرقًا في هذا الكتاب، فتأمل يا أخي حالك وانظر نفسك فربما تكون من أعظم المتكبرين وأنت لا تشعر وربما لبست الجبة الغليظة أو البشت وكنت بذلك أعظم في الكبر ممن لبس رقيق الثياب، والحمد لله رب العالمين.

عدم التهاون

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم) : عدم التهاون بشيء من الفضائل التي رغبنا في فعلها الشارع ﷺ وإكثارهم منها وشهودهم أنها وإن كانت كثيرة العدد لا يحصل لهم منها أجر فضيلة كاملة. وكان يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى يقول: من بلغه عن الله عز وجل شيء فعمل به إيمانًا به أعطاه الله تعالى أجر ذلك، وإن لم يكن كذلك وقد رأى رجل كثرة عبادة إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى فتمنى أن يكون مثله، فبلغ ذلك إبراهيم فقال له: والله يا هذا لروعة تروعك على عيالك أفضل من جميع ما أنا فيه.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يكثر من فعل الطاعات ويقول: ليس لأمثالنا نوافل، إنما النوافل لمن كملت فرائضه، وقد كان سلمان الفارسي ﷺ يقول: مثل الذي يكثر الفضائل ولا يكمل الفرائض مثل تاجر خسر رأس ماله وهو طالب الربح، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: إن رب الدين لا يقبل الهدية إلا بعد وفاء دينه كله، وكان عبيد بن عمير رحمه الله تعالى يقول: ما من عبد يضع جنبه على الفراش ويذكر الله تعالى حتى يأخذه النوم إلا كتب ذاكرًا لله تعالى حتى يستيقظ.

وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تطلبوا ثوابًا على عبادتكم فإنها إلى الرد أقرب منها إلى القبول، أما ترون إلى قول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما بنى البيت [ربنا تقبل منا] مخافة أن لا يقبل بناؤه، وقد كان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: من استخف بالنوافل استخف بالفرائض، وكان إبراهيم النخعي رحمه الله يكره عد الآي والأذكار إلا إن كان لها عدد مشروع اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وأكثر من النوافل والفضائل ولا تمل منها ولا ترى بعد ذلك إنك قمت بواجب شكر نعمة واحدة من نعم الله عليك، والحمد لله رب العالمين.

كثرة التوبة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة التوبة والاستغفار ليلاً ونهاراً لشهودهم أنهم لا يسلمون من الذنب في فعل الأفعال حتى في طاعتهم فيستغفرون من نقصهم من خشوعها ومن مراقبة الله تعالى فيها، وقد درج على ذلك السلف خلاف ما عليه غالب متصوفة هذا الزمان الذي نحن فيه، حتى إني سمعت مرة بعضهم يقول نحن قوم لا ذنوب علينا بحمد الله تعالى، فقلت له: كيف؟ قال: لأننا نشهد أن الله تعالى هو الفاعل لا نحن، فقلت له: فإذا وجب عليك الاستغفار والتوبة لأنك هدمت جميع أركان الشريعة وأبطلت حدودها ووالله لو كنت أنا ذا سلطان لضربت عنق مثل هذا، فإن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وجميع الأكابر كانوا يشهدون أن الله تعالى هو الخالق لأفعالهم ومع ذلك استغفروا وبكوا حتى نبت العشب من دموعهم، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: [ألا أنبئكم بدائكم ودوائكم، فإن داءكم الذنوب ودواءكم الاستغفار]، وقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول: العجب ممن يقنط ومعه النجاة، فإذا قيل له وما هي النجاة؟ قال: كثرة الاستغفار.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: استغفار الله تعالى لا إقلاع توبة الكذابين، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يناجي الله تعالى بقوله: إلهي إن إبليس لك عدو وهو لنا عدو ولا نغيظه بشيء هو أنكى له من عفوك عنا فاعف عنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول: ترك معصية واحدة وإن صغرت أرجى للرحمة من ألف حجة وألف غزوة وألف رقبة يعتقها العبد لله تعالى، وفي رواية إن ترك كذبة واحدة أو خلف وعد أو نظرة إلى ما لا يحل أرجى للرحمة والمغفرة من كثرة النوافل مع الكذبة أو النظرة أو خلف الوعد، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: أربع لا يعبأ بهم عاقل: زهد الخصيان في الجماع، ونسك النساء وتوبة الجندي وقراءة الصبيان.

وقد كانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار -يعني من عدم الصدق فيه-. وكان خالد بن معدان رحمه الله تعالى يقول: يمر التوابون على جهنم فلا يرونها فيقولون يا ربنا ألم تعدنا أننا نرد النار، فيقال لهم إنكم مررتم عليها وهي خامدة لكونكم كنتم تائبين، فإنها لا تهيج إلا من الذنوب والإصرار عليها، وقد أجمع أهل

السنة على صحة توبة العبد من القتل ومن أخذ المال بلا حق ومن شرب الخمر ومن سائر المعاصي.

وقد سئل مسروق رحمه الله تعالى هل لقاتل المؤمن من توبة، فقال: لا أغلق بابًا فتحه الله تعالى، وقد كان أبو الجوزاء رحمه الله تعالى يقول: إن العبد ليذنب فلا يزال نادمًا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه فيه، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: خياركم كل مذنب تواب ثم يتلو [إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ][1] ، وكان الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى يقول: لا يقل أحدكم أستغفر الله تعالى وأتوب إليه فيكون ذلك ذنبًا وكذبًا إن لم يفعل، ولكن ليقل اللهم اغفر لي وتب عليّ، فقيل له: إن قول العبد أستغفر الله قد ورد في السنة فقال ذلك في حق الصادقين اهـ.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لم يبلغني في كتاب ولا سنة ولا بلغ علمي أن الله تعالى قال الذنب لا أغفره، قلت: لعل مراده ﷺ عدم ورود هذا اللفظ بخصوصه، وإلا ففي القرآن [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ] [2] فيحمل كلامه ﷺ على ذنوب أهل الإسلام كما حمل العلماء قوله تعالى: [إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا] [3] على ذلك.

وقد كان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: ما شرب داود عليه الصلاة والسلام شرابًا بعد الذنب إلا ممزوجًا بدموع عينيه، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: دخلت على جار لي وهو مريض وكان مسرفًا على نفسه فقلت يا أخي عاهد الله تعالى أن تتوب عسى أن يشفيك فبكى فسمعت قائلاً من ناحية البيت يقول: إن كان عهده كعهدك معنا فلا فائدة فيه فإنك عاهدتنا مرارًا فوجدناك كاذبًا، قال: فغشي عند ذلك على مالك، وكان طلق بن حبيب رحمه الله تعالى يقول: إن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد وإن نعمة الله تعالى أكثر من أن يحصوها، وكان ذو النون المصري رحمه الله تعالى يقول: إن الله تعالى رزقنا فوق قدرتنا وكلفنا دون قوتنا فلم نكتف بما رزقنا من القوت ولم نبذل قوتنا فيما كلفنا، وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين، وقد قيل للحسن البصري رحمه الله تعالى ماذا تقول فيمن يتوب ثم ينقض ثم يتوب ثم ينقض وهكذا، قال: ما أراه إلا مؤمنًا فعل أخلاق المؤمن.

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢.

(٢) سورة النساء : الآية ٤٨.

(٣) سورة الزمر : الآية ٥٣.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبلها، وقد سئل سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى ما علامة التوبة النصوح فقال أربعة أشياء: قلة الدنيا وذلة النفس وكثرة التقرب إلى الله تعالى بالطاعات ورؤية القلة والنقص في ذلك، وكان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى يقول: لو أن منذنبًا طاف على سائر المجالس والأبواب وهو يقول أستغفر الله لي لكان ذلك أولى من سؤاله لهم اللقمة والخلقة ونحوهما، وقد سئل يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى عن التائب من هو؟ فقال: هو من تاب أيام شبابه ولزم الفطام حتى أتاه الحمام، وليست التوبة توبة الشيوخ لخمود نار شهوتهم عن المعاصي وإن كان الله تعالى وعد بقبولها حتى تطلع الشمس من مغربها، وقد كان سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى يقول: أنزل الله قوله تعالى: [فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا] [١] في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: قال الله عز وجل يا داود بشر المذنبين أنهم إن تابوا قبلت توبتهم وحذر الصديقين إني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم، وكان عبد الله بن حبيب رحمه الله تعالى يقول: إنكم لن تطيقوا غضب الله تعالى عليكم كلما عصيتموه فأمسوا تائبين وأصبحوا تائبين.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: من وقع في خطيئة ثم تذكرها فوجل منها في قلبه محيت عنه من أم الكتاب، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لما عاين قوم يونس عليه الصلاة والسلام العذاب قام رجل منهم فقال: اللهم إن ذنوبي عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله فكشف الله عنهم العذاب.

وقد كان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول في مناجاته في الليل: اللهم إن خطيئتي تعذبني وتوبتي تذوبني فعيشتي طول دهري بين تعذيب وتذويب، وكان حبيب بن تمام رحمه الله تعالى يقول: من وقع في ذنب ثم خاف من الله تعالى أن يعذبه عليه غفره الله له.

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يدعه يغلق فاعملوا ولا تيأسوا، وقد كان عبد الرحمن بن القاسم رحمه الله تعالى يقول: تذاكرنا في إسلام الكافر وأنه يغفر له ما مضى

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٥.

فقلت: إني لأرجو أن يكون المسلم أولى بذلك عند الله تعالى فإن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام أي كتكراره الشهادتين، وكان عبد الله بن سلام ﷺ يقول: لا أحدثكم إلا عن كتاب منـزل أو نبي مرسل إن العبد إذا عمل ذنبًا ثم ندم عليه طرفة عين واستغفر الله تبارك وتعالى سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة، وفي الحديث [ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم أكثر من سبعين مرة]، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: ما ألهم الله تعالى عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه، وقد سئل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى عن معنى قول العبد أستغفر الله، فقال معنى اللهم أقلني من ذنبي، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من قدم الاستغفار على الندم كان كالمستهزئ على الله تعالى ولا يشعر وإنها توبة الكذابين.

(قلت) ويؤيد ذلك قوله تعالى: [أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ] (١) فأخر الاستغفار عن التوبة المشتملة على الندم، فليتأمل فإن الواو هنا للترتيب والله أعلم، وقد سئل يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى ما بال المسلم إذا وقع في ذنب يكره أن يطلع عليه الناس أكثر من كراهته لاطلاع الله تعالى عليه هل ذلك من هوان منه بربه عز وجل، فقال: لا ولكن ذلك من شدة معرفته بكرم ربه وجوده وأنه سبحانه لا يفضحه بخلاف الناس، وقد بلغنا أن أعرابيًا كان يقول في دعائه اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم وتركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك ورحمتك عجز، فاغفر لؤمي برجائي لرحمتك يا أرحم الراحمين.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى إذا سمع قوله تعالى: [فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا] (٢) يقول إلهي إذا كان هذا قولك في حق من قال أنا ربكم الأعلى، فكيف يكون رفقك بمن لا يشرك بك شيئًا بل يعلم أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وكان رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يحاسب المسلمين يوم القيامة بالمن والفضل ويحاسب الكافر يومئذ بالحجة والعدل اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وأكثر من الاستغفار ما دمت في هذه الدار فإنه يطفئ غضب الجبار ولا تظن محو ذنوبك إذا فعلت الأمور التي ورد في الشرع أنها مكفرة لذلك، فقد يكون لها شر وظلم وتأت بها واعلم أن المؤمن لا يطمئن حتى يدخل الجنة فافهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة المائدة : الآية ٧٤.

(٢) سورة طه : الآية ٤٤.

الأمر بالمعروف

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإن لم يفعلوا ولم ينتهوا وهذا الخلق يخل به كثير ممن لم يسلك على يد شيخ صادق فيقول إن الأمر بالمعروف لا يكون إلا ممن كان تائبًا عن جميع الذنوب ونحن قوم قد غمرتنا الذنوب وهذا مخالف لما عليه العلماء العاملون، فقد ورد في الحديث الشريف أن أبا هريرة ﷺ قال: قلنا يا رسول الله أنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وإن لم نأتمر ولم ننته فقال ﷺ [مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله] وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: من نهى عن المنكر وشنأ الفاسقين وغضب إذا انتهكت حرمات الله غضب الله تعالى له.

وقد قيل لحفص بن حميد رحمه الله تعالى ما الذي بلغ بسفيان الثوري ما بلغ فقد كان في زمانه من هو مثله في كثرة العبادة والعلم، فقال: بلغ به رحمه الله تعالى استخفافه بالعصاة في مواضع الحق وعدم مراعاته لهم، وكان رحمه الله ربما يرى المنكر فلم يقدر على إزالته فيبول الدم من القهر، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان يكون صالحهم فيه هو من لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر فيقول الناس ما رأينا منه إلا خيرًا لكونه لم يغضب لله تعالى.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: مصائب المؤمن في الدنيا ثلاثة صلاة تفوته وأخ صالح يموت وحدث يحدث في الإسلام، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان يكون منكر المنكر فيه أقل من عشر الناس، ثم يذهب العشر بعد ذلك فلا يبقى أحد ينكر منكرًا، وكان أويس القرني ﷺ يقول: إن قيام المؤمن بالحق لم يدع له في الدنيا صديقًا، وما أمر أحد الناس بتقوى الله ونهاهم عن المنكر إلا رموه بالعظائم وشتموا عرضه، وقد كان كعب الأحبار ﷺ يقول: جنة الفردوس خاصة بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: [وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ][1]، أي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: من سمع أحد يفعل منكرًا ولم ينهه جاء يوم القيامة أصم مقطوع الأذنين، وكان جرير بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول: ما من قوم أعزاء على

---

(١) سورة مريم : الآية ٣١.

الناس ثم لم يغيروا منكراً قدروا عليه إلا أذلهم الله عز وجل، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالمًا لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم.

وكان حذيفة بن اليمان ﷺ يقول: دخلت على عمر بن الخطاب ﷺ فرأيته مهمومًا حزينًا فقلت له ما يهمك يا أمير المؤمنين، فقال: أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيمًا لي فقال: حذيفة والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك فإن لم تنته ضربناك بالسيف، قال: ففرح عمر وقال الحمد لله الذي جعل لي أصحابًا يقوموني إذا اعوججت، وقد أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام إني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم وستين ألفًا من شرارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار، فقال: لأنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم، وكان أبو أمامة ﷺ يقول: يحشر الناس من هذه الأمة على صورة القردة والخنازير بملاصقتهم لأهل المعاصي وتركهم نهيهم وهم يقدرون عليه اهـ.

قلت: إذا كان هذا حال من يخالط أهل المعاصي ولا يفعلها فكيف حال من لا يكاد تسلم له جارحة نسأل الله اللطف، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يخرج إلى السوق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ثم ترك ذلك فقيل له لم تركت؟ فقال: كان قد انفتح في الدين قناة فطلبنا أن نسدها وأما الآن فقد انفتح البحر فيمن يقدر يسده.

وقد قيل للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال: أخاف أن أفعل ذلك فيصيبني أذى فلا أقدر على تحمله فيقع مني السخط والندم على أمري بالمعروف، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: لا تقتدوا بي تهلكوا فإني رجل مداهن مخلط مقصر، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: إن من أكبر الذنوب عند الله تعالى أن يقول الشخص لآخر اتق الله فيقول له عليك بنفسك.

وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: لا يلزم أحداً الأمر بالمعروف إلا فيما اجتمعت عليه الأمة أما ما اختلفوا فيه فلا يلزم أحداً، وكان حذيفة بن اليمان ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان تكون مجالسة الناس كجيفة حمار وتكون جيفة الحمار أحب إليهم من مجالسة المؤمن الذي يأمرهم وينهاهم.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: ما بقي أحد في سائر هذا الزمان يستحي منه فقيل له ولم ذلك، فقال: إنما يستحي ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأما من ليس كذلك لا هيبة له لعدم خوفه من الله تعالى، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأصحابه من أهدى إليّ عيوبي سألت له رحمة الله تعالى، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أنه كان في بني إسرائيل حبر يعظ الناس ويجتمعون عليه ويسمعون وعظه رجالاً ونساءً في بيته، وكان له ولد شاب فغمز ابنه يومًا امرأة جميلة من النساء ورآه أبوه فقال له: مهلا يا بني، قال: فسقط من سريره سرعة مكبًا على وجهه حتى انقطع بعض أعضائه وأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان أن أخبر فلانًا -يعني هذا الحبر- أني لا أخرج من صلبه صديقًا أبدًا أما كان من غضبه لي أن يقول لابنه مهلاً يا بني.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم رجلاً محبوبًا عند جيرانه محمودًا عندهم فاعلموا أنه مداهن، وقد كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: إذا مات الرجل ولم يذمه أحد من جيرانه فاعلموا أنه مداهن اهـ. قلت: وحقيقة المداهن هو من يرضي الناس بما ينقص دينه كما أن المداراة هي إرضاء الناس بما ينقص دنياه فالأولى حرام والثانية مستحبة.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى الملائكة عليهم الصلاة والسلام أن صبوا العذاب على قرية كذا وكذا صبا، فصاحت الملائكة وقالوا: يا رب إن فيهم عبدك فلانًا العابد، فقال تعالى: أسمعوني ضجيجه من العذاب فإن وجهه لم يتمعط قط إذا رأى محارمي، وكان لقمان عليه السلام يقول: كذب من قال إن الشر يطفأ بالشر فإن كان صادقًا فليوقد نارًا عند نار هل تطفئ إحداهما الأخرى بل لا يطفأ الشر إلا بالخير كما يطفئ الماء النار اهـ.

وقد دخل أبو إسحاق الفزاري على هارون الرشيد رحمه الله تعالى فبلغ ذلك يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى فلامه وقال: كيف تدخل على هذا الرجل وعنده الفرش الحرير، فقال أبو إسحاق ما بلغك إلا الحرير يا يوسف فأين الدماء والفروج والأموال، ولكنا إنما دخلنا عليه للضرورة، وقد كان يقال إن العالم إذا دخل على ظالم ولم يسأل عن شيء فهو في سعة، وإني لم أسأل عن شيء وأنا جالس عنده فلو قيل هذا الفرش حرام لقلت نعم هو حرام.

(قلت) وفي هذا الجواب نظر والله أعلم، وقد قيل لسفيان الثوري رحمه الله تعالى أيأمر

الرجل من يعلم أنه لا يقبل منه، فقال: نعم ليكون ذلك معذرة له عند الله تعالى، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: ذهب المعروف يبكي وجاء المنكر يضحك ثم ينشد:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر

وبقيت في خلف يزكي بعضهم بعضًا ليدفع معور عن معور

اهـ، فأعرض يا أخي هذا الصفات على نفسك لتعرف هل أنت ممن ينكر المنكر أو لا، وهل أنت ممن يحبك الله تعالى أو لا، وهل نصرت شريعة نبيك محمد ﷺ أو خذلتها فإنك تزعم إنك من الدعاة إلى الله تعالى بحكم النيابة عن رسول الله ﷺ لكونه قد أمن علماء أمته على شريعته من بعده ﷺ، ولعل غالب الناس اليوم قد خذل الشريعة المطهرة بأقواله وأفعاله وسكوته عن المنكر فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

عدم العجب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم العجب والإدلال بشيء من أعمالهم بل يرون أنهم استحقوا التعذيب بالنار بصالح أعمالهم عندهم فضلا عن سيئها لما يشهدونه فيها من سوء الأدب مع الله تعالى، وقد ورد أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول كم من سراج قد أطفأته الريح وكم من عبادة قد أفسدها العجب، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: ساعة يزري العبد فيها نفسه خير له من عبادة سبعين سنة، وكان أبو عبد الله الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول: أضر الطاعات على العبد ما أنسته مساويه وذكرته حسناته فيزداد به إدلالا واغترارا بين الناس فيذهب إلى الآخرة صفر اليدين من الخير والثواب وهو يحسب أنه من الصالحين اهـ.

وكان الشعبي رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن رجلاً ممن سبق كان إذا مشى يظله السحاب لفضله فرآه رجل آخر فقال والله لأمشين في ظله لعل أن تنالني بركته، قال: فأعجب الرجل الأول بنفسه حين رأى الناس يمشون في ظله فلما افترقا ذهب الظل مع ذلك الرجل التابع، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إن من علامة صدق توبتك أن تعترف لله بذنبك وإن من إخلاص عملك أن ترفض عجبك وإن من صدق شكرك أن تعرف تقصيرك، وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا خطب على المنبر فخاف العجب قطع الكلام وعدل إلى غيره مما لا عجب فيه، وإذا كانت كتابا فخاف العجب فيه مزقه وقال: اللهم إني أعوذ من شر نفسي.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا رأى حلقة درسه قد كبرت قام عجلا مرعوبًا وقال أخذنا والله ولم نشعر فتبعه الناس يومًا وقالوا له: مثلك لا يخاف من مثل ذلك، فقال: بلى أنا أخوف الناس من ذلك لما عرفه من دناءة أخلاقي، والله لو رآني عمر بن الخطاب ﷺ جالسًا في مثل هذا المجلس لضربني بالدرة وأقامني، وقال لي، أنت لا تصلح لمثل ذلك. وكان مطرف بن عبد الله يقول: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا أرى نفسي على النائمين، وقد كان السلف يعيبون على العباد كثرة صيامهم وقيامهم خوفًا عليهم من العجب، وكانوا يقولون لهم تعلموا العلم ثم اعملوا فإن لكل عملٍ أدبًا شرعيًا، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لو أن عمل ابن آدم كله حسنًا لكان يهلك نفسه من العجب ولكن الله تعالى ابتلاه بشهود النقص فيه رحمة به، وقد قال رجل مرة لإبراهيم التيمي رحمه الله تعالى ما تقول يا فقيه في كذا، فقال إبراهيم: إن زمانًا صرت أنا فيه فقيهًا لزمان سوء، وكان حذيفة المرعشي رحمه الله تعالى يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله تعالى على أفضل أعمالك عندك فأنت هالك اهـ.

وقد كانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى تقول: أكثر ما أكون راجية للخير حين تقل أعمالي الصالحة أي لكونها كانت معتمدة على فضل الله تعالى وامتنانه لا على الأعمال، وكان حسان بن سنان رحمه الله تعالى يطلب من أعوان الولاة أن يدعو له فقيل له في ذلك فقال: لعل في أحدهم خصلة يحبها الله تعالى ولعل في خصلة يبغضها الله تعالى ولعلي أرى نفسي خيرًا منه فيكون خيرًا مني، ولما مرض عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أشاروا عليه بالدفن في المكان الرابع عند قبر رسول الله ﷺ قال: فارتعد من كلامهم وقال: والله لأن يعذبني الله تعالى بالنار أحب إليّ من أن يعلم الله تعالى من قلبي أنني أرى نفسي أهلاً لذلك.

وقد سئل ابن السماك رحمه الله تعالى عن حقيقة العجب فقال: هو أن تتطاول على الناس بعملك فتحقر كل من رأيته مقصرًا في العمل، وكان سفيان الثوري رحمه الله يكثر العبادة فقيل له يومًا إنا نراك تكثر من العبادة فقال: لا يستكثر عبادته في عينه إلا الجاهل بالله تعالى فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا تفتر عن العبادة طرفة عين ولو أنها استكثرت أعمالها لم يجعلها الله تعالى في حضرته السماوية وأنهم مع ذلك يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن لم تخف أن يهلك الله تعالى بالنقص الذي في أعمالك الصالحة فضلاً عن معاصيك فأنت هالك، وكان يزيد بن هارون

رحمه الله تعالى يقول: نظرت في قيام الليل فإذا الحارس يحرس الليلة كلها بدانقين أفيطلب أحدكم الجنة بسهر ليلة واحدة بعبادة لعلها لا تساوي دانقين وربما منّ بها على ربه.

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: السلامة من الرياء والنفاق في العلماء والقراء أعز من الكبريت الأحمر لأن أحدهم لا يقدر على سماع قول الناس ما أعلم فلانًا أو ما أحسن صوته بالقرآن إلا ويحصل عنده العجب بذلك، وإن قالوا ليس هو بعالم ولا حسن الصوت شق عليه وكاد يموت غمًا وذلك من أكبر علامات الرياء ثم يشرع في تحسين حاله رياء وسمعة.

وكان السري السقطي رحمه الله تعالى يقول: كل من ظن بنفسه أنه محسن فهو ممن زين له سوء عمله ومن لم يظن أنه هالك فهو هالك، وقد قال رجل لعبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يا إمام إني لا أرى نفسي أحسن حالا ممن قتل بين يدي نفسًا ظلمًا، فقال له عبد الله: إن أمنك على نفسك لشر ممن قتل نفسًا ظلمًا، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيت العبد لجوجًا مماريًا بالعلم معجبًا بنفسه فاعلم أنه قد استكمل الخسارة، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: من أعجب بعمله فهو قدري لأنه لو رأى العمل خلقًا لله تعالى لم يعجب به.

(قلت) وذلك في العمل الحسن أما العمل السيء فلا يجوز له تعزية نفسه عنده بل الواجب عليه أن يتوب منه ويندم ويستغفر منه والله أعلم، وقد كان لعطاء السلمي رحمه الله تعالى مخننون يخدمونه في بيته ويوضئونه فقيل له: ألم تستقذر هؤلاء أن يكونوا في بيتك، فقال: والله أنهم عندي أطهر من نفسي وأقل ذنوبًا وأقل رياء ونفاقًا فكيف أستقذرهم، وقد كان أبان بن عياش رحمه الله تعالى يقول: لا يكره العمل بالرخص إلا معجب بنفسه أو صاحب هوى، أي لأن الرخص لا يحمد أحد فاعلها فلا يحصل عنده عجب.

وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ يخاف من العجب كل الخوف، وكانوا إذا أثنوا عليه خيرًا يقول: اللهم اجعلني خيرًا مما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون، وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أثنوا عليه خيرًا يقول: اللهم أني أعوذ بك من شر ما يقولون وأسألك أن تغفر لي ما لا يعلمون، وقد قال رجل لعائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين متى يعلم الرجل أنه من المحسنين؟ فقالت: إذا علم أنه من المسيئين، فقال الرجل: ومتى يعلم أنه من المسيئين؟ قالت: إذا رأى نفسه من المحسنين، قال: وحضر بكر بن عبد الله المزني ومطرف بن عبد الله رحمهما

الله تعالى الموقف بعرفة فكان من دعاء مطرف أن قال: اللهم لا تردهم في هذا اليوم من أجلي خائبين، وكان من دعاء بكر قوله: ما أشرف هذه البقعة وما أرجاها للدعاء لو لم أكن في الناس، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: رب هالك بالثناء عليه ورب مستدرج بالإحسان إليه.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: ربما بلغ العجب بالفقير إلى أن يصير يقول: لو عرضت عليّ حور الجنان ما التفت إليهن دون الله تعالى، وهو ربما لو رأى جارية من جواري الدنيا لصلح قلبه بالميل إليها حتى بلغ العرش ووالله لذنب تفتقر به إلى عفو الله تعالى خير لك من طاعة تفتخر بها على العباد، وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يقول لعباد زمانه: أف لكم دخل العجب في أعمالكم مع قلتها وقد كان من قبلكم لا يعجبون بأعمالهم مع كثرتهم والله ما أنتم إلا كاللاعبين بالنظر لعبادة من كان قبلكم.

فاعلم يا أخي ذلك وفتش نفسك كل التفتيش فربما تعجب بترك العجب وتكون أسوأ حالاً ممن أعجب -يعني بالأعمال- فافهم وإياك يا أخي أن ترى نفسك على أحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.



الإنفاق

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تقديمهم إنفاق الدراهم والدنانير في إطعام الجائع وكسوة العريان ووفاء الديون التي على الناس وهم لا يقدرون على وفائها على عمارة الزوايا والدور ونحوها لا سيما في هذا الزمان الذي لا يوجد فيه القوت إلا بمعاينة أسباب الموت إن كان الحقير محترفًا أو بذهاب دينه إن كان متعبدًا لا حرفة له، وقد رأيت مرة شيخًا من مشايخ العصر يبني له في ضريح بقبة وتابوت فجاءه رجل أعمى معيل فطلب منه نصفًا يأخذ لعياله به خبزًا فلم يعطه، فقلت له: أعط له نصفها فهو أفضل من عمارة هذه القبة فأبى أن يعطيه فسقط من عيني من ذلك اليوم.

وقد كان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يعول أربعين دارًا من كل جانب، وكان الدجاج المشوي يحمل إلى سماطه وسألوه في شيء يعاونهم في عمارة مسجد فأبى وقال: لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة المسجد أو عمرته وحدي، وقد كان النبي ﷺ يقول: [إذا أراد الله بعبد شرًا أهلك ماله في الماء والطين]، وفي الحديث أيضًا [كل درهم ينفقه العبد فإن الله يخلفه إلا ما كان في بنيان أو معصية].

وقد كان أنس بن مالك ﷺ يقول: رأيت درجة في سلم غرفة رسول الله ﷺ تتحرك فأردت أن أبنيها بقطعة طين فنهاني ﷺ وقال: [ما لي وللدنيا] وفي رواية [إني بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها] اهـ، وقد بنى أبو الدرداء ﷺ كنيفًا فبلغ ذلك عمر بن الخطاب وكان في خلافته ﷺ فكتب إليه يقول: من عمر إلى عويمر سلام عليك، أما بعد، ثكلتك أمك أما كان لك حاجة إلا أن تجدد عمارة الدنيا بعد رسول الله ﷺ حكمت عليك ىن لا تضع كتابي من يدك حتى تهدمه، قال: فهدمه لوقته، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من استغنى بأموال الفقراء أفقرته ومن سخر الفقراء في بناء داره أعقبه ذلك الخراب، ومن استغنى بأموال الفقراء أخذها على اسمهم واختص بها.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: ما وقع لي أن انفقت درهمًا في بناء قط، قال: ومالت حائط في دار مطرف بن عبد الله فقالوا له: ألا تصلحها يومًا؟ فقال: إن رب المنـزل لا يدعنا نقيم فيه حتى نعمره، وقد كان خص نوح ﷺ من خوص النخل فقيل له: لو بنيت لك بيتًا، فقال: هذا كثير على من يموت، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ما زخرف قوم البناء إلا أوشك أن يرجموا من السماء.

وكان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: قد أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن عمر أمتك ثلاثمائة عام، قال: فأخبرهم نبيهم بذلك فقالوا: إن عمرنا لقصير ثم خرجوا من دورهم وضربوا الأخبية في البرية وأقبلوا على عبادة ربهم عز وجل فلم يتناسلوا ولم يتوالدوا حتى ماتوا على آخرهم.

وقد دخل حامد اللفاف رحمه الله تعالى على امرأة يومًا فوجدها تطين كانونًا لها وتزلقه فقال لها: ما هذا؟ فاعتذرت إليه وقالت: إن ذلك أبقى للكانون حتى لا يقع القدر من فوقه فيذهب الطعام على الأرض، فقال لها: إن الله مطلع على باطنك، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: كان لأبي دار واسعة ورثها من أبيه وكان يسكن في البيت منها فإذا خرب تحول إلى غيره حتى مات في آخر بيت منها ولم يعمر منها شيئًا، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: سيأتي على الناس زمان يرفعون الطين ويضيعون الدين ويسمنون البراذين ويصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير ملتكم.

وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى يقول: كل شيء دخله زهو ومباهاة من مركب وملبس ومطعم ومسكن فهو سرف ومعصية، وكان أبو الدرداء ﷺ

يقول: إذا منع الرجل الحق من ماله أهلكه الله في الماء والطين، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ لا يصلي في مسجد مزخرف وقد مر يومًا على مسجد بني تميم وكانوا قد زخرفوه وقد حضرته الصلاة فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا تصلي في مسجد بني تميم، فقال: لا تقولوا في مسجد بني تميم ثم جاوزه وصلى في مسجد بني ليث وقال: نهينا أن نصلي في مسجد أسس على غير تقوى.

وقد مر عبد الله بن مسعود ﷺ على مسجد منقوش فقال: لعن الله تعالى كل من بنى هذا فإنه أنفق ماله في معصية الله تعالى، وإن له بكل درهم أنفقه فيه كية من نار، وقد بلغ عمر بن عبد العزيز أن أساطين في مسجد دمشق قد حمروها وخلقت بالزعفران فكتب إلى عامله إن المساكين أحوج إلى تلك الدراهم من الأساطين.

وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من بنى بناء ونقشه بالأحمر والأصفر فهو آثم هو ومن أعانه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: كنت أدخل حجر أزواج النبي ﷺ فأتناول سقفها بيدي، وقد جاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى فقال له: إني عمرت دارًا وقصدي أن تدخلها وتدعو لي فيها بالبركة، فقال له الحسن: لقد غرك أهل الأرض ومقتك أهل السماء بنيت شديدًا وأملت بعيدًا وستموت قريبًا.

وقد سئل محمد بن سلام البيكندي رحمه الله عن السنة في طول البناء في المساجد والمنازل فقال: قدر قامة الرجل، وكان أحمد بن حرب رحمه الله تعالى يقول: من نظر إلى بستان أو بنيان بشهوة من غير عبرة سلبه الله تعالى حلاوة العبادة أربعين يومًا، وقد كان المعتمر بن سليمان رحمه الله تعالى يقول: سقط بيت لنا فلم يبنه أبي وقال: الأمر أعجل من ذلك ثم ضرب لنا خيمة وأدخلنا فيها فنحن فيها ثلاثين سنة اهـ.

فتأمل يا أخي هذه الأخلاق واستغفر ربك إن وجدت نفسك مخالفًا لها فإنه لا شرف للعبد إلا باتباع سلفه الطاهر في الأفعال والأقوال والأخلاق، وقد رأيت من عمر له مسجدًا فعادى غالب الناس لكونهم لم يساعدوه وصار مقراضًا في أعراضهم نسأل الله العافية، فمثل هذا عاص لله سبحانه وتعالى ولعل ثوابه الحاصل ببناء زاويته لا يرضى به أحد من الذين اغتابهم في غيبة واحدة اغتابها فيه، وإذا كان من له مال لا ينبغي له أن ينفقه في الماء والطين إلا لضرورة شرعية فكيف بمن يسأل الناس أن يساعدوه ويعاونوه في البناء، فاعلم ذلك يا أخي واحذره كل الحذر، والحمد لله رب العالمين.

مجاهد النفوس

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة مجاهدة نفوسهم في العبادات وترك الشهوات وعدم رضاهم بعد ذلك عنها إلى أن يموتوا، وهذا مجمع عليه عند القوم فمن خالفهم في ذلك فقد خرق إجماعهم وذلك حرام، لأنه من قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد قالوا من ظن أنه بغير بذل الجهد في الطاعات يبلغ شيئًا من الدرجات فقد رام المحال، وقيل أيضًا: لا تخرق لعبد العادات إلا إن زاد على الناس في العبادات، وذلك لأن الكرامات فرع المعجزات فكما تميز النبي ﷺ بكثرة الطاعات والمعجزات فكذلك الولي لا يقع له كرامة إلا إن جاوز أقرانه في الجد والطاعات، وفي الحديث [المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل] اهـ.

وقد كان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول:أول ما تنكرون من الجهاد جهاد نفوسكم. وكان أبو مالك الأشعرى رضي الله عنه يقول: ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله عليه، ولكن عدوك الذي بين جنبيك -يعني النفس- وامرأتك التي تضاجعك وولدك الذي من صلبك فهؤلاء أعدى لك، وكان خصر القارئ رحمه الله تعالى يقول: نحت الجبال بالأظافر حتى تنقطع الأوصال أهون من مخالفة الهوى إذا تمكن من النفس، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: ستون من مردة الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة، وستون من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس في لحظة، وإذا جعلت الأمور كلها على وفق المراد للعبد أتاه الخلل فيها من قبل نفسه.

وقد أجمع سائر الملل على أن رضا الرب جل وعلا في مكروه النفس وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: الدنيا كلها محشوة بالعجائب وأعجب العجائب نجاة نفوسنا ونفوس أمثالنا من النار، وكيف ينجو من النار من كل أعماله تجره إليها، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: أصاب شخصًا من الزهاد سهم فذبحه فقال الحمد لله الذي أخذ لي بثأري من نفسي فكم ذبحتني من ذبح، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: أنا أعلم شقاوتي من الآن، فقيل له مرة: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم قالوا من علامة سعادة المرء أن يكون عدوه عاقلاً وأنا أرى خصمي لا عقل له، فقال: ومن هو خصمك؟ قال: نفسي، فقيل له: أنت بحمد الله ذو عقل، فقال: كيف عقلي وأنا أبيع الجنة بشهوة نومة أو لقمة أو كلمة اهـ.

وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: الهوى كمين في النفس لا يؤمن اتباعه، قال تعالى: [أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ] [1]، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: نحن اليوم لا نرى أحدًا يعمل على وفق السنة وإنما كل يعمل على موافقة الهوى ما بين عالم وجاهل وعابد وزاهد وشيخ وشاب كل يعمل ليحمد على ذلك إما عند الله وإما عند الناس، وكذلك يترك المعاصي خوفًا من ازدراء الناس له لا خوفًا من الله تعالى، ومن ذا الذي لا يغضب منا ممن ذكره بسوء بين الناس اصطلحنا والله على المداهنة وتحاببنا بالألسن وتباغضنا بالقلوب وطلبنا العلم لغير العمل بل للتزين والمباهاة والرياسة على الناس لنحن أول من تسعر بهم النار، وقد بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود إن أردت محبتي لك فعاد نفسك وودني بعداوتها اهـ.

وكان عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى يقول: إذا ذكرت أحوال السلف بيننا افتضحنا كلنا، وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: والله لو أنكم تجدون للعاصي ريحًا لما استطاع أحد منكم أن يجلس إليّ من خبث ريحي، وكان عطاء السلمي رحمه الله تعالى إذا أصاب أهل البلد ريح أو غلاء أو فناء أو بلاء يقول: كل هذا من أجل ذنوب عطاء لو مات عطاء لاستراح الناس منه.

وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للعبد أن يكون عند الله من أجل الناس وعند نفسه من أشرهم، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: كل من ادعى درجة سقط منها وإذا كان الرجل في أعلى درجة فمن حقه أن يحقر نفسه، وكان أبو معاوية الأسود رحمه الله تعالى يقول: كل من فضلني على نفسه من أصحابي فهو خير مني وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى إذا جلس إليه أحد وثقل على قلبه يوبخ نفسه ويقول لها: إنك لا تحبين الصالحين ولما رأيت خيرًا منك كرهته وثقل عليك مجالسته.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى كثيرا ما يقول من أحب أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ ثم يمسك لحيته بيده ويبكي ويقول: كنت يا فضيل في شبابك فاسقًا ثم صرت في كهولتك مرائيًا والله للفسق أهون من الرياء، وقد قال شخص مرة لمالك بن دينار رحمه الله تعالى يا مرائي. فقال له مالك: لقد عرفت يا أخي لقلبي الذي أضله أهل البصرة، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: كل من زعم أنه يحب الله وهو يحب نفسه

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٣.

فقد كذب، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل العابد حتى يصير يرى إخلاصه رياء ووالله لو قيل لي إن الخليفة داخل عليك الساعة فسويت لحيتي بيدي لقدومه لخفت أن أكتب في جريدة المنافقين اهـ.

وأما ترك القوم ﷺ للشهوات فدليلهم في ذلك الأخبار من الكتاب والسنة، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: تصد الشيطان لعنه الله لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فقال له: ما أنت صانع بأمة محمد ﷺ إن انت ادركتهم، فقال: أزين لهم الدنيا حتى يكون الدينار والدرهم أشهى لأحدهم من شهادة أن لا إله إلا الله، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: من غلب شهوته فهو خير من الملائكة لأنهم عليهم الصلاة والسلام عقول بلا شهوة، ومن غلبته شهوته فهو شر من البهائم لأنهم شهوة بلا عقول.

وكان الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى يقول: من أكل الشهوات وطلب حفظ فرجه فقد رام المحال، وقد كان أبو حازم رحمه الله تعالى يمر على الجزار فيقول له الجزار خذ لك لحمًا وأنا أصبر عليك، فيقول له: أنا أولى منك بالصبر على نفسي، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: محاربة الزاهدين تكون مع الشهوات ومحاربة التوابين تكون مع السيئات ومن أراد حماية نفسه من دخول النار فليترك سائر ما تشتهيه نفسه في الدنيا.

وقد قال عتبة الغلام يومًا لعبد الواحد بن زيد رحمهما الله تعالى: إن فلانا يصف نفسه بأخلاق لا نذوقها وهو صادق عندنا فما سبب عدم فهمنا بحاله فقال، لأنه لا يأكل خبزه بلا أدام وأنتم تأكلونه بالأدام وكل ما زاد على الخبز فهو شهوة.

وكان أبو العباس الموصلي رحمه الله تعالى يقول: من زعم أن أكل الشهوات لا يضره فقد أعظم الفرية على الله تعالى، وكان الداراني رحمه الله تعالى يقول: من المحال أن يجد أحد لذة الطاعات وهو يتناول الشهوات، وقد كان طاوس رحمه الله يصف للمريض قلة الأكل ويقول: لم يجعل الله تعالى لصحيح ولا لمريض دواء أعظم من ترك الأكل وما أتى المرض لمريض إلا من جهة الأكل ولذلك كانت الملائكة لا تمرض لعدم أكلهم عليهم الصلاة والسلام.

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: من نظر إلى قصر أو بستان أو غير ذلك فاستحسنه إلا نقص من عقله بقدر ما استحسن، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: من تناول الشهوات فليتهيأ للذل في الدنيا والآخرة، وكان يحيى بن معاذ رحمه

الله تعالى يقول: شهوات النفس نيرانها وحطبها لذتها والجوع ماؤها التي تطفأ به، وقد كان يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام من أطيب الناس طعامًا كان يأكل الجراد وقلوب النخل.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يجوع نفسه ويميتها ويقول لها الأكل أمامك، وكان بشر بن السري رحمه الله تعالى يقول: لأن أترك ذرة من غداي أو عشاي أحب إلي من عبادة العابدين وصلاة المصلين وحج الحاجين وصوم الصائمين وجهاد المجاهدين، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: مذهب جميع الصالحين الجوع فمن فر منه فهو من الفاسقين، وقد أدركنا العلماء وهم ربيع فصاروا الآن مزابل الدنيا وإذا رأيتم الزاهد يرخص بأكل الشهوات فاعلموا أنه قد رجع عن الزهد لأن التبسط في الدنيا معدود من فسق العارفين، ووالله ما بقى أحد من زهاد هذا الزمان تقر العين برؤيته.

وقد أدركنا أقوامًا كانوا يحرصون على ترك الدنيا أكثر مما يحرص هؤلاء على تحصيلها واعلموا أن من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعًا، ومن كان استناده إلى الخلق دون الله تعالى لم يزل مخذولاً، وقد كان يزيد الرقاشي رحمه الله تعالى لا يشرب الماء البارد أبدًا ويقول: أخاف أن أحرم شربه غدًا إن شربته اليوم -يعني في الآخرة-.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: الناس يقولون أن من ترك اللحم أربعين يومًا قل عقله، وإني قد تركته سنين وما نقص من عقلي شيء ولله الحمد، وكان رحمه الله تعالى لا يأكل من رطب البصرة شيئًا وإذا مضى زمنه يقول: يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص ترك أكل الرطب منه شيئًا ولا زاد في بطونكم شيئًا.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: صاحب الشهوات معذب في الدنيا والآخرة، في الدنيا في تحصيلها وفي الآخرة في الحساب عليها، واعلموا أن من كثر أكله كثر لحم بطنه ومن كثر لحم بطنه كثرت شهواته ومن كثرت شهواته كثر ذنوبه ومن كثرت ذنوبه قسا قلبه ومن قسا قلبه غرق في الذنوب والآفات ومن غرق في الذنوب والآفات دخل النار، وقد اشتهى مالك بن دينار رحمه الله في مرض موته خبزًا أبيض ولبنًا فلما أتوه به نظر إليه وقال: دافعت عن نفسي الشهوات طول عمري أفأوافقها في آخره ثم قال: اذهبوا به إلى يتيم بني فلان ولم يأكله.

وقد مكث معروف الكرخي رحمه الله تعالى ثلاثين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في

دبس ثم مات رحمه الله تعالى ولم يفعل ذلك، قال: وقدم بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إناء فيه لبن وعسل فرده ولم يأكل منه، وقال تذهب لذته وتبقى تبعته، وقد رأى ابنه عبد الله رضي الله عنهما يومًا يأكل خبزًا وسمنًا فعلاه بالدرة وقال له: كل خبزًا وملحًا واترك السمن لغيرك اهـ.

فتأمل يا أخي نفسك وابك على حالك فإن سداك ولحمتك شهوات فأنت محجوب عن ربك في عموم الأوقات لا تلتذ بشيء من العبادات ولا تراقب ربك في الخلوات فكيف تدعي أنك من الصالحين وأنت قد خالفتهم في جميع أحوالهم، فإن لم توافقهم في الأمور الباطنة وإلا يا أخي فانزع زيهم الظاهر من عمامة الصوف وجبة وعذبة.

وقد رأيت مرة شخصًا بهذه الصفة في وليمة يمد يده يمينًا وشمالاً فيلتقط اللحم وأطايب الطعام من بين يدي إخوانه وربما يدعى إلى أكلة واحدة إلى المطرية خارج مصر أو بلبيس فيسافر إليها، وربما يدعي أنه يفعل ذلك جبرًا لخاطر من يدعوه لا لأجل شهوة بطنه والناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

شدة الاجتهاد

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة اجتهادهم في العبادة ليلاً ونهارًا رجالاً ونساءً ودوام مواظبتهم على قيام الليل لا سيما في ليالي الشتاء وعدم رؤيتهم نفوسهم بذلك على أحد من النائمين أو أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حقوق الله تعالى عليهم، بل يرون جميع عباداتهم من النعم التي لا يطيقون لها شكرًا كما سيأتي بسطه في أماكن من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وقد كان رسول الله ﷺ يقول: [رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى] قال الحسن: يعني أجهدتهم العبادة وكانوا يعملون أعمال البر ويخافون عليها الرد.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركت أقوامًا وصحبت طوائف فما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يحزنون على شيء أدبر، وكانت في أعينهم أهون من التراب الذي يطئون عليه، وكان أحدهم يعيش طول عمره لا يطوي له ثوب ولا يأمر أحدًا من أهله بصنعة طعام ولا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئًا إذا ناموا وكانوا عاملين بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وكانوا إذا جنهم الليل قاموا على أقدامهم وافترشوا وجوههم وجرت دموعهم على خدودهم حتى كان يظن الداخل لهم أن هذا من ماء الوضوء.

وقد دخل جماعة على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في مرضه يعودونه فرأوه ناحل الجسم جدًا، فقالوا له: ما الذي بلغ بك إلى ما نرى؟ فقال: هموم وأحزان تولدت من خوف الحساب وسوء المنقلب.

ولما مات منصور بن المعتمر رحمه الله تعالى قال رجل لأمه: ما فعل منصور؟ فقالت: إن منصورًا رحمه الله تعالى صام فلم يفطر إلا عند ربه عز وجل، وقد كانت ابنة جاره تراه دائم القيام بالليل على سطح داره فكانت تظن أنه عمود لطول قيامه فلما مات فقدته، فقالت لأهله: ما صنع ذلك العمود الذي كان فوق سطحكم، فقالوا لها: قدم على ربه عز وجل، فقالت: كيف؟ قالوا: لم يكن في سطحنا عمودًا إنما ذلك منصور كان يقوم طول الليل.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ دائمًا يذكر ذلك ويبكي حتى تبتل لحيته، وكان داود الطائي رحمه الله يواصل العبادة ليلاً ونهارًا حتى لم يبق له وقت يأكل فيه ولا يشرب فكان يأكل السويق والفتيت دون الخبز ويقول: بين مضغ اللقمة وبلعها قراءة كذا وكذا آية، قال: ودخل عليه رجل يومًا يزوره فرأى في سقف بيته جذعًا مكسورًا فأخبره بذلك، فقال له: والله يا أخي إن لي في هذا البيت عشرين سنة ما رفعت رأسي إلى سقفه حياء من الله تعالى.

وقد كان الناس يجلسون إلى أحمد بن رزين رحمه الله تعالى فما يرونه يلتفت يمينًا ولا شمالاً فقالوا له في ذلك، فقال: إن الله تعالى إنما خلق العينين للاعتبار فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة.

وقد كانت امرأة مسروق رحمهما الله تعالى تقول: والله ما كان مسروق يصبح من ليلة من الليالي إلا وساقاه منتفختان من طول القيام، وكان أجلس خلفه فأبكي رحمة له، وكان رحمه الله إذا طال عليه الليل وتعب صلى جالسًا ولا يترك الصلاة، وكان إذا فرغ من صلاته يزحف كما يزحف البعير من الضعف.

وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: لولا ظمأ الهواجر وقيام الليل ما أحببت البقاء في هذه الدار، وقد صام الأسود بن زيد رحمه الله تعالى في الحر حتى اخضر جسده وصلى حتى سقط فدخل عليه الحسن البصري ومالك بن دينار رحمهما الله فقالا له: إن الله لم يأمرك بكل هذا، فقال: إنما أنا عبد مملوك والله لو أني سجدت على الجمر عمري كله بل منذ خلق الله الدنيا إلى قيام الساعة ما أديت شكر عافية ساعة واحدة ولا شربة ماء.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فصار يصلي خمسمائة ركعة قائمًا ومثلها جالسًا، وكان علي بن الفضيل رحمه الله تعالى لا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ولا يسمعها من غيره: قال فهجم عليه شخص مرة فقرأ بها في صلاة المغرب فغشي عليه ثلاث أيام بلياليها لا يفيق.

وقد كان الحرث بن سعيد رحمه الله تعالى يقول: مررنا يوم براهب فرأينا شدة اجتهاده وما يصنع بنفسه فلمناه على ذلك، فقال: وما هذا الأمر بالنسبة لما نلاقيه يوم القيامة مما نحن عنه غافلون، فقال له بعضنا نريد أن نسألك عن أمر فهل أنت مخبرنا عنه، فقال: سلوا ولا تكثروا فإن الوقت لن يعود والعمر لن يرجع والطالب حثيث، فعجبنا من كلامه ثم قلنا له: ماذا حكم الخلق غدًا عند ربهم، فقال: يكونون على قدر نياتهم، فقلنا له: أوصنا، فقال: تزودوا على قدر سفركم ثم أدخل رأسه في صومعته وتركنا.

وكان عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: مررت يومًا براهب من رهبان الصين فقلت له: يا راهب فلم يجبنّي، فقلت له: لم لا تجبني، فقال: خفت أن أقول نعم فأكتب لأن الراهب هو من رهب من الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لهابته وتفكر في حسابه وعقابه وظل نهاره صائمًا وليله قائمًا، وقد أسهره ذكر النار ومساءلة الجبار فهذا هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة لئلا أعقر الناس، قال: فتعجبت من كلامه ثم قلت له أخبرني ما الذي قطع الناس عن ربهم بعد أن عرفوه، فقال: قطعهم عنه حب الدنيا لأنها محل المعاصي، فالعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه وأقبل على ما يقربه من حضرة ربه اهـ.

قال: وقيل لداود الطائي يومًا ألا تسرح لحيتك فإنها قد تلبدت، فقال: إني إذا لفارغ، وكان أويس القرني رحمه الله تعالى يحيي الليل كله بسجدة واحدة، ولما تاب عتبة الغلام رحمه الله تعالى كان لا يتفرغ لأكل ولا شرب، فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك يا ولدي، فقال: دعيني يا أماه أتعب في عمر قصير ليوم طويل.

لأ ولما حج مسروق رحمه الله تعالى كان لم ينم قط في الطريق إلا ساجدًا على وجهه، وكان عبد الله بن هلال رحمه الله تعالى يقول: أرجو من الله تعالى أن لا يشهد علي ليل بنوم ولا نهار بفطر، وكان عبد الله بن داود رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم

إذا دخل عليه الليل يصلي منه جانبًا فإذا بلغ الأربعين طوى فراش النوم إلى أن يموت.

وكان كهمس بن الحسين رحمه الله تعالى يصلي كل يوم ألف ركعة فإذا تعب قال لنفسه: قومي يا مأوى كل شر فلما عجز كان يصلي كل يوم خمسمائة ركعة ثم يبكي ويقول: يا ويلي نقص نصف عبادتي، وقد كانت ابنة الربيع بن خيثم رحمهما الله تعالى تقول: يا أبت ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام، فيقول لها: لأن أباك يخاف أن يموت في نومه فيدخل النار.

قال: ولما سافر مالك بن دينار لزيارة أويس القرني رحمهما الله تعالى فدخل عليه بعد صلاة الصبح فوجده جالسًا فسلم عليه فرد عليه السلام ثم لم يتكلم إلى الظهر فصلى الظهر ولم يتكلم إلى العصر فصلى العصر ولم يتكلم إلى المغرب فصلى المغرب ولم يتكلم إلى العشاء ثم صلى العشاء ولم يتكلم إلى الصبح، فلما صلى الصبح غلبته عينه وهو جالس فانتبه فزعًا وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا يشبع، قال مالك: فقلت في نفسي حسبي هذا من شهود أحواله ثم رجعت ولم أكلمه.

وقد نظر رجل إلى أويس رحمه الله تعالى فقال له: ما لي أراك مريض الدهر، فقال: وما لأويس لا يكون مريضًا إن المريض يطعم وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم ثم قال: يا عجبًا ممن يعلم أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام وهو بينهما ينظر إليهما.

وقد دخل رجل على إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى فوجده قد صلى العشاء فجلس الرجل يرقبه إلى الفجر وإبراهيم مضطجع فلما طلع الفجر قام إبراهيم إلى الصلاة فقال له الرجل: كيف تصلي وقد كنت نائمًا، فقال: لم يأخذني النوم بل كنت جائلاً في أودية النار أنظر عذاب أهلها فكيف أنام.

وقد كان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: أدركنا الناس وأحدهم يصلي فلا يأتي فراشه إلا زاحفًا. وكان عامر بن عبد الله رحمه الله تعالى يصوم الدهر ويقوم الليل كله، فقيل له في ذلك فقال: وما هذا إن هو إلا أني جعلت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك كبير أمر.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: كان الصحابة رضي الله عنهم يصبحون شعثًا غبرًا وقد باتوا سجدًا وقيامًا يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا

ذكر الله عز وجل يميدون كما تميد الشجرة في يوم الريح وتمهل أعينهم حتى تبتل ثيابهم وتصير دموعهم كآثار ماء الوضوء، فإذا كان وقت السحر يدهنون وجوههم ويكتحلون كأنهم باتوا نائمين غافلين.

وكان أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى قد وضع في مكان تهجده سوطًا فكان كلما أخذته فترة ضرب نفسه بالسوط ويقول: لها قومي لعبادة ربك والله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكلال منك لا مني وإنك أولى بالضرب من الدابة لموضع عقلك وكثرة دعاويك، وقد تعبد ضيغم العابد رحمه الله تعالى قائمًا حتى أقعد وتعبد قاعدًا حتى أستلقي وتعبد مستلقيًا حتى مات رحمه الله.

وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا قومًا كانوا في العبادة على حد لا يقبل الزيادة، قال: وتعقد ساقا صفوان بن سليم رحمه الله تعالى من طول القيام حتى لو قيل له إن الساعة تقوم غدًا ما وجد زيادة على ما هو فيه، وكان إذا جاء الشتاء يتهجد فوق السطح حتى مات وهو ساجد، وكان القاسم بن محمد رحمه الله تعالى يقول: رأيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تصلي الضحى وهي تردد قوله تعالى: [فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ] إلى قريب الزوال وهي تبكي، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: علامة الصالحين صفرة الألوان من طول السهر، وعمش العيون من طول البكاء وذبول الشفاه من كثرة الصوم.

وقد كان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول لمجتهدي زمانه في العبادة: والله إن اجتهادكم كاللعب بالنظر لمن كان قبلكم، وكان عتبة الغلام رحمه الله تعالى يقطع الليل بثلاث صيحات فكان يضع رأسه في طوقه يتفكر فإذا مضى كل ثلث من الليل يصيح صيحة، فقالوا لجعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما على ذلك، فقال: لا تنظروا إلى صياحه ولكن انظروا ما صاح منه.

وقد كان حبيبة العدوية رحمها الله تعالى إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم تقبل على صلاتها إلى الفجر، وكانت تقول في مناجاتها: اللهم اغفر لي سوء أدبي في صلاتي، وقد كانت عجرة العابدة رحمها الله تعالى تحيي الليل كله وهي مكفوفة ثم تنادي بصوت محزون إلهي سار العابدون إلى حضرتك وأنا خامدة العزيمة، وقد كانت عفيرة العابدة رحمها الله تعالى لا تضع جنبها إلى الأرض في ليل ولا نهار وتقول: أخاف أن أؤخذ على غرة وأنا نائمة.

وقد كانت شعوانة العابدة رحمها الله تعالى تنوح كل ليلة وتبكي إلى الصباح، فدخل عليها جماعة يومًا فقالوا لها: ارفقي بنفسك، فقالت: والله لقد وددت أن أبكي الدم فضلا عن الدموع حتى لا يبقى في جسدي قطرة من دم وكانت تقول: اللهم اغفر لكل من تعرض لمعصيتك بعد معرفتك، وقد قالت مرة: اللهم بحبك لي إلا ما غفرت لي، فقالوا لها: ومن أين عرفت أنه يحبك، فقالت: لولا محبته لي ما أقامني بين يديه في الظلام والناس نيام.

وقد كانت معاذة العابدة رحمها الله تعالى تحيي الليل كله بالصلاة فإذا غلب عليها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول: يا نفس النوم أمامك في القبر أما في سرور وفرح وأما في عذاب وحسرة، وقد أرادت أم إبراهيم العابدة رحمها الله تعالى أن تجاور بمكة ثم تركت ذلك فقالوا لها في ذلك، فقالت: علم اني لا أصلح لخدمته فطردني من حضرته.

وكان ذو النون المصري رحمه الله تعالى يقول: خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل فحققت النظر فإذا هي امرأة، فقلت: من هذا السواد؟ فقالت: ومن هذا الرجل، فقلت: غريب، فقالت: سبحان الله وهل مع الله غربة، قال ذو النون: فبكيت من قولها، فقالت: لو كانت صادقًا ما بكيت، فقلت: وهل عدم البكاء من الصدق، قالت: نعم لأن البكاء راحة للقلب والصادق لا يطلب راحة في هذا الدار، قال ذو النون: فعجبت من قولها وقلت لها: عظيني بموعظة، فقالت لي: عليك بالحياء من الله تعالى فإن عطاء السلمي مكث أربعين سنة لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله.

وقد سمعت رابعة العدوية سفيان الثوري رحمهما الله تعالى يقول: واحزناه، فقالت له يا سفيان لا تقل ذلك لو كنت حزينًا ما تفرغت لهذا القول، قل: واقلة حزناه فإنه إلى الصدق أقرب، وقد كان عفيرة العابدة رحمها الله تعالى لا تمل من الكباء فقيل لها أما تسأمين من كثرة البكاء؟ فقالت: كيف يسأم إنسان من دوائه وشفائه، وقد كانت أم العلاء السعدية رحمها الله تعالى تبكي وتصلي طول ليلها وتقول ذنوبي كثيرة فلم تزل تبكي حتى ذهب بصرها.

وقد بكيت بردة العابدة رحمها الله تعالى حتى ذهب بصرها فلاموها على ذلك فقالت: لو رأيتم بكاء العصاة يوم القيامة لقلتم إن هذا البكاء كاللعب، وقد مكثت ابنة محمد بن سيرين رحمهما الله تعالى عشرين سنة في مصلاها لا تقوم إلا للوضوء والصلاة فقط، وقد كانت معاذة العدوية رحمها الله تعالى تصلي في الليل الطويل فكانت تكل الرجال وهي لا تكل.

وقد كانت رابعة عدوية رحمها الله تعالى لا تهدأ ولا تنام ولا تفطر حتى ماتت، قال الداراني رحمه الله صليت معها ليلة فلما كان الصباح، قلت لها يا رابعة ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة، قالت: أن تصوم له النهار وتقوم له الليل حتى تموت.

وقد كانت رملة العابدة رحمها الله تكثر الصوم حتى اسود جلدها وبكيت حتى عميت وصلت حتى أقعدت، قال إبراهيم الخواص رحمه الله صليت معها ليلة فلما كان السحر سمعتها تقول يا ليتني لم أخلق ثم تبكي، وكان صالح المري رحمه الله تعالى يقول: قرأت مرة قوله تعالى: [يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ] [١] فسمعها عابد فصعق ثم افاق فقال: أعدها علي فأعدتها عليه فخر ميتا، وقد وعظ عبد الواحد بن زيد رحمه الله الناس مرة فصاح رجل من ناحية المسجد كف عن كلامك يا واعظ فقد كشفت قناع قلبي، فلم يكف عبد الواحد فصرخ الرجل ثم خرجت روحه، قال ابن القاسم وأنا ممن شهد جنازته رحمه الله تعالى. وقد قرأ زرارة بن أبي أوفى ﷺ قوله تعالى: [فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ] [٢]، وكان في الصلاة فخر ميتا.

وكان عمر بن أدهم رحمه الله تعالى يعصب عينيه إذا خرج إلى السوق لا يرى كافرا ولا غافلاً عن الله تعالى، وكان له غلام يقوده فقال لغلامه يوما أين نحن؟ قال: في المقابر فحل العصابة عن عينيه فوقع بصره على القبور فخر ميتا.

وقد كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذا ذكر النار بكى حتى يسمع وجيب قلبه من مسيرة ميل، فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام يوما هل رأيت خليلاً يعذب خليله، فقال يا جبريل: إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول، بلغنا أنه لما نزل قوله تعالى: [وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ] [٣]، صاح سلمان الفارسي ﷺ ووضع يده على رأسه وخرج هائما فمكث ثلاثة أيام لا يعي شيئا، وكان محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسه الدموع.

وقد كان الإمام أبو بكر الصديق ﷺ يقول: من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: من كان يريد القرب من

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٦.
(٢) سورة المدثر ، الآية ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الحجر : الآية ٤٣.

المحبوب فليكثر من البكاء على الذنوب، وكان محمد بن عثمان رحمه الله تعالى يقول: ما شبهت عيني الفضيل بن عياض رحمه الله إلا كأنهما ميزابان، وقد قال أنس بن مالك ﷺ يومًا لثابت البناني رحمه الله تعالى ما أشبه عينيك بعيني رسول الله ﷺ، قال: فبكى ثابت حتى عمشت عيناه غيرة على عيني رسول الله ﷺ أن يشبه بهما غيرهما.

وقد بكى فتى من الأنصار رضي الله عنهم حتى أظلم بصره فعوتب على ذلك فقال: والله لأبكين ما عشت فإذا مت فعند الله أحتسب تقصيري في مرضاته، ولما بكى الحسن البصري على ابنه سعيد رحمهما الله تعالى لاموه على ذلك، فقال: رحم الله سعيدًا والحمد لله الذي لم يجعل بكاء يعقوب على يوسف عليهما الصلاة والسلام عارًا ولم يعاتبه الله على ذلك وإلا لو كان عارًا كان الأمر قد ضيق علينا.

وكان العتبي رحمه الله تعالى يقول: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي والدموع تتقاطر على وجهه ولحيته وهو يضطرب فقال لهم: ما بالكم؟ فقالوا له: عظنا يا أبا علي، فقال: عليكم بالقرآن عليكم بالسنة عليكم بالصلاة، ويحكم هذا الزمان ليس بزمان حديث وإنما هو زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج الليل وخذ ما تعرف ودع ما تنكر.

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أنه ما سالت قطرة من عين قبل الرواح إلى الجمعة إلا أوحى الله تعالى إلى كاتب الشمال أن اطو صحيفة عبدي فلان ولا تكتب عليه خطيئة إلى مثلها من الجمعة الأخرى.

وكان منصور بن زاذان رحمه الله تعالى يصلي ويبكي ويحل عمامته كورة كورة يمسح بها دموعه حتى تبتل ثم ينشرها في الشمس، وقد كان كعب الأحبار ﷺ يقول: والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله تعالى حتى تسيل دموعي على وجهي أحب إليّ من أن أتصدق بجبل من ذهب، وكان ذر بن عمرو رحمه الله يقول لأبيه: يا أبت ما لي أرى المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من ههنا ومن ههنا، فقال: يا بني ليست النائحة بالأجرة كالنائحة الثكلى، وقد كان كعب الأحبار ﷺ يقول: مر يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام بولد وهو مكب على قبر يبكي، فقال له: ما الذي يبكيك يا ولدي؟ فقال: أخبرني جبريل عليه الصلاة والسلام أن بين الجنة والنار مفاوز لا يطفئ حرها إلا الدموع. فقال له: عليك بالبكاء يا بني ثم أكب على القبر يبكي معه حتى بلا الثرى اهـ.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: اللهم ارزقني عينين هطالتين تبكيان من خشيتك قبل أن تكون الدموع دمًا والأضراس جمرًا، وكان ذو النون المصري رحمه الله تعالى يقول: وقفت مرة على عابد في جبل وهو يبكي، فقلت له علام تبكي؟ فقال: لست ابكي على فوات شيء وانما هي روعة يجدها الخائفون في قلوبهم من هيبة الله تعالى لا يمكنهم التلفظ بها، وكان إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى يكثر من البكاء أواخر عمره ويقول: يا رب قد كبرت وقد ضعف جسمي وقلت عبادتي فاعتقني بفضلك من النار فإني لا أقدر أمكث فيها لحظة.

وقد كان نافع رحمه الله تعالى يقول: كان بوجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ خطان أسودان من مجرى الدموع، ولما رمدت عينا ثابت البناني رحمه الله تعالى وضعف بصره قال له الحكيم: إن تركت البكاء والسجود أمكنني مداوتك، فقال ثابت: وما حياتي في الدنيا بغير هذين اذهب فلا حاجة لي بمداوتك، وقد قالوا لمالك بن دينار رحمه الله تعالى ههنا شخص حسن الصوت بالقرآن افلا تأتيه فتسمعه، فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة.

وقد كان الضحاك بن مزاحم رحمه الله تعالى يبكي كل ليلة عند الغروب حتى تبتل لحيته ويقول: إني أخاف أن يكون قد صعد من عملي في هذا اليوم ما يسخط ربي، وكان مكحول الدمشقي رحمه الله تعالى يقول: إذا رايتم أحدًا يبكي فظنوا به خيرًا فإني نظرت مرة إلى رجل يبكي فظننت به أنه مراء فعوقبت بحرماني من البكاء سنة.

وكان يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالى يقول: البكاء يكون من خمسة أشياء: من الفرح والحزن والوجع والفزع والرياء وسادسها البكاء من خشية الله تعالى وهو يأتي صاحبه بغتة ولا يكون بالتفعل وهذا هو الذي تطفئ الدمعة منه أمثال الجبال من النار اهـ.

وكان كعب الأحبار ﷺ يقول: إن العبد ليبكي حتى يرسل الله له عز وجل ملكًا فيمسح عينيه بجناحيه وحينئذ يبكي العبد من خشية الله تعالى، وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: بكى داود عليه الصلاة والسلام أربعين يومًا لا يرفع رأسه من السجود حتى نبت المرعى من دموعه وغطى رأسه حياء من الله عز وجل، فنودي يا داود أجيعان أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عريان فتكسى، فأجيب داود من غير طلب حتى تبلغ المؤاخذة حدها، قال: ثم نحب داود نحبه هاج منها العمود فاحترق من حر جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته منقوشة في كفه فكان لا يبسط كفه لطعام ولا شراب ولا غيرها إلا رآها وبكى.

وكان يؤتى بالقدح من الماء ليشربه فما يضعه على شفتيه حتى يفيض من دموعه ولم يرفع بصره إلى السماء بعد ذلك حياء من الله تعالى إلى أن مات عليه الصلاة والسلام، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: بلغني أن داود عليه الصلاة والسلام ذكر ذنبه ذات يوم فذهب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لست أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته مثلي ومن لم يكن ذا خطيئة فماذا يصنع بداود الخطاء.

وقال كعب الأحبار ﷺ: كان الناس إذا لاموا داود عليه الصلاة والسلام على طول البكاء يقول: ذروني أبكي قبل بكاء اليوم الطويل قبل تحريق العظام واشتعال اللحى بالنار، قبل أن يؤمر بالعبد إلى جهنم فتسحبه ملائكة غلاظ شداد، وقد كان عبد العزيز بن عمير رحمه الله تعالى يقول: لما أصاب داود عليه الصلاة والسلام الخطيئة نقصت قوته وبح صوته فقال: إلهي قد بح صوتي في صفات أصوات الصديقين فأوحى الله إليه إن الصديقين لا يخطئون، وقد كان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: كان داود عليه الصلاة والسلام قبل وقوعه في الخطيئة يقول: اللهم لا تغفر لمن عصاك غيرة لجناب الحق عز وجل، فلما وقع في الخطيئة صار يقول: اللهم اغفر لكل خطاء حتى تغفر لعبدك داود معهم.

وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: لما اشتد البكاء على داود عليه الصلاة والسلام ولم ير البكاء ينجع، قال: يا رب أما ترحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال: إلهي كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كفي الماء الجاري عن جريه وسكن الريح عن الهبوب وأظلني الطير وأنست الوحوش إلى محرابي، فما هذه الوحشة التي بيني وبينك يا رب؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذاك أنس الطاعة وهذه وحشة للعصية، يا داود آدم خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكا إلي الوحدة فزوجته بحواء أمتي وأسكنته جنتي، فلما عصاني مرة واحدة بأكله من الشجرة طردته عن جواري عريانا ذليلاً، يا داود اسمع مني ما أقول والحق أقول أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأهملناك وإن عدت إلينا قبلناك.

(قلت) اعلم أن الذي يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خطايا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تعقل لأمثالنا بل ربما تقرب أحدنا بها إلى الله تعالى ولا يجوز حملها على ما نتعقله نحن من المعاصي التي نهانا الله عنها، فاحفظ يا أخي نفسك ولسانك في حق أكابر حضرة الله

تعالى وخواص خلقه من أنبيائه وأصفيائه، وقد ذكرنا في كتابنا الأجوبة عن الأكابر أن معاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صورية لا حقيقية أجراها الله تعالى على أيديهم تعليمًا لهم بالفعل ليعلموا قومهم كيفية الخروج من المعاصي الحقيقية إذا وقعوا فيها، وكان بكاؤهم أيضًا صوريًا فاعلم ذلك يا أخي وابك على قلة بكائك وادخل من الباب الذي دخل منه البكاءون من خشية الله تعالى وهو الجوع وعدم أكل الحرام والشبهات، فإن من شبع من ذلك قسا قلبه ضرورة كما تقدم لك بسطه مرارًا.

وكان عبد الرحمن الأسود إذا اعتلت رجله قام على رجل واحدة إلى الصباح ولا يترك قيام الليل، وقيل للحسن البصري مرة ما بال المجتهدين أحسن الناس وجوهًا، فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره، وكانت شعوانة العابدة تقول لأصحابها: الزموا قلوبكم الحزن ومحبة الله ثم لا يبالي أحدكم حين مات، وكان لأبي بكر بن عياش خطان أسودان في خديه من الدموع، ولما سرق مصحف مالك بن دينار فكان إذا وعظ الناس بكوا فيقول: كلنا نبكي فمن سرق المصحف، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الاستغفار

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الاستغفار وخوف المقت كلما قرءوا القرآن لشهودهم عدم عملهم به، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: كم من حامل للقرآن والقرآن يلعنه من جوفه وإذا عصى حامل القرآن ربه ناداه القرآن من جوفه والله ما لهذا حملت ألا تستحي من ربك، واعلم إنه يجب على تالي القرآن أن يروض نفسه على يد شيخ صادق حتى يلطف كثائفه وحجبه المانعة من العمل بالقرآن وعن شهود عظمة الله تعالى، فإنه لو شهد عظمته عز وجل ما عصاه كما عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكمل ورثتهم إذ لا يقع أحد في معصية قط إلا مع الحجاب اهـ.

وقد كان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى كلما ختم القرآن يستغفر الله سبعمائة مرة ثم يقول: اللهم لا تمقتني بما قرأته من غير عمل سبعين مرة، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: حامل القرآن مقامه يجل عن أن يعصى ربه وكيف يصح له أن يعصى ربه وكل حرف من القرآن يناديه بالله عليك لا تخالف ما أنت حامله مني، فلا ينبغي لحامل القرآن أن يلهو مع اللاهين ولا يسهو مع الساهين ولا يغفل مع الغافلين، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم فإن

القرآن ربيع القلب كما أن الغيث ربيع الأرض، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ناموا وبنهاره إذا الناس أفطروا وبحزنه إذا الناس ضحكوا وبصمته إذا الناس لغو وبخشوعه إذا الناس يختالون -يعني في ثيابهم ومشيهم-.

وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا مماريًا ولا رافعًا صوته بالحديث والعلم ولا راغبًا في الدنيا، لأن كل كلمة مما هو حامله تقول له ازهد في الدنيا، وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فلما ختمته قال لي ﷺ: هذا القرآن فأين البكاء.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ما ثم مصيبة أعظم من مصيبتنا يتلو أحدنا القرآن ليلاً ونهارًا ولا يعمل به وكله رسائل من ربنا إلينا، وكان ولده علي رحمهما الله تعالى يقول: من لم يبك على نفسه عند تلاوة القرآن فهو مغرور، لأن المراد منه العمل لا التلاوة، وكان إذا قرأ القرآن يبكي حتى يكاد لا يقدر على إتمام السورة ويقول: إني لأتعجب ممن يفرح كلما ختم القرآن تلاوة ولا يطالب نفسه بشيء من مواعظه وزواجره وقوارعه.

وقد كان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: ربما إني أقوم خمس ليال متوالية بآية واحدة أرددها وأطالب نفسي بالعمل بما فيها، ولولا أن الله تعالى يمن عليّ بالغفلة لما تعديت تلك الآية طول عمري لأن لي في كل تدبر علمًا جديدًا والقرآن لا تنقضي عجائبه.

وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: لولا أن الله تعالى يعطي لكل من الأولياء معاني القرآن هبة منه تبارك وتعالى حال تلاوتهم له لما قدر أحد منهم على تلاوته كله في ليلة واحدة، إذ الكمل ليست علومهم المتعلقة بالقرآن مستنبطة بكفر ولا إمعان نظر وإنما هي مواهب يهبها الله لهم حال تلاوتهم فتكون عين التلاوة هي عين المعاني، ومتى تخلفت المعاني عن النطق فذلك من نتيجة الفكر، قال رحمه الله: وعليه يحمل قول الحق عز وجل للإمام أحمد بن حنبل ﷺ حين رآه في المنام وقال له: يا رب بم يتقرب إليك المتقربون، قال: بكلامي يا أحمد، قال: يا رب بفهم أم بغير فهم، قال تعالى: بفهم وبغير فهم فالمراد من قوله وبغير فهم أن معانيه تأتي إليهم من طريق الكشف لا بواسطة الفكر وهذا هو اللائق بشرح هذا الكلام. وإن كان تالي القرآن له الثواب على كل حال اهـ.

(قلت) وهو كلام غريب فليتأمل، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه، وكان أبو ميسرة رحمه الله تعالى يقول: الغريب هو القرآن في جوف الفاجر، وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: الزبانية إلى حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان أي لكونهم خالفوا ما حملوا، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا قرأ العبد كلام الله ثم تكلم بلغو ثم عاد إلى القرآن قال الله تعالى مالك وكلامي.

(قلت) ومن هنا كان سيدي عليّ الخواص رحمه الله تعالى إذا كان يقرأ ثم كلمه أحد في حاجة يقول بقلبه دستور يا رب أكلم فلانًا ثم يكلمه، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إن حملة القرآن يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يعني يسألون عن العمل بالقرآن أو غيره كاملاً لأنهم مأمورون أن لا يخلوا منه بحكم واحد، وفي الحديث [أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها] وقد أخبرني سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله أنه مكث عشرين سنة يتلوا في النهار ختمًا وفي الليل ختمًا وذلك قبل اجتماعه بشيخه في الطريق سيدي أحمد المرحومي رحمه الله تعالى فلما اجتمع به وأخبره بذلك قال له: ما حصلت شيئًا لأنك كنت تفرح بعدد الختوم ولا تطالب نفسك بالعمل بشيء منه، فقال: نعم، قال: ثم أمرني الشيخ بعد ذلك بالتدبر ومطالبة نفسي بالعمل بكل آية، فما قدرت بعد ذلك على عشر ما كنت أقرأ، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

الوقوف بين يدي الله

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): التهيؤ للوقوف بين يدي الله تعالى في كل صلاة من أول الوقت فكان أحدهم يستشعر عظمة الله تعالى شيئًا فشيئًا من حين وضوئه ومن حين ينادي بحي على الصلاة حتى يصل إلى الحضور مع الله تعالى بحسب مقامه، لا سيما إن كان أحدهم يطالع عما قبل الصلاة أو في خصومة أو نحو ذلك، فإن استجلاب الحضور عليه بعيد إلا إن كان يستعد له من قبل دخول الوقت. وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يستعد للوقوف في الصلاة قبل دخول الوقت بعشر درج، فقلت له يومًا: أنت بحمد الله ليس لك علاقة دنيوية تمنعك من الحضور، فقال: إن لكل إنسان عوائق بحسب مقامه ولولا الحجاب الذي لهم قبل الصلاة لما اصفرت ألوانهم عند القيام إليها، فلابد لكل ولي من حجاب ينكشف له عند القيام إلى الصلاة فيزداد بذلك تعظيمًا لربه عز

وجل، ولولا وجود الحجاب النسبي لما كان الخليل عليه الصلاة والسلام إذا دخل في الصلاة يسمع لجوفه ضجيج من مسيرة ميل، وإنما نقل عن الأكابر زيادة التعظيم لله تعالى في الصلاة، لأنهم يقفون فيها بين يدي الحق عز وجل كما يقف غلام الملك بين يديه ولله المثل الأعلى اهـ.

وفي الحديث [خمس صلوات كتبهن الله تعالى على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة]، وفي الحديث أيضًا [أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن وجدت تامة قبلت منه سائر أعماله، وإن وجدت ناقصة ردت عليه سائر عمله]، وفي الحديث أيضًا [من لم يتم ركوع الصلاة ولا سجودها ولا خشوعها خرجت وهي سوداء مظلمة تقول لصاحبها ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله تعالى لفت كما يلف الثوب وضرب بها وجهه]، وكان سعيد التنوخي رحمه الله تعالى كلما صلى تصير دموعه تتناثر على خده ولحيته، قال: ورأى الحسن البصري رحمه الله تعالى رجل يصلي وهو يعبث بلحيته فسمعه في سجوده يقول: اللهم زوجني في الجنة من الحور العين ما تقر به عيني، فقال له الحسن: يا هذا ما رأيت خاطبًا للحور العين أقل حياء منك تخطب الحور من الله تعالى وأنت تلعب.

وكان مسلم بن يسار إذا دخل في الصلاة لا يدري أي شيء يكون ممن حوله، وكان رحمه الله تعالى يقول لأهله: لا ترفعوا أصواتكم عندي إلا إذا رأيتموني دخلت في الصلاة، فإني إذا كنت فيها لا أسمع شيئًا من كلامكم، وقد سقط جانب المسجد وهو يصلي فوقعت ضجة عظيمة وخرج الناس مسرعين منه وهو لا يعلم بذلك حتى سلم من الصلاة.

وكان أمير المؤمنين علي ﷺ إذا حضرت الصلاة يصفر لونه ويتغير ويقول: إنها أمانة وإنها عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملتها أنا فلا أدري هل أوفي بآدابها أم لا، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: قال داود عليه الصلاة والسلام يا رب من الذي تقبل صلاته وينبغي له أن يدخل بيتك -يعني المسجد- فأوحى الله إليه من تواضع لعظمتي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وأطعم الجائع وآوى الغريب ورحم المصاب، فذلك الذي ينبغي له أن يدخل بيتي وأجيب دعاءه، وكان حاتم الأصم رحمه الله تعالى يقول: ما صليت صلاة قط إلا ورأيت ما أتيت به فيها من سوء الأدب أكثر مما فعلت فيها من الطاعة.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: ركعتان مع حضور القلب خير من ألف ركعة والقلب ساه. وقد كان علي بن عبد الله بن عباس ﷺ يسمى السجاد لكثرة سجوده وكان يقول: إن الخضوع فيه أفضل من الخضوع في الركوع فلذلك كنت أكثر منه، قيل: كان ورده كل يوم ألف ركعة، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يسجد في صلاته على التراب دون الحصير ويقول: إن ذلك أقرب إلى الخضوع بين يدي الله تعالى.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم إذا دخل المسجد ارتعد وتغير من شدة هيبة الله حتى لا يعي شيئا من أمور الدنيا ويذهل عن كل شيء، وقد كان شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى آخر من أدركته من رجال هذا المقام، وكان رحمه الله لا يتجرأ أن يدخل المسجد إلا تبعا للناس، وكان سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى يقول: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه عز وجل وسيأتي على الناس زمان يجلسون في المسجد حلقاً حلقاً حديثهم فيه الدنيا فلا تجالسوهم.

(قلت) هذا في الحديث المباح فما بالك بمن يجلس في المسجد يستغيبون فيه العلماء والصالحين نسأل الله العافية، فاعلم ذلك يا أخي وتخاشع عسى تصير من الخاشعين، والحمد لله رب العالمين.

العمل على كشف الحجاب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): العمل على كشف حجابهم حتى يصير أحدهم يصلي خلف رسول الله ﷺ في قبره الشريف لكما شاء، وكذلك يصلي خلف كل نبي عليهم الصلاة والسلام، لما ورد أنهم عليهم الصلاة والسلام يصلون في قبورهم بأذان وإقامة.

وقد كان سيدي الشيخ أبو العباس المرسي قدس الله سره يصلي الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك عن نفسه، وكذلك كان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى، وقد قال سيدي أبو العباس رحمه الله يوماً لأصحابه: أيكم يجالس رسول الله ﷺ ولا يحتجب عنه في ليل ولا نهار، فقالوا كلهم: ليس منا أحد يقع له ذلك، فقال لهم: ابكوا على قلوب محجوبة عن أسرار الكون الملكوت والله لو احتجب عني رسول الله ﷺ لحظة ما عددت نفسي من المسلمين انتهى.

(قلت) وهو مقام شريف لا يصل إليه السالك إلا بعد مجاوزة مائة ألف حجاب وسبعة وأربعين ألف حجاب وتسعمائة وتسعة وتسعين حجابًا فليس ذلك لكل ولي كما أوضحنا ذلك في كتابنا العهود المحمدية وتقدم أيضًا في أوائل هذا الكتاب، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

مراعاة الأدب

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): مراعاتهم الأدب في الصوم والحج زيادة على آدابهم في القربات الشرعية، وذلك ليحفظ أحدهم من وصول إبليس إليه بالوسوسة من العام إلى العام أو من بعد حجه إلى أن يموت، كما أنه إذا حضر قلبه في صلاة الجمعة يحفظ من إبليس إلى الجمعة الآتية، كما أنه إذا حضرة قلبه في صلاة من الخمس يحفظه من إبليس إلى الصلاة التي بعدها، كما يعرف ذلك من أطلعه الله على أسرار الشريعة ممن يصلون صلاة المأمور بها شرعًا بخلاف من كانت صلاته عادية.

وقد سمعت شخصا مرة يقول لسيدي علي الخواص رحمه الله تعالى أصليتم العصر فسكت الشيخ ولم يجبه لحظة، ثم قال له: لا تعد تقول لي مثل ذلك فتوقعني في الكذب إذ لا تسمى صلاة إلا ما حضر العبد فيها مع ربه عز وجل من أولها إلى آخرها بحيث لا يمر بخاطره فيها إلا حب الله تعالى وكونه بين يديه وما يتلفظ به ويفعله من قراءة وذكر وركوع وسجود ونحو ذلك، فقال الرجل: فماذا أقول لكم إذا أردت أن أسألكم عن مثل ذلك؟ فقال له: قل لي هل قمت وقعدت مع الناس في الوقت أم لا.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم ينـزهون صومهم عن الضحك فيه ويقولون أنه شهر المسابقة إلى الخيرات لا شهر الضحك واللعب والغفلة، وكان الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى يقول: إن شهر الصوم شهر الجوع فمن لم يجع فيه حتى يتغير جلده لا يحصل على طائل من صومه، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من لم يحبس جميع جوارحه عن المعاصي فهو مفطر وإن جاع، ومن حبس جوارحه فهو الصائم حقيقة.

(قلت) والمراد به كالمفطر في نقص الأجر في أحكام الآخرة حين يوفى العامل أجره، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما

أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وتغير وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي من الهيبة فقالوا له: ألا تلبي، فقال: أخشى أن أقول لبيك فيقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فقيل له: لابد من قولك فلما لبى غشي عليه وسقط عن راحلته ولم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه، ولما قبل الحجر الأسود قال: لولا أن رسول الله ﷺ قبلك وكذا أصحابه رضي الله عنهم ما قبلتك.

(قلت) وهذا يفهم أن عدم تقبيل أضرحة المشايخ أولى من تقبيلها لكون النبي ﷺ لم يثبت عنه أنه قبل شيئا من قبور إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا بلغنا أنه ﷺ أقر أحدا على ذلك -يعني على تقبيل قبر أحد من صالحي أمته- فلذلك كان من الأدب التوقف عن تقبيل أضرحة المشايخ وأعتابهم ويجعل بدل ذلك الاقتداء بأخلاقهم، ولما أحرم أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى بالحج لم يقدر أن يلبي حتى سار الركب ميلاً وأخذته كالغشية في المحمل ثم أفاق فقال لأحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالى وكان معه يا أحمد إن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن مر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذلك فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة حتى يسكت عن ذكري، ويحك يا أحمد ما يؤمننا أن الله تعالى يلعننا وقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا غيرنا.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: رأيت شابا محرما ساكتا فقلت له: لما لا تلبي ياغلام، فقال لي: يا شيخ وما تغني عني التلبية وقد سبق مني ذنوب وجرائم وقبائح وفضائح لا تحصى فأخاف إذا أن لبيت أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك، قال مالك فقلت له: يا ولدي إن الله كريم غفور فقال: أو تشير علي بالتلبية، قلت: نعم فوقع جنبه على الأرض وقال لبيك فشهق وخرجت روحه رحمه الله تعالى.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: حج سفيان الثوري رحمه الله تعالى ماشيًا من البصرة فقيل له: أما لك ظهر تركبه، فقال: أما يرضى العبد الآبق أن يأتي إلى مصالحة سيده إلا راكبا، والله إني لفي غاية الخجل من مجيئي إلى تلك الأرض، وقد كان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: رأيت شابا مصفر اللون وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن لك عليّ حقوقًا فتصدق علي بها وإن لعبادك علي حقوقًا فتحملها عني من فضلك، وقد تم فضلك عليّ.

وقد سمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: أدركنا الناس وهم يحجون

على الراحلة من غير محمل ولا مظلة ويقولون المحرم أشعث أغبر، وهذا ينافي ذلك وكان أحدهم إذا أراد الحج يمكث سنين يحصل في الدراهم الحلال التي ينفقها في حجه، وكانوا لا يستعينون في حجهم بشيء من أموال الولاة ولا أعوانهم، والحمد لله رب العالمين.

شدة الحياء

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة الحياء من رؤية الخلق فضلاً عن شدة حيائهم من ربهم سبحانه وتعالى، وفي الحديث [الحياء من الإيمان ولكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء]، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: لكل شيء زينة وزينة الحياء ترك الذنوب، ولكل شيء ثمرة وثمرة الحياء اكتساب الخير، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: ما عاقب الله تعالى قلبًا بأشد من أن يسلب منه الحياء، وكان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يستحيون من الله تعالى أن يسألوه رضاه والجنة وإنما يسألونه العفو والصفح، وقد كان الإمام مالك ﷺ يقول: أول من ضرب الأخبية في سفره أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ قال: إني رجل شديد الحياء من الناس فاستروني من رؤيتهم لي، وكان ﷺ لا يذهب إلى الخلاء إلا وهو مغط رأسه حياء من الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

(قلت) ولذلك جوزي ﷺ باستحياء الملائكة منه دون غيره كما أشار إليه الحديث بقوله ﷺ: [ألا أستحيي ممن تستحي منه ملائكة السماء]، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن عثمان ﷺ كان يفرش للملائكة عليهم الصلاة والسلام رداءه على باب الخلاء ويقول اجلسا هنا حتى أخرج إليكما اهـ، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

التقوى

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): شدة التقوى لله تعالى ورؤيتهم نفوسهم بعد ذلك أنهم غير متقين وحبهم لله ولرسوله ﷺ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول لنفسه: والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك ثم لا يبالي بك، وكان ﷺ يقول: من اتقى الله لم يصنع كل ما تريده نفسه من الشهوات، وفي الحديث [من قيل له اتق الله فغضب أوقف يوم القيامة فلم يبق ملك إلا مر به وعاتبه وقال له أنت الذي قيل لك اتق الله فغضبت] يعني يوبخونه بذلك.

وقد قيل لعمر بن الخطاب ﷺ لا يزال الناس بخير ما دمت فيهم يا أمير المؤمنين، فقال: لا يزال الناس بخير ما أرضوا ربهم، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا قرأ قوله تعالى: [وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ] (١) يقول عاتبهم لحبه إياهم، وكان عروة الرقي رحمه الله يقول: محبة العبد لربه حب القرآن والعمل به وحبه لرسوله ﷺ هو عمله بسنته، وكان مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالى يقول: محبة العبد لربه أن لا يمل من تلاوة كتابه.

وكان سعيد بن جبير رحمه الله تعالى يقول: من علامة محبة العبد لربه كثرة النصب والتعب في عبادته فإن حب الله تعالى لا ينال بالراحة، وكان عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: مررت برجل نائم في الثلج فقلت له: أما تحس بألم البرد فقال: من ذاق طعم محبة الله تعالى لم يجد للبرد ولا للنار ألماً، ومراده المحبة الكاملة بالنسبة لكل مقام، وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يقول: كم ممن يزعم أنه محب لله تعالى والله له يبغض اهـ، فاعلم ذلك يا أخي والحمد لله رب العالمين.

الزهد في الدنيا

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): الزهد في الدنيا وذمهم لكل من طلبها ومبالغة أحدهم في ذلك حتى يصير ينطق بالحكمة، كأنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام، وقد كان رأسهم في الزهد رسول الله ﷺ كان يأتي عليه أربعون ليلة ما يوقد في بيته نار ولا مصباح، فقيل لعائشة رضي الله عنها كيف كنتم تعيشون قالت: بالأسودين التمر والماء، وكانت تقول قبض رسول الله ﷺ في كساء ملبد أي مرقع وإزار عرني غليظ، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: [إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل رجل استظل تحت شجرة ثم راح وتركها]، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى يقول: الزهد ثلاثة أحرف فمعنى الزاي أن تترك زينة الدنيا ومعنى الهاء أن تترك هوى النفس ومعنى الدال أن تترك الدنيا بأسرها، فإذا فعلت ذلك فأنت زاهد، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: الزهد على ثلاثة أصناف فرض ويكون في الحرام، وواجب ويكون في الشبهات، وسنة ويكون في الحلال، قال: ولذلك كان الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الذهب والفضة لأنك تبذلهما في تحصيلها.

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٧.

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: ليس للرجل أن يحمل أهله وعياله على الزهد في الدنيا وإنما عليه أن يدعوهم إليه فإن أجابوه وإلا زهد في نفسه وأتاهم بما يصلحهم، وكان رحمه الله تعالى يقول: ما أشغلك عن ربك من أهل أو مال أو غير ذلك فهو مشتوم عليك.

(قلت) وذلك لأن الله تعالى جعل الموجودات كلها مذكرة للعبد بربه عز وجل وهناك تكون مباركة عليه بخلافها إذا حجبت العبد عن ربه، ومن هنا كان الولد والمال أعظم فتنة للعبد لأنه لا يصح له الإقبال على الله تعالى مع الميل إليهم فافهم، وقد بلغ وكيعا رحمه الله تعالى أن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أكل الطباهيج فعاب ذلك عليه وقال: إن الناس يقتدون بك في أكل الشهوات.

وكان بلال بن سعد رحمه الله تعالى يقول: لو لم يكن لنا إلا رغبتنا بعد أن زهدنا الله فيها لكان في ذلك كفاية من الذنب، وقد كان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: قد سمعنا في الزهد كلاما كثيرا وأحسن ما رأيناه فيه أنه الزهد في كل شيء يشغل عن الله تعالى حتى العلم والعمل.

(قلت) يعني بأن دخل فيهما الرياء والعجب أو حب ثناء الناس أو نحو ذلك وإلا فمن أخلص في علمه وعمله لا يصلح في حقه الزهد في ذلك، لأن الإخلاص فيهما مما يجمع قلب العبد على ربه عز وجل والله أعلم، وقد قال رجل مرة لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالى دلني على زاهد أجلس إليه من العلماء، فقال له: يا هذا تلك ضالة لا توجد، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: الزهد كله تعب نفس فمتى مال صاحبه إلى الراحة في الدنيا فقد رجع عن الزهد حينئذ.

وكان محمد بن سيرين رحمه الله تعالى يقول: قد طلبوا الإمام أبا حنيفة للدنيا فهرب منها وطلبنا نحن الدنيا فهربت منا، فانظروا كم بين الرجلين، وكان يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى يقول: طلبت من الله تعالى ثلاث خصال أن أموت وليس في ملكي درهم ولا عليّ درهم ولا على عظمي لحم، قال: فمات رحمه الله كذلك، وقد أرسل الخليفة مرة بجوائز إلى الفقهاء فقبلوها وأرسل إلى الفضيل بن عياض عشرة آلاف درهم فردها، فقال له أولاده: قد قبل الفقهاء ذلك وهم قدوة الناس فهلا قبلت أنت الآخر، قال: فبكى وقال: ما مثلي ومثلكم إلا كمثل قوم لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت قالوا لبعضهم

اذبحوها قبل أن لا تنتفعوا بجلدها ولحمها، وكذلك أنتم تريدون ذبحي على كبر سني فاصبروا على الجوع خير لكم من أن تذبحوني، فقالوا: ما عندنا شيء نتقوت به اليوم، قال: فأخذ سكينًا وقطع لهم قطعة من بساط بال كان تحته وقال: اشتروا بثمن هذه شيئًا تأكلونه.

وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام من رءوس الزهاد فكان يلبس الشعر ويأكل من ورق الأشجار وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر قوت غد وأي مكان أدركه المساء نام فيه، وقيل له مرة: يا روح الله ألا تتخذ لك حمارًا تركبه، فقال: أنا أكرم على الله من أن يشغلني بخدمة حمار.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول للحواريين: بحق أقول لكم إن أكل نخالة الشعير مخلوطة بالرماد والنوم على المزابل مع الكلاب ولبس المسوح الخشنة لكثير على من يموت، قال: ولم يتخذ له عليه السلام فراشًا ولا مخدة ولا قصعة، وقد وضع مرة لبنة تحت رأسه فجاء جبريل عليه السلام وقال له يا عيسى ركنت إلى الدنيا بعد زهدك فيها وجعلت تحت رأسك مخدة من لبن، قال: فمن ذلك الوقت صار ينام جالسًا إلى أن رفع عليه الصلاة والسلام وكان يقول لبني إسرائيل: عليكم بالماء القراح والبقل البري ونخالة الشعير وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكر نخالة الشعير اهـ.

وقد اشترى أمير المؤمنين علي ﷺ قميصًا بثلاث دراهم وهو إذ ذاك خليفة وقطع كميه من موضع الرسغين ولبسه وقال الحمد لله الذي هذا من رياشه، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا لبس قميص لا ينزعه حتى يخلق، وقيل له مرة ألا تغسل قيمصك، فقال: الأمر أعجل من ذلك.

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لو أن الدنيا كانت بأسرها تحت يدي ما فرحت بها، ولو أن أحدًا أخذها كلها من يدي ما تبعته ولا حزنت عليها، وكان رحمه الله يتقوت من ساقية الماء بمكة، كان له جمل ينقل عليه الماء ويبيعه ويتقوت هو وعياله منه. وكان عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى يقول: من ضبط بطنه ضبط دينه، وقد كانت بلية أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام أكلة واحدة وهي بليتكم إلى يوم القيامة فاعلموا ذلك.

(قلت) المراد بالبلية هنا الاختبار وهو اختبار الحق سبحانه بني آدم هل يصبرون على

ترك شهواتهم أو يقعون فيها وأما اختيار آدم ﷺ فإنما كان صوريا أوقعه الحق تعالى على يديه ليعرف ما يقع من بنيه إذا وجدوا من باب اطلاع رسله على الغيب وليعرفه بما وقع على يديه كيف يتوب بنوه إذا وقعوا فيه، فالخطاب له والحكم لغيره كما أوضحنا ذلك في كتاب الأجوبة عن الأكابر ومن أنطقهم بالحكمة يعني القوم رضي الله عنهم لما أحكموا الزهد في الدنيا قول إبراهيم بن أدهم رحمه الله ليس بعاقل من ارتكب الذنب، ومن قول وهب بن منبه رحمه الله تعالى من قال فيك من الخير ما ليس فيك فلابد أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من ساء به الظن، وقوله: إياكم وما يعتذر منه.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: ما رأيت يقينًا أشبه بالكذب من يقين الناس بالموت مع غفلتهم عنه، وكان الأحنف بن قيس رحمه الله يقول: لا يرجع الشباب بالخضاب ولا الصحة بالدواء، وكان معاوية ﷺ يقول: أنت الزمان فإن صلحت صلح وإن فسدت فسد.

وقد قال معاوية ﷺ مرة لرجل من سبأ: ما كان أجهل قومك حتى ملكوا عليهم امرأة، فقال له الرجل: قومك أجهل فإن الله تعالى لما بعث محمدًا ﷺ قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، هلا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، قال: فسكت معاوية، وفي الحديث [لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء]، وفي الحديث أيضًا [الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له وعليها يسعى من لا يقين له]، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إن الله تعالى جعل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: حب الدنيا يخرج حلاوة الإيمان من القلب، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من ملك الدنيا تعب ومن أحبها صار عبدًا لها قليلها يكفي وكثيرها لا يغني.

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: ليس لطالب دنيا غاية يقف عندها كما أنه ليس لطالب الآخرة غاية، وقد روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: لا

يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب كما أنه لا يستقيم جعل الماء والنار في أناء واحد، وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: من أخذ من الدنيا حلها وأنفقها في مرضاة الله عز وجل فقد أرضى ربه سبحانه وتعالى، وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئا فيأت في طلبك فيأخذك، وقد روى أنه لما مات نوح عليه الصلاة والسلام قال له جبريل عليه الصلاة والسلام يا أطول النبيين عمرًا كيف وجدت الدنيا، قال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: الدنيا عروس ومحبها ماشطتها والزاهد فيها يمزق شعرها ويسود وجهها ويقطع ثيابها ويكسر حليها، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من علامة محبة العبد لربه عز وجل أن يبغض ما أبغضه الله فمن ادعى أنه محب لله وهو يحب الدنيا فهو كاذب في دعواه، لأن الله يبغضها.

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول في دعائه: اللهم يا حابس السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه احبس عن إبراهيم الدنيا، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: كنا معاشر بني آدم نسلاً من نسل الجنة فسبانا إبليس وأخرجنا منها إلى دار الفناء والبوار فلا ينبغي لعاقل أن يفرح ويطمئن إلا بعد عوده إلى الدار التي خرج منها.

وقد دخل جماعة على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فأكثروا من ذم الدنيا عندها فقالت لهم: كفوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: إن الجسم إذا تكامل سقمه لا ينجع فيه طعام ولا شراب وكذلك القلب إذا علق فيه حب الدنيا لا تنجع فيه المواعظ.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فالقها في نحره، والمنافسة المفاخرة، وقد كان كعب الأحبار ﷺ يقول: مرّ عيسى عليه الصلاة والسلام يومًا على رجل نائم فقال له: ألا تقوم يا هذا فتعبد الله عز وجل، فقال الرجل: إني قد عبدته بأفضل العبادة، قال عيسى: وما هي؟ قال: تركت الدنيا لأهلها، فقال له عيسى: صدقت نم فقد فقت العابدين.

وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئا فليصبر على مخالطة الكلاب له، وكان مسلم النحات رحمه الله تعالى يقول: والله لجراب بعر أوقد به تحت التنور أحب إليّ من جراب ذهب اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه إن طلبت النجاة، فقد ورد في الحديث [أن بين أيديكم عقبة كئودا لا ينجو منها إلا المخفون، فقال رجل يا رسول الله أمن المثقلين أنا أم من المخفين،

فقال له النبي ﷺ: أعندك قوت يومك، قال: نعم وقوت غد يا رسول الله، فقال ﷺ: لو كان عندك قوت بعد غد كنت من المثقلين] اهـ. فهذا ميزان الشريعة وأنت أعلم بنفسك، والحمد لله رب العالمين.

الحرفة والصنعة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): تقديمهم عمل الحرفة والصنعة التي تكفهم عن سؤال الناس على سائر نوافلهم وواجباتهم الموسعة، وقد سئل الحسن البصري رحمه الله تعالى عن رجل يحتاج إلى الكسب فلو ذهب لصلاة الجماعة احتاج ذلك النهار إلى سؤال الناس، فقال: يتكسب ويصلي منفردًا، وفي الحديث [أن الله عز وجل علم آدم عليه الصلاة والسلام ألف حرفة وقال: قل لولدك يتعلمون هذه الحرف ويأكلون بها ولا يأكلون بدينهم] وفي الحديث أيضا [إن روح القدس نفث في روعي إن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن الله لا ينال ما عنده بمعصية].

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يقعد أحدكم في المسجد ويترك طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فإن ذلك خلاف السنة، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئًا حتى يعطيني الله تعالى رزقي، فقال: هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبي ﷺ: [جعل الله رزقي تحت ظل سيفي يعني الغنائم].

(قلت) ويشهد لذلك أيضًا حديث الطبراني الذي في الطير وأنها تغدو خماصًا وتروح بطانًا فقد ذكر فيه أنها تغدو في طلب الرزق، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتجرون برًا وبحرًا والقدوة بهم أولى، وقد قال تعالى: [رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ] (١) فسماهم رجالاً لما قاموا في الأسباب ولم يشتغلوا بها عن ذكر الله وهذا هو الكمال، وقد روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر يومًا برجل جالس فقال له: ما تفعل ههنا؟، فقال: أتعبد يا روح الله، قال: فمن يعولك؟ قال: أخي، فقال له: أخوك أعبد منك، وفي الحديث أنهم ذكروا للنبي ﷺ رجلاً وصاروا يثنون عليه خيرًا ويذكرون من عبادته سفرًا فقال ﷺ: [كلكم خير منه] وكان حذيفة رضي الله عنه يقول: خيركم من عمل لآخرته ودنياه.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٧.

وقد كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: إني لأكره أن أرى رجلاً فارغًا من أعمال الدنيا والآخرة، وكان أبو قلابة ﷺ يقول: إذا كان الرجل في معاشه ساعيًا فهو أفضل من الجالس في المسجد، وقد كان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: ليس الشأن أن تصف قدميك للعبادة وغيرك يتعب لك إنما الشأن أن تحوز رغيفك في بيتك ثم تعلقه وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داق دق الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي وليس عنده شيء يأكله فيصير كل داق دق الباب يقول: إن معه رغيفًا، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: عليكم بالحرفة فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاهم من حاجة اهـ. فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه واتبع سلفك، والحمد لله رب العالمين.

حب المساكين

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): حب المساكين والتواضع لهم والنفرة من مجالسة الأغنياء من غير احتقار لهم عملاً بقوله ﷺ: [اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين]، وقد كان سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام مع ما أوتيه من الملك إذا دخل المسجد يجالس المساكين ويقول مسكين جالس مساكين، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يحب أن ينادى يا مسكين ولم يكن أحب إليه إلا هذا الاسم، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: يختبر عقل الرجل بما إذا جلس بجنبه على بساطه مسكين رث الهيئة بغير إذنه فإن تكدر منه فهو ناقص العقل.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: يا رب كيف لي أن أعلم رضاك عني، فأوحى الله تعالى إليه أن انظر رضا المساكين عنك، وروى أن أبا بكر الصديق ﷺ زجر جماعة من أهل الصفة في أمر بلغه عنهم رضي الله عن الجميع فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال له: [لعلك يا أبا بكر أغضبتهم، إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك] قال: فذهب إليهم أبو بكر وتعطف بهم وقال: لعلي أغضبتكم؟ فقالوا: لا ويغفر الله لك يا أبا بكر، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عهما يقول: أتباع الأنبياء في كل زمان الفقراء والمساكين دون الأغنياء والمتكبرين.

وقد كان رسول الله أشد الناس تواضعًا للفقراء وكان إذا جلس عندهم يضع الركبة على الركبة ويقول: إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وفي الحديث [من سره أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار].

(قلت) معنى الحديث كما قاله بعض العلماء أنه يحب وقوف الناس بين يديه وهو جالس كما يفعل الملوك وبعض مشايخ العجم والله أعلم، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: لم يكن أحد أحب إلينا من النبي ﷺ وكنا إذا ورد علينا لا نقوم له لما نعلم من كراهيته لذلك إلا حسان بن ثابت ﷺ كان يقوم له ولا يتمالك الصبر عن ذلك ويقول: لا يليق بمن له دين وعقل أن يراك يا رسول الله ولا يقوم، وكان ﷺ يقره على ذلك.

وقد كان أبو الدرداء ﷺ يقول: لا يزداد عبد يمشي الناس معه إلا بعدًا من الله تعالى، وفي رواية لا يزداد العبد بالمشي خلفه من الله تعالى إلا بعدًا، وقد قيل ليونس بن عبيد رحمه الله تعالى لما انصرف من الموقف بعرفة كيف كان الناس؟ قال: بخير إلا أني كنت فيهم ولولا أن الله تعالى لطف بهم لما أنزل عليهم رحمة بسببي، وكان زياد النميري رحمه الله تعالى يقول: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر، وكان عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى يقول: والله لا أعرف على وجه الأرض الآن رجلاً أشر مني، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يخدم الضيوف بنفسه ويقوم ويصلح المصباح، فإذا قيل له في ذلك يقول: قمت وأنا عمر وجلست وأنا عمر.

وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى إذا دعي إلى وليمة يجلس بين المساكين ويلحس الأواني معهم قال: وثارت ريح حمراء فسألوا عبد الله بن مقاتل رحمه الله تعالى أن يدعو لهم فقال: يا ليتني لا أكون سببًا لهلاككم، قال فرأى بعضهم النبي ﷺ تلك الليلة في منامه وقال له: إن الله تعالى دفع عنكم شر ذلك الريح بدعاء عبد الله بن مقاتل حين هضم نفسه، وقد صلى بشر بن منصور رحمه الله تعالى مرة وأطال فيها وكان ذا خشوع وكان خلفه رجل لم يعلم به فلما سلم من صلاته قال له يا أخي لا يعجبنك ما رأيت مني فإن إبليس قد عبد الله تعالى مع الملائكة آلافًا من السنين ثم صار إلى ما تعلم.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم ينفرون من مجالسة الأغنياء ومن مجالسة كل غافل عن الله تعالى، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لا تدخلوا على هؤلاء الذين يجمعون الدنيا ولا ينفقونها في سبيل الله تعالى، فإن ذلك مسخطة للرب عز وجل، وربما ازدرى أحدكم ما هو فيه من النعم برؤية أمتعتهم، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: كم من عالم يدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وليس معه من دينه شيء والعياذ بالله تعالى.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: التعزز على الأغنياء تواضع وقد كان حذيفة ﷺ يقول: اتقوا الوقوف على أبواب السلاطين فإنها مواضع الفتن، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: ما أنصفنا إخواننا الأغنياء يقول لي أحدهم إني أحبك في الله يا أبا الدرداء، فإذا طلبت من أحدهم شيئًا من الدنيا فارقني وهرب، ويكفينا من الأغنياء في الشرف فرارهم إلينا عند الشدائد وعدم فرارنا نحن إليهم.

وقد كان سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى يتجر في الزيت ويقول: إن في هذا الغنى عن الوقوف على أبواب الأمراء، وكان ميمون بن مهران رحمه الله تعالى يقول: صحبة السلطان خطر عظيم فإنك إن أطعته خاطرت بدينك وإن عصيته خاطرت بنفسك فالسلامة أن لا تعرفه ولا يعرفك، ولما خالط الزهري السلطان كتب إليه مالك بن دينار يقول: عافانا الله يا أخي مما وقعت أنت فيه من الفتن بعد أن كنت شيخًا عالمًا ختمت عمرك بصحبة الظالمين وصرت تحاجج عنهم إذا أنكر أحد عليهم، ولو لم يكن في قربك منهم إلا أنك آنستهم وطردت وحشتهم لكفاك ذلك من الإثم، ثم إن مالكًا هجره إلى أن مات اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وإياك ومجالسة الأغنياء وأبناء الدنيا إلا لضرورة شرعية يسوغ لك معها ذلك، والحمد لله رب العالمين.

المال للإنفاق

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): محبة المال للإنفاق لا للإمساك وتقديمهم الخوف من الحاجة إلى الناس على خوف الحساب من جهة ذلك المال الذي ربما دخلته الشبهة، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لأن أخلف بعدي أربعين ألف دينار أسأل عنها يوم القيامة أحب إلي من أن أقف على باب أحد أسأله حاجتي، وفي حكمة لقمان عليه السلام قال: يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحد إلا وأصابته ثلاث خصال، الأولى: رقة الدين، والثانية: ضعف العقل، والثالثة: ذهاب المروءة وهي أعظمها، وأعظم من هؤلاء الثلاثة استخفاف الناس به.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: حفظك لما في يدك لتقضي به حاجتك أولى من تصدقك به وطلبك لما في يد غيرك فإن العبد لا يزال بخير ما حفظ خصلتين درهمه

لمعاشه ودينه لمعاده، وكان قيس بن عاصم مع شدة زهده وورعه رحمه الله تعالى يقول لبنيه: عليكم بجمع المال الحلال فإنه يسر الصديق ويكمد العدو وتستغنون به عن سؤال الناس لا سيما اللئيم وإياكم وسؤال الناس فإنه كسب العاجزين اهـ.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركنا الناس وهم يبيعون في السوق وعلى أحدهم الزحام من الناس فإذا سمع الأذان للصلاة نهض مسرعًا وترك البيع، وأما أهل زماننا فإن نفق السوق أخروا الصلاة وإن كسد ندموا، وكان أبو قلابة ﷺ يقول: عليكم بملازمة السوق والصنعة فإنكم لن تزالوا كرماء على إخوانكم ما لم تحتاجوا إليهم.

وقد وقف سائل مرة على باب مالك بن دينار رحمه الله تعالى فخرج إليه برغيف فأعطاه له، فقال له: زدني، فأعطاه آخر، فلم يزل يسأل ويستزيد ومالك يعطيه حتى أخرج إليه جميع ما عنده في البيت حتى الأواني والفرش وغير ذلك فقال له: زدني، فقال مالك: والله يا أخي لم يبق عندي شيء إلا أن تأخذني وتبيعني وتقبض ثمني، قال: فتركه السائل وذهب ولم يأخذ شيئًا مما أعطاه له، قال بعضهم: ويقال إنه كان ملكًا جاء ليختبره، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول من رد سائلاً خائبًا لم تغش الملائكة بيته سبعة أيام عقوبة له.

(قلت) ومحل ذلك ما إذا رده مع القدرة وأما العاجز فلا والله أعلم، وقد سئل سحنون رحمه الله تعالى عن الرجل يسأله السائل فيخرج له بصدقته فيجده ذهب فماذا يفعل بتلك الصدقة، فقال: أحب أن يتصدق بها على غيره وإن أعادها إلى ماله فلا بأس اهـ. فاعلم ذلك يا أخي أنفق كل ما دخل في يدك وفضل عن حاجتك ولا تدخر شيئًا إلا على اسم غيرك من العائلة ونحوهم، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الصدقة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الصدقة ليلاً ونهارًا بكل ما فضل عن حاجاتهم بشرط الحل في ذلك كما تقدم مرارًا، فقد ورد في الحديث [ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار]، وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: ترك قبول الشبهات وعدم التصدق بها أولى وهذا الخلق قد كثر تخلق الفقراء به في هذا الزمان، فيأخذ أحدهم في الشبهات ويتصدق بها

ويعمل منها موائد ويطعم الناس تأليفا لقلوبهم أو لتعظم له عليهم الرياسة، وبعضهم يقبل الشبهات على اسم الفقراء ويأكلها وحده وهذا أقبح حالاً من الأول.

وقد حث رسول الله ﷺ على الصدقة وقال: [اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة]، ومعلوم أن الصدقة من الشبهات لا تقي صاحبها من النار، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: قال لي رسول الله ﷺ: [يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا من مرقتها وتعاهدوا الجيران]، وكذلك قال ﷺ لأبي الدرداء ﷺ: يا أبا الدرداء إذا صنعت طعاماً فأكثر المرق وتعاهد جيرانك، وقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بسبعين ألف درهم وإن درعها لمرقع.

وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: لا يتصدق أحدكم إلا بما يشتهيه فإن الله تبارك وتعالى يقول: [وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ] (١) اي وهم ويشتهونه، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا فلعلهم يعودون على أولي الحاجة منا، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: تصدقوا فإنه بلغنا أن الصلاة تبلغ العبد نصف الطريق والصوم يبلغه باب الملك والصدقة تدخله على الملك، وفي الحديث [إن عابداً عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله بها ثم نزل يغتسل فمر به مسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمله]، وفي الحديث أيضا [باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتجاوزها] وقد كان الصحابة ﷺ لا يخرجون لصلاة الصبح إلا بشيء يتصدقون به على أول مسكين يلقونه ولو بلقمة أو بصلة أو زبيبة.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: ما أعرف حبة توزن بجبال الدنيا إلا حبة الصدقة، وكان ابراهيم النخعي رحمه الله تعالى يقول: تصدقوا بالسليم فإنه لا ينبغي أن يكون فيما يخرجه المرء لله تعالى عيب أو نقص، وقد سئل الإمام مالك ﷺ عن شرب الأغنياء من الماء الذي يسبل في المسجد، فقال: لا بأس به لأنه إنما جعل للعطشان كائنا ما كان ولم يرد صاحبه تخصيص أهل الحاجة به.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: اكتسبوا من الحلال وتصدقوا منه فإن رسول الله ﷺ قال: [من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله به أن يدخله النار] اهـ. وفي الحديث [من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً او تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع له ذلك جميعًا ثم قذف به في نار جهنم]، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: إنكم

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

لتغفلون عن الورع وهو أفضل العبادة، وقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ما تقبل الله تعالى ذلك منكم إلا بورع حاجز، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: ما أدرك من أدرك من القوم إلا لكونه يعقل ما يدخل جوفه -يعني رغيفه- من الحلال.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: من عرف كل ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقًا ومن لم يصحبه الورع في فقره أكل الحرام المحض ولا يشعر، وكان بشر الحافي رحمه الله تعالى يقول: الورع هو ترك التأويل وترك الأخذ بالرخص عند الضرورات، وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: لو أنا نجد درهمًا من حلال لكنا نشتري به قمحًا نطحنه ونحوزه عندنا فكل من عجز الأطباء عن مداواته داويناه به فخلص من مرضه لوقته، وكان مسعر بن كدام ﷺ يقول: لا أعلم اليوم في زماننا هذا حلالاً إلا ما يشربه الرجل من النهر بكفه.

وكان عبد الله بن عباس رضيَ الله عنهما يقول: كسب الحلال أشد من نقل جبل إلى جبل، وكان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى يقول: لو أقام أحدكم حتى صار مثل هذه السارية ما تقبل الله منه ذلك حتى يعلم ما يدخل في جوفه، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: من تصدق من حرام أو أنفقه في طاعة فهو كمن يطهر ثوبه بالبول، وكان يقول لا تكفر الصدقة شيئًا من الذنوب إلا إن كانت من حلال، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: لا يقبل الله صلاة أحدكم وفي جوفه شيء من الحرام.

وقد أقام إبراهيم بالشام أربعًا وعشرين سنة لأجل طلب القوت الحلال ولم يقم لجهاد ولا غيره، وكانت إقامته في جبل لبنان فكان يأكل من فواكهه المباحة التي لم تدخل في ملك أحد من الخلق رحمه الله تعالى، وكان بشر الحافي يقول: بلغنا أن معبدًا رحمه الله تعالى ترب مرة كتابًا من حائط جاره بغير إذنه فرأى تلك الليلة في منامه قائلاً يقول له: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غدًا من سوء الحساب، وقد كان السلف يسافرون لتعلم الورع كما يسافرون لطلب العلم والحج رضي الله عنهم، فاعلم ذلك يا أخي ودقق في الورع وهيهات أن تصل إلى شبهات السلف الصالح، والحمد لله رب العالمين.

عدم حب الرياسة

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): عدم حبهم للرياسة في شيء من أمور الدنيا لما فيها من كثرة الآفات، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: ما أحب أحد الرياسة على الناس إلا أحب ذكر عيوب الناس ونقائصهم وكره ذكرهم بخير لتتم له الرياسة عليهم، وكان محل ذلك فيمن طلب الرياسة بغير حق أما الطالب بالله فلا، وكان يقول: من أحب الرياسة على الناس لم يرتفع أبدًا.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: من طلب الرياسة قبل حينها فرت منه ومن تركها تبعته، وكان يحيى بن الحسين ﷺ يقول: سمعت سفيان الثوري يقول: من طلب الرياسة قبل وقتها فاته علم كثير، وتقدم بسط الكلام على الرياسة في هذا الكتاب فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

السرور بالفقر

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): سرورهم بالفقر وضيق المعيشة وغمهم بالغنى إذا أقبل وهذا الخلق لا يوجد اليوم إلا في بعض أفراد من الفقراء الذين صدقوا في محبة رسول الله ﷺ، وقد أدركت بحمد الله تعالى جماعة من أشياخ مصر كانوا رضي الله عنهم ينشرحون للفقر وضيق المعيشة ويكثرون من الحمد والشكر على ذلك، منهم شيخنا سيدي علي الخواص وسيدي الشيخ محمد بن عنان وسيدي الشيخ محمد المنير والشيخ محمد العدل وغيرهم، ولهذا الخلق لذة عظيمة أشد من لذة الغنى كما ذقنا ذلك ولله الحمد، ولكن لا تحصل تلك اللذة إلا لمن كمل زهده في الدنيا كما تقدم بسطه مرارًا.

وقد كان رسول الله ﷺ رأس الزاهدين وكان يقول: [اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا] وفي رواية [كفافًا] وهو الذي لا يفضل عن غدائهم ولا عشائهم شيء منه، وفي الحديث [من أصبح آمنًا في سربه -أي نفسه- معافى في جسمه عنده قوت يومه فكأنه حيزت له الدنيا بحذافيرها]، وقد قيل مرة لمحمد بن واسع رحمه الله ألا تأتي السلطان فتسأله شيئًا تأكله فإنا نخاف عليك أن تموت مهزولاً، فقال: لأن ألقى الله تعالى مهزولاً خير لي من أن ألقاه منافقًا سمينًا، وقيل مرة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى بم نلت هذه الحكمة التي نراك تنطق بها؟ فقال: ببدن عار وقلب خائف وبطن جائع، وفي رواية نلتها بقلة الأكل وقلة النوم وقلة

الكلام وعدم ادخار شيء لغد، وقد سئل ذو النون المصري رحمه الله تعالى من أقرب الناس إلى الوقوع في الكفر؟ فقال: شخص ذو فاقة وعيال ولا صبر له.

(قلت) ووقع مثل هذا في الكفر يكون بالألفاظ التي ظاهرها السخط على مقدور الله تعالى والله أعلم، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: صاحب الدرهمين أشد حبًا للدنيا من صاحب الدرهم الواحد، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: إن افتقر أحدكم فلا يجعل فقره بينه وبين الناس وليجعله فيما بينه وبين الله لئلا يهون في أعين الناس، ولو كشف الله الحجاب عن قلب العبد إذا ضيق عليه المعيشة ورأى ما أعد الله تعالى له في الجنة لسأله أن يزيده من الضيق في الدنيا.

وقد جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها منه وقال له: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بدراهمك هذه وتحبسني عن دخول الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، اذهب عافاك الله تعالى، وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى إذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل ذنب عجلت لي عقوبته، وكان أبو هريرة ﷺ يقول: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلقة يلبسها ورجل على مستوقده قدرين ورجل طلب شرابه فلا يقال له أيهما تريد.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: رأيت في منامي محمد بن واسع ويوسف بن أسباط رحمهما الله واقفين على باب الجنة فنظرت أيهما يدخل أولاً فإذا هو يوسف بن أسباط فقلت للملك كان هناك لم دخل هذا قبل هذا، فقال: لأنه كان له قميص واحد وكان لهذا قميصان اهـ.

وقد وقع مرة حريق بالبصرة فخرج الناس بما لهم من الأمتعة وخرج مالك بن دينار رحمه الله ومصحفه معلق في عنقه وقال هكذا نخرج من قبورنا غدًا، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: من أكرم الغني وأهان الفقير فهو معلون فإن حب الفقراء من أخلاق المرسلين والفرار من صحبتهم من صفات المنافقين، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: كان الفقراء في مجلس سفيان الثوري رحمه الله تعالى كالأمراء، وقد جاء مرة رجل فقير فجلس بعيدًا عنه فقال له تقرب يا أخي لو كنت غنيًا ما قربتك، وكان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: من خاف من الفقر لم يرفع له عمل إلى السماء لأنه ما خاف الفقر إلا لتهمته لربه عز وجل والمتهم لله عدو الله.

وفي الحديث [جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله]، وفي الحديث [لا تميتوا القلب بالطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء]، في الحديث أيضًا [أذيبوا طعامكم بذكر الله] وفي رواية [والصلاة ولا تناموا عليه] يعني من غير ذكر فتقسو قلوبكم، وفي الحديث [شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة].

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إياكم والبطنة فإنها نقل في الحياة ونتن في الممات، وكان شقيق البلخي رحمه الله تعالى يقول: آلة العبادة الجوع فإن المعدة إذا امتلأت قعدت الأعضاء عن العبادة، وكان فتح الموصلي رحمه الله إذا اشتد به المرض والجوع يفرح بذلك ويكثر من الشكر، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: قلت لمحمد بن واسع رحمه الله طوبى لمن كان له قوت يغنيه عن الناس، فقال لي: طوبى لمن أصبح جائعًا وأمسى جائعًا وهو راض عن ربه عز وجل ثم أخرج خبزًا يابسًا فبله بالماء وأكله بالملح وقال: من رضى من الدنيا بهذا فلا يحتاج إلى الناس اهـ. فاعلم ذلك يا أخي واقتد بسلفك الصالح، والحمد لله رب العالمين.

كثرة الحزن

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة الحزن على تفريطهم في جنب الله لا سيما عند رؤيتهم القبور وتذكرهم أهوال يوم القيامة وخوفهم من الفتنة ماداموا في هذه الدار، وفي الحديث [لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر] اهـ. فخاف القوم أن يدركوا ذلك الزمان فلا يصح لهم فيه صبر ويقع منهم سخط فيهلكوا، قال: ولما رأى رسول الله ﷺ قبر أمه بكى، فقيل له في ذلك فقال: أخذني ما يأخذ الولد من الرقة. وكان ﷺ قد استأذن ربه أن يستغفر لها فلم يأذن له.

(قلت) قد نقل الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى وغيره عن الحفاظ إحياء أبوي النبي ﷺ حتى آمنا به ثم رجعا إلى القبر، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ إذا مر بقبر بكى حتى يبل لحيته، وقد مر عمرو بن العاص ﷺ يومًا على مقبرة فنزل وصلى ركعتين قريبًا من القبور فسئل عن ذلك فقال: إني رأيتهم قد حيل بينهم وبين الصلاة فأحببت أن أتقرب بينهم بركعتين استغنامًا للعمر.

وقد كان مجاهد رحمه الله تعالى يقول: أول من يكلم الميت حفرته فتقول له: أنا بيت الغربة أنا بيت الظلمة أنا بيت الدود هذا ما أعددته لك فأين ما أعددت لي، وقد كان

الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: لما مات هرم بن حبان ﷺ جاءت سحابة فظللت على سريره فلما واريناه رشت على قبره حتى ساح الماء ولم ينـزل على ما حول قبره قطرة.

وكان أبو ذر ﷺ يقول: ألا أخبركم بيوم فقري يوم أضع في قبري، وكان أبو الدرداء ﷺ يقعد بين القبور كثيراً فسئل عن ذلك فقال: إنهم يذكروني معادي وإذا قمت وفارقتهم لم يغتابوني، وكان جعفر بن محمد رضي الله عنهما يأتي المقابر ويناديهم فلا يجيبونه فيقول لنفسه: يا جعفر كأنك قد صرت مثلهم لا تجيب المنادي ثم يصف قدميه للصلاة فلا يزال كذلك إلى الفجر، وفي الحديث «ما من ليلة إلا ومناد ينادي يا أهل القبور من تغبطون اليوم، فيقولون نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله تعالى ولا نذكره»، وكان عطاء السلمي رحمه الله تعالى إذا جنه الليل يخرج إلى المقابر فلا يزال يناجيهم إلى الفجر.

وكان أحمد بن حرب رحمه الله تعالى يقول: إن الأرض لتعجب من رجل يمهد فراشه للنوم في دار الدنيا وتقول له: ألا تذكر طول رقادك في بطني من غير أن يكون بيني وبينك فراش، وكان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: دخلت المقابر فلما أردت أن أخرج منها إذا أنا بصوت حزين يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها. وقد وقف محمد بن سليمان على قبر ابنه رحمهما الله تعالى وقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخاف عليه كما أخاف على نفسي فحقق رجائي فيك يا أرحم الراحمين اهـ.

وقد وقف أبو سنان على قبل ولده رحمهما الله تعالى فقال: اللهم إني قد عفوت عنه وغفرت له ما وجب لي عليه فأسألك أن تغفر له ما وجب لك عليه يا كريم، وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: رأيت محمد بن يسار بعد موته رحمه الله تعالى فقلت له: ماذا فعل الله تعالى بك؟ فدمعت عيناه وقال: رأيت والله أهوالاً وزلازل عظامًا شداداً ثم خر مالك مغشيًا عليه وكان يقع له ذلك كلما حكى هذه الحكاية، ثم حكاها يومًا فغشى عليه ومرض ثم مات بعد ثلاثة أيام رحمها الله تعالى.

ولما مات منصور بن عمار رحمه الله تعالى رآه بعض أصحابه في المنام فسأله عن حاله وما فعل الله تعالى به؟ فقال: قال لي عز وجل يا منصور قد غفرت لك على تخليط كثير كان منك، لأنك كنت تحرض الناس على كثرة ذكري.

وقد كان الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى لا يزال يذكر أهوال يوم القيامة ويقول

لأصحابه اجعلوا الأهوال التي بين أيديكم على بالكم لعل أن تتوبوا عن المعاصي قبل موتكم، فإنه ما من أحد يعصى ربه عز وجل إلا وهو ناس للحساب ومقاساة الأهوال واني أحذركم وأحذر نفسي من يوم آلى الله فيه على نفسه ان لا يترك عبدًا حتى يسأله عن عمله كله دقيقه وجليله سره وعلانيته، فانظروا بأي بدن تقفون بين يديه مع هول ذلك الموقف، وبأي لسان تجيبون فأعدوا للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: كم من فضيحة يكشفها الحساب غدًا، وكان أبي بن كعب ﷺ يقول: يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام على صورة الجاموس يقود كل زمام منها سبعون ألف ملك مغلقة أبوابها عليها ملائكة سود معهم السلاسل الطوال والأنكال الثقال وسرابيل القطران ومقطعات النيران لأعينهم لمعان كلمع البرق الخاطف ولوجوههم لهب كالنار شاخصة أبصارهم لا ينظرون إلى ذي العرش جل جلاله تعظيمًا له، فإذا دنت النار وكان بينها وبين الخلائق خمسمائة عام زفرت زفرة فلا يبقى أحد إلا جثا على ركبتيه واخذته الرعدة فصار قلبه معلقًا إلى حنجرته لا يخرج ولا يرجع إلى مكانه، وذلك قول الله تعالى: [إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ] (١) وينادي ابراهيم الخليل وغيره من الأنبياء اللهم لا تهلك عبادك بخطيئتنا ثم توضع النار عن يسار العرش ثم يؤتى بالميزان فيوضع بين يدي الجبار جل جلاله ثم يدعى الخلائق للحساب، فلو أن للرجل مثل عمل سبعين نبيًا ما ظن أنه ينجو من شدة ذلك اليوم، ومكث عتبة الغلام يأكل الخبز بالماء ثلاثين سنة وكان يأتدم في بعض الأحيان بالملح أو البقل أو الخل، وكان يعجن عجينه ويقرصه في الشمس فإذا جمد أكله ويقول المراد بالأكل أن يرد عني كلب الجوع.

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: جوع الصديقين كرامة لهم وجوع الزاهدين جوع حكمة، وكان أبو سليمان الداراني يقول: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا لمن أحب، وكان يقول: أحلى ما تكون العبادة لي إذا لصق بطني على ظهري، وكان يقول: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليّ من قيام ليلة إلى الصباح.

وكان وهب بن منبه ﷺ يقول: التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين أتيت فقال أمرت بسوق حوت في البحر إلى فلان اليهودي ليأكله فقال الآخر: من أين جئت؟ قال: أريق زيتا اشتهاه محمد العابد خوفًا أن يأكله فينقص من حظه في الآخرة، وفي الحديث [طوبى من هدى للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع] ورأى بعض الملوك فقيرًا جلس

---

(١) سورة غافر: الآية ١٨.

في ظل قصره فأكل كسرة يابسة بلها بالماء ثم شرب ونام، فلما استيقظ طلبه السلطان وقال: لما أكلت الكسرة وشربت الماء عليها ونمت كنت راضيًا عن ربك، فقال: نعم، فدارت الكلمة فيه ثم خرج من ملكه ولبس المسوح وخرج سائحًا.

ومر رجل بعامر بن قيس وهو يأكل ملحًا وبقلاً فقال له: يا قيس رضيت من الدنيا بهذا، فقال: نعم ولكن أدلك على من رضي بأيسر من هذا، فقال: نعم، فقال: من رضي بالدنيا عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع يخرج خبزًا يابسًا ويبله بالماء والملح ويأكله ويقول من رضي من الدنيا بهذا لا يحتاج إلى الناس، ودق هارون الرشيد باب الفضيل بن عياض بمكة لما حج هارون فلم يفتح له، فقال جعفر البرمكي افتح لرجل يجب عليك طاعته، فعلم الفضيل أنه الرشيد ففتح له فتحادثا طويلاً ثم أمر له بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها الفضيل فقال له: فرقها على المساكين، فقال: من جمعها فهو أحق بتفرقتها ثم غافله وهرب وترك الرشيد في البيت، فما ظهر الفضيل حتى خرج الرشيد من مكة، وتقدم قول سفيان الثوري تعففوا عن الأكل من أطعمة الناس جهدكم فإنه ما وضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له اهـ.

وكان يزيد الرقاشي إذا وقع بصره على قبر يصرخ كما يصرخ الثور، وكان حاتم الأصم يقول: من مر بالمقابر ولم يتفكر في نفسه ولم يدع لنفسه ولهم فقد خان نفسه وخانهم، وكان كرز بن وبرة إذا رأى قبرًا بكى وقال: ليت أمي كانت عقيما فإن ولدها في القبر حبسًا طويلاً ومن بعد ذلك أهوالاً عظامًا يشيب منها الأطفال.

وكان الحسن بن صالح إذا رأى القبور يقول: ما أحسن ظواهركم وإنما الدواهي في بواطنكم، وكان شقيق البلخي يقول: القبر روضة من رياض الجنة على من كان يذكر، وحفرة من حفر النار على من نسيه، وحفر الربيع بن خيثم قبرًا في داره فكان كلما وجد في قلبه قساوة ينزل فيه ويتفكر في أمره وما يلاقيه من أهوال يوم القيامة فلا يزال كذلك حتى يصبح، ونزل فيه مرة وصار يردد قوله تعالى: [قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا] [١] ثم قال: يا ربيع قد ارتجعناك وها أنت في الدنيا فقم للصلاة فيقوم، وخرج الحسن البصري في جنازة امرأة الفرزدق الشاعر فقال الحسن للفرزدق ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: أعددت له شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله منذ ستين سنة، فقال: أفلحت يا فرزدق إن مت عليها.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٩٩، ١٠٠.

وجاء حوشب بن مالك إلى مالك بن دينار فقال: إني رأيت البارحة كأن مناديًا ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل فما رأيت أحدًا ارتحل سريعًا سوى محمد بن واسع فصاح مالك صيحة وخر مغشيًا عليه، وكان سفيان بن عيينة يقول: مات أخ لي فرأيته بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي كل ذنب استغفرته منه وما لم استغفره منّه لم يغفره لي.

وكان صالح بن بشر يقول رأيت عطاء السلمي بعد موته فقلت له: يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن في دار الدنيا فما فعل الله بك؟ فقال: أعقبني ذلك الحزن راحة طويلة وفرحًا شديدًا، قال: ورأيت الفضيل بن عياض بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم أر شيئًا أفضل من تأدية الفرائض فعليكم بها.

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: إني لأود أن حسناتي تفضل على سيئاتي ولو مثقال ذرة ولو أنهم أوقفوني بين الجنة والنار وقالوا لي: تمن ما تريد لتمنيت أن أكون ترابًا، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لو أني خيرت بين أن أبعث وأحاسب ثم أدخل الجنة بعد ذلك لاخترت أن لا أبعث، وكان أبو ذر ﷺ يقول: إن خوف الحساب لم يترك على بدني لحمًا، وقد كان أبو هريرة ﷺ يقول: إذا سيق العصاة إلى جهنم وهم عطاش فأول ما يتحفون في النار بسم العقارب والحيات فتنوب أبدانهم والعياذ بالله تعالى، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول في قوله تعالى: [لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ] (١) إنه الشوك اليابس الذي يقف في حلوقهم، وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى يقول: يرسل الله تعالى على العصاة البكاء فلو أن السفن اجريت في دموعهم لجرت، وقد تقدم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: كم من وجيه صبيح ولسان فصيح بين أطباق الثرى يصيح انتهى، وأقاويل السلف في الخوف كثيرة والحمد لله رب العالمين.

تربية المريدين

(ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم): كثرة استشهادهم في تربية المريدين بما أدب الله تعالى به عباده المقربين من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والصلحاء رضي الله عنهم في الكتب السالفة، وذلك ليعلم المريدون أن تقوى الله تعالى لم يزل

(١) سورة الغاشية: الآية ٦.

مأمورا بها في كل شريعة، وقد كان شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى أكثر استشهاده لشريعتنا بما في الزبور من القوارع والزواجر وكثيرًا ما يخاطب الله تعالى فيه نبيه داود عليه الصلاة والسلام والمراد بذلك غيره نظير ذلك قوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: [لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ] (١)، و[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ] (٢) ونحو ذلك.

فكان الشيخ رحمه الله تعالى يقول لنا: إياكم أن تجالسوا المغتابين أو تصاحبوا النمامين فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود طوبى لمن لا يقف في مواقف الخطائين ولا يجلس في مجالس المستهزئين ولا يجالس المغتابين ولا يصاحب النمامين، يا داود من ذكر عيوب الناس أو هم أن يذكر عيوبهم فضحته على رءوس الأشهاد يوم القيامة، يا داود من غض طرفه وصان فرجه وحفظ لسانه فهو عندي من المقربين، وقد سمعته رحمه الله تعالى يقول لبعض العلماء يا أخي عليك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ذلك من زكاة العلم.

فقد أوحى الله تعالى إلى داودّ عليه الصلاة والسلام يا داود إذا ترك العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذهبت الهيبة منهم وصارت في السفهاء والأشرار، طوبى للمنفردين من الناس الصامتين عن عيوبهم، طوبى لمن ترك فراشه في الليل وقام يناجيني في شدة البرد والناس نائمون تحت لحفهم، طوبى لقوم عظموني ولم ينظروا إلى الفروج الحرام خوفًا مني، يا داود أهون ما أنا صانع بالزناة أن أذهب بهجة النضارة من وجوههم وأمحق بركة عمرهم. يا داود قل لبني إسرائيل تغفلون عني والأقلام جارية لا تغفل، وقل للذين أغلقوا أبوابهم وأرخوا ستورهم عند المعاصي إني لو شئت أهلكتهم وخسفت بهم الأرض، يا داود قل لبني إسرائيل يخافوني ألبس وجوههم الهيبة والقبول، وأجعل عدوهم تحت قدمهم كالكبش تحت السكين، يا داود علامة من أحببته أن يقل كلامه ويكثر استغفاره، يا داود غض طرفك عن حرم المؤمنين تأتك الدنيا وهي راغمة. يا داود قد أحاط شخصي بالزناة الذين يفسدون حرم المؤمنين، يا داود قل لبني إسرائيل لا يعصوني سرًا ويجعلوني في أعينهم أهون من عبادي فإني أعذبهم بالنار.

(وقد سمعته) رحمه الله تعالى كثيرًا يقول: ربما كانت النعم على العبيد استدراجًا لهم فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل للعقلاء يخافون مني إذا

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١.

ترادفت عليهم نعمتي ويكثرون من النوح كلما زادت عليهم النعم، فإن ذلك استدراج لهم ولو إني احببتهم لجردتهم عن الدنيا، يا داود كن لليتيم كالأب الشفيق اكثر رزقك وأكفر ذنبك، يا داود ما عظمني من عصاني، يا داود إذا مرت بك امرأة جميلة فاذكر عرضك علي يوم القيامة، يا داود من لقيني وهو يراعي غيري سقط من رعايتي، يا داود غض طرفك وصن لسانك فإني لا أحب الفاسقين، يا داود قل لبني إسرائيل لا يقعوا في أعراض الناس فإن الوقيعة فيهم تزيد القلب عمى وموتا، وطوبى لمن نظر في عيب نفسه فأصلحه، يا داود انقطع إليّ أنكس لك رءوس الملوك وألبس وجهك المهابة، يا داود طهر ثيابك الباطنة فإن الظاهرة لا تنفعك عندي.

(وقد سمعته) رحمه الله يقول لتاجر تحولت عنه الدنيا أبشر بخير فإن الله تعالى قد أحبك فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود لا تقوم الساعة حتى يذل الأشراف ترتفع الأذلة ويهجر كتابي فلا يتلى ويكثر فيه رزق العاصي والفاجر ويقل فيه رزق المؤمن الطائع الفاضل، فإذا صار الأمر إلى ذلك حببت الدنيا إلى أهل ذلك الزمان ومنعتهم من محبة الآخرة، فإذا فعلوا ذلك سلطت عليهم سيف النقمة وأعليت أسعارهم وجعلت الصغير لا يوقر الكبير وابتليتهم بالفسق والفجور وذلك جزاؤهم عندي، يا داود كم من لسان فصيح أخرسته عن نطق بالشهادة عند الموت لكثرة وقيعته في الناس، يا داود قل لبني إسرائيل إن لم تهجروا أباكم وأخاكم وولدكم من أجلي فلا أقبل لكم صلاة، يا داود قل لبني إسرائيل يردوا التبعات التي عليهم قبل الموت فإني أقسمت على نفسي أن أبعث صاحب التبعات وفي عنقه طوق من نار يكويه بكل تبعة كية، يا داود ليس كل من صلى قبلت صلاته ولا كل من عبد رفعت عبادته.

وقد سمعته رحمه الله تعالى يقول لبعض الإخوان عليك يا ولدي بتقوى الله وإياك أن تعصي ربك عز وجل وتقول ربنا غفور رحيم، فإن ذلك من تسويلات النفس وكيد ابليس، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل لبني إسرائيل كم من ليلة جاهرتموني بالمعاصي ثم أصبحتم تخادعوني بالاستغفار من غير إقلاع عنها كأنكم تعاملون من يغيب عن مكركم وخداعكم، يا داود قل لبني إسرائيل صونوا أحداقكم فكم من ناظر نظر إلى أخيه وهو في فاحشة فأشاعها عنه، وقد أتى هو أكبر منها ولم أفضحه ولو شئت لفضحته، يا داود من طلب العلم لغير وجهي أدخلته النار، يا داود من عمل بالمعاصي وسترها عن المخلوقين هل يقدر على سترها مني، يا داود طوبى للذين يستحيون

مني أن يعصوني في الخلوات، يا داود اصحب النواحين واترك البطالين وقل لعصاة بني إسرائيل كيف تستحيون من عبادي دوني وجلالي لكم أظهر من جلالتهم لأني سيدهم.

(وقد سمعته) رحمه الله تعالى مرة أخرى يقول لشخص لا يعيش له ولد قل الحمد لله الذي لم يشغلني بأهل ولا ولد، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود لا تطلب الأولاد فليس كل الأولاد ينفع، رب ولد أشغل والده عن ربه وأشعل عليه قبره نارًا، يا داود قل لبني إسرائيل إذا أردتم المعصية فاذكروا صولة الزبانية وضيق الأغلال في طباق النيران، يا داود لو اطلع عبادي على غضبي عليهم إذا عصوني لماتوا ولكني اختبأت عنهم غضبي رحمة بهم، يا داود ضع خدك على التراب وناجني، يا داود أبوك آدم من أكرم الناس عليّ لم يمس فرجه الحرام ولم يقتل نفسًا وإنما نهيته عن الأكل من الشجرة فأكل منها ناسيًا فتطايرت الحلل من على بدنه وسقط التاج من على راسه وأوقفته موقف الندم، فكيف بمن مس فرجه حرام وقتل نفسًا سبحاني ما أرأفني بكم أيها الخلق وما أقل حياءكم مني، تعصوني وعيني ترعاكم ولو أن أحدًا من عبادي رآكم لذبتم حياء منه وأنا أولى بالحياء، يا داود مالي أراك مطمئنًا لا تبكي مع الباكين ولا تنوح مع النائحين فلو رأيت النارو زبانيتها وما أعددت للزناة فيها لذبت كما يذوب الرصاص في النار، يا داود لخدمتك على وجهك في الثلج أهون عليك من مناقشتي لك في الحساب، وعزتي وجلالي لأوقفن الخصوم وأسأل أحدهم عن وزن الخردلة، يا داود قل لبني إسرائيل ترمقون وتزنون بأعينكم كأنكم تظنون أني لا أراكم، يا داود من عصاني في الخلوات أطلعت المخلوقين على مساوئ أعماله وفضحته وأدخلته النار.

انتهى ما سمعته من مواعظ الزبور وقد جمعت مواعظها كلها في جزء فاطلبه والحمد لله رب العالمين. وليكن ذلك آخر كتاب [تنبيه المغترين] أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لما شرعت في خطبة الكتاب كنت في حصر عظيم من عدم وجود المواد التي أستمد منها في الكتاب فدخل علي شخص بكتاب عتيق مخروم من الأول بخط كوفي تاريخ كتابته خمسمائة سنة وشيء فوجدته مشحونا بأحوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ورأيت مؤلفه يروي عن وكيع بن الجراح من أقران الإمام مالك ﷺ ففرحت بذلك أشد الفرح فشيدت به أخلاق هذا الكتاب، وكأن من يطالعه صحب الصحابة والتابعين وتابع التابعين ورأى أقوالهم وأفعالهم وورعهم وزهدهم وخوفهم وخشيتهم رضي الله عنهم أجمعين، وقد

ذكرنا في خطبته أن من طالعه بإنصاف رأى نفسه قد انسلخت من أخلاق القوم كما تنسلخ الحية من ثوبها، فنسأل الله تعالى من فضله أن ينفع به الإخوان ومن بعدهم ويختم لنا ولهم بالحسنى وأن يجعل آخر كلامنا من هذه الدار شهادة أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . قال مؤلفه - عفى الله عنه - العبد الفقير إلى الله تعالى. عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي. خادم الفقراء والمساكين. إنه ألف في سابع من شهر رمضان المعظم قدره. سنة أحدى وستين وسبعمائة بمصر المحروسة. حامدًا لربه، مصليا على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين.



فهرس كتاب تنبيه المغترين

الموضوع	الصفحة
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: كثرة الخوف من الله تعالى إذا ذكروا أهوال يوم القيامة	٤١
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: انخلاع قلوبهم من أجسامهم في كل مرضة يمرضونها	٤٢
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: كثرة الاعتبار والبكاء والاهتمام بأمر الموت إذا رأوا جنازة	٤٦
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: كثرة الحزن والهم كلما تذكروا الموت وسكراته خوف سوء الخاتمة	٤٧
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: النظر إلى الدنيا بعين الاعتبار لا بعين المحبة لها وشهواتها	٤٩
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: تحذيرهم للناس أن يتبعوهم على أفعالهم الرديئة نصحًا للعباد	٥٠
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: رؤيتهم أنفسهم من أفسق الناس	٥٢
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: كثرة العفو	٥٣
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم :كثرة تعظيمهم حرمة المسلمين	٥٤
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: الصبر على أذى زوجاتهم وشهودهم أن كل ما بدا من زوجة	٥٤
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: ترك طلب الرياسة ونصح بعضهم لبعض	٥٦
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: حسن أدبهم مع الصغير فضلاً عن الكبير ومع البعيد.	٥٨
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: شدة خوفهم من الله تعالى أن يختم لهم بسوء	٦٠
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: مواظبتهم على قيام الليل صيفًا وشتاء	٦٤

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ومن اخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: استحياؤهم من كثرة ترددهم إلى الخلاء	١٠١
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: تقديمهم السلامة على الغنيمة	١٠٢
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: إذا رأوا شخصًا انقطع عن الناس في الجبل	١٠٤
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: عدم اهتمامهم بأمر الرزق	١٠٤
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: اختيارهم شدة البلاء على النعمة والرخاء	١٠٦
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: إذا سألهم أحد في حاجة	١٠٧
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: انشراح صدورهم	١٠٧
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: شدة الفرح في الدنيا كلما حيل بينهم وبين الوصول إلى شهواتهم	١٠٨
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: عدم التغالي في الثياب	١٠٩
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: عدم إسرافهم في الحلال إذا وجدوه	١١٠
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: كثرة الوصايا من بعضهم لبعض	١١٢
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: أنهم لا ينصحون ويوصون إلا من علموا منه بالقرائن قبول النصح	١١٤
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: تقليل أعمالهم في عيونهم	١١٤
ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: كثرة خوفهم من دخول الآفات	١١٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
	١٥٨

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



دار المصري للطباعة
ت: ٠١٢٢٧٢٤٩٤٧٥ - ٧٢٤١٧٨٦٠